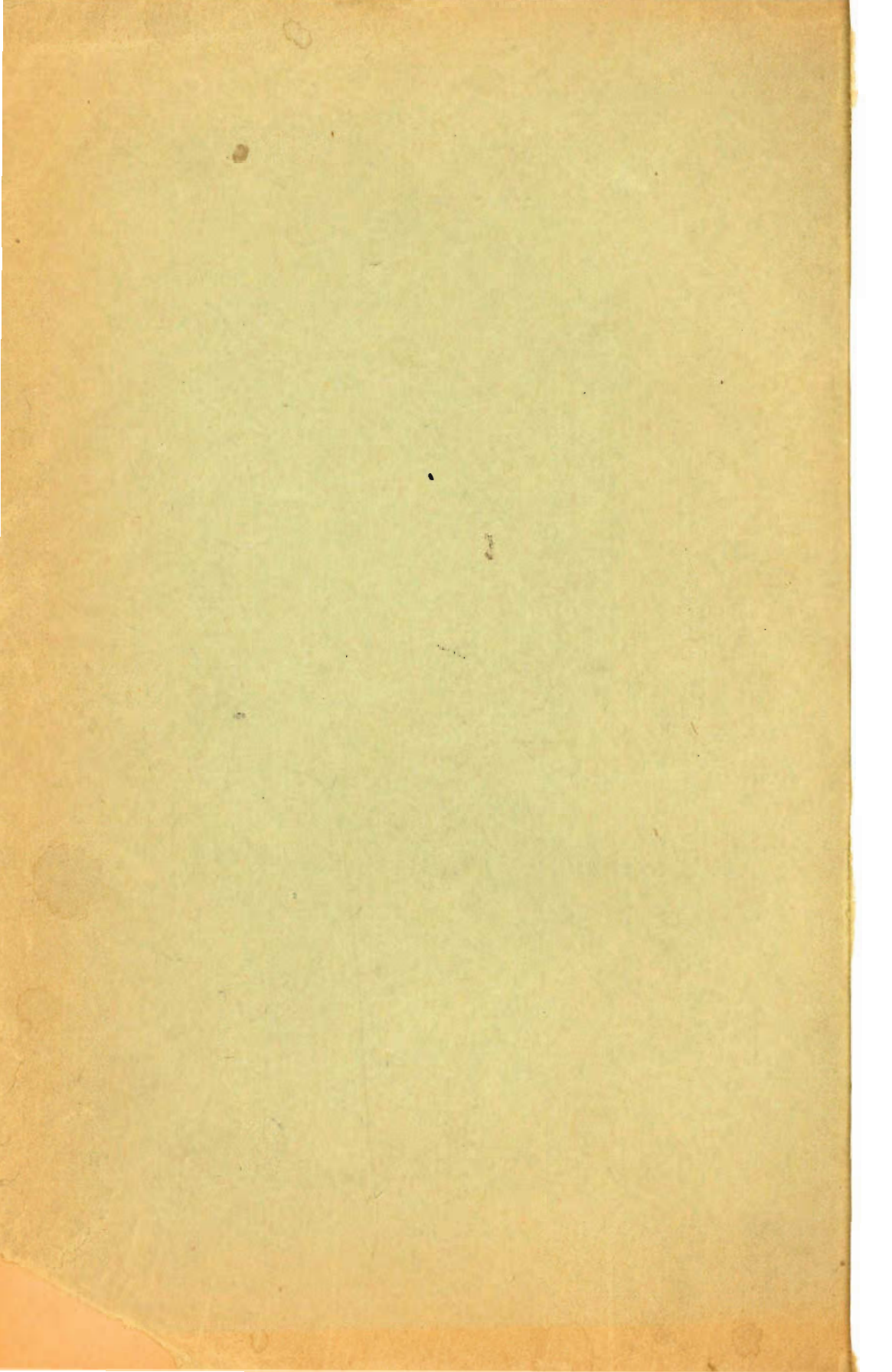


محمّد بن الحسن بن عفا

كوفي

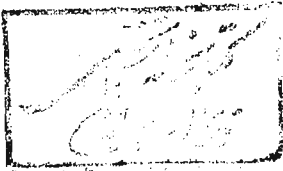
# أبو عثمان الجاحظ

الطبعة الأولى









أَبُو عَمَّانَ الْجَمَّاحُ

دار الطباعة المحمدية  
بالازهر بالقاهرة



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ





أبو عثمان عمرو الجاحظ



تَمْدِيرُ



## أبو عثمان الجاحظ

— ١ —

علم من أعلام العرب الخالدين  
وإمام من أئمة الفكر والثقافة والدين  
وشيوخ من شيوخ اللغة والأدب والنقد والبيان

عاش أكثر من قرن من الزمان ، وشهد حضارة العرب الزاهرة في  
عصر الرشيد والمأمون ، وعاصر التطورات الروحية والسياسية والاجتماعية  
والعقلية والأدبية التي آلت إليها حياة العرب والمسلمين في ظلال العصر العباسي  
الأول ؛ واشترك في هذه التطورات بانبا ومجدداً وعاملاً في كل حقول ، ومكافحاً  
في كل ميدان ؛ ونال من تقدير عصره ، وتكريم دولته ما لم ينله إنسان .

كان إماماً من أئمة المعتزلة ، وصاحب مذهب من مذاهبهم سمي (الجاحظية) ،  
وكان كذلك عالماً من أكبر علماء عصره ، ومفكراً من أعظم مفكري  
جيله ؛ كتب بطريقة علمية مبتكرة في النبات والحيوان والاجتماع والتربية  
وعلم النفس ، والجغرافيا والطب والكيمياء والفلك ؛ وغيرها .. وكان يقوم  
مذهبه في البحث العلمي على الشك ، ويقوم آراءه على التجربة ؛ فكان بذلك  
معلماً للعقل العربي ، ومصدراً أخذ منه فلاسفة العرب ؛ كما أخذ منه فلاسفة  
الغرب ، أمثال بيكون وديكارت وغيرهما ، نظرياتهم الجديدة ، التي اتخذوها  
أساساً من أسس النهضة .

والجاحظ فوق ذلك صاحب مذهب في النقد ، ومنشئ مدرسة وطريقة  
فنية في الأدب ، ومؤسس للبلاغة العربية ؛ وهو شيخ من شيوخ اللغة ،  
وعالم من أكبر علماءها .

وألّف الجاحظ أكثر من ثلاثمائة وخمسين كتاباً في مختلف فروع  
الثقافة ، ضاعت كلها إلا القليل النادر منها ، على مرور الأيام والأجيال ،

ولم يبق لنا منها إلا عدة رسائل ، وكتبه الثلاثة : البخلاء ، والحيوان ،  
والبيان والتبيين ، وآثار قليلة مفرقة ، ولو لم يكن للجاحظ سواها لكفاه  
شرفاً وغزاً ومجداً في تاريخ العقل العربي ، فلقد تتلمذت عليها الأجيال ،  
ولا زالت منبعاً خالداً من منابع الثقافة العربية ، ومصدراً أصيلاً من أهم  
مصادرها ؛ ولا زالت كذلك موسوعة علمية كبيرة عن عصر الجاحظ  
وحضارته المزدهرة في ظلال الخلافة العباسية .

- ٢ -

وهذا الكتاب الذي كتبته عن الجاحظ كان ثمرة وقت طويل ،  
وقراءات كثيرة ، وجهد شاق .

وقد تناولت فيه بالتحليل والدراسة عصر الجاحظ وحياته وشخصيته  
وثقافته ، وآراءه في السياسة ، ومذهبه في الاعتزال ، ومنهجه العلمي في البحث ،  
وأثره في النقد ، وطريقته في الأدب ، ومدرسته في البلاغة العربية ؛ كما  
أبنت عن أثره في العقل العربي وآداب العرب .

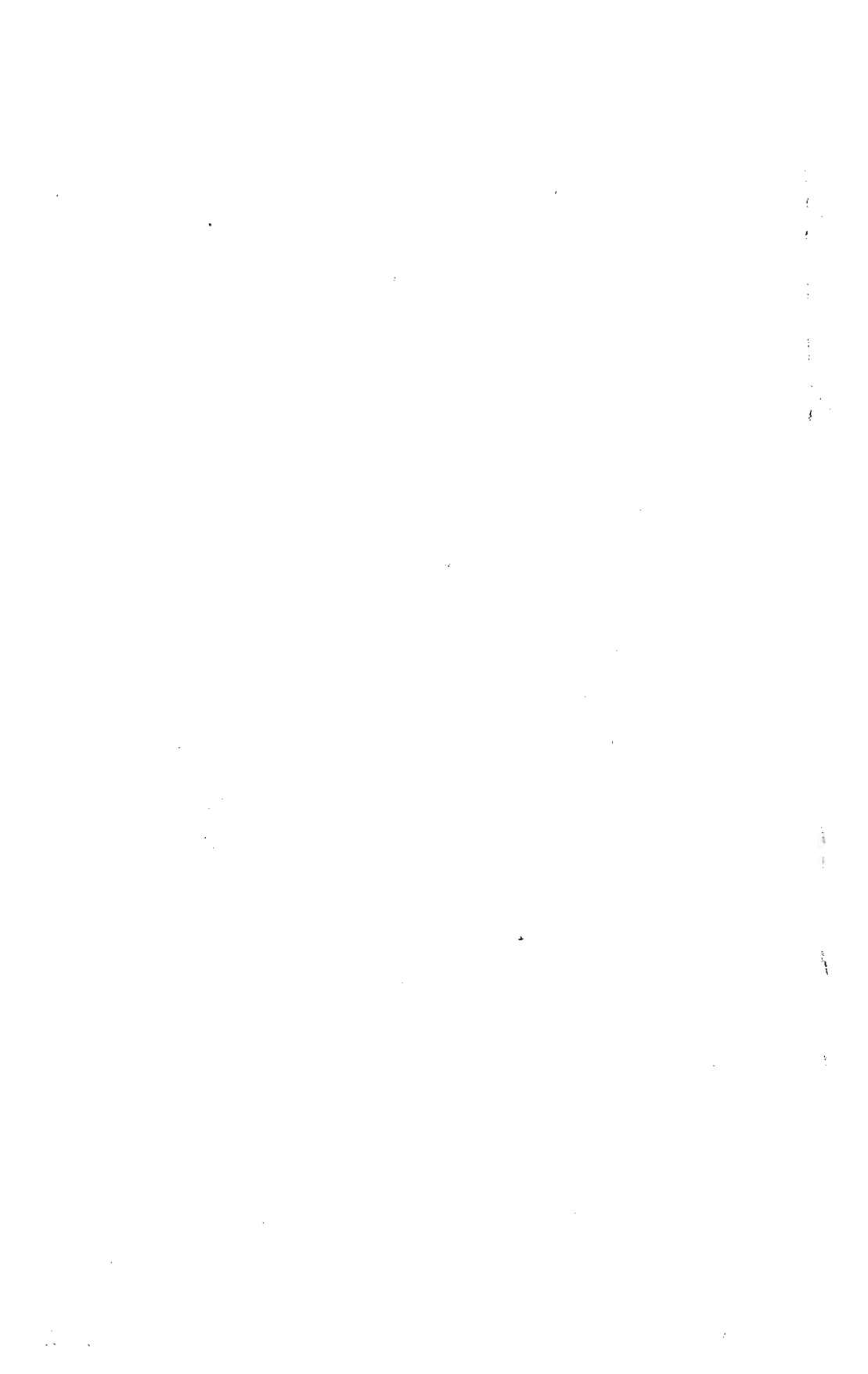
وحسبي أن أكون قد كتبت بأمانة ودقة هذه الصورة الواضحة ،  
والدراسة الشاملة ؛ عن هذا المفكر المبدع ، والأديب الإنسان ، والعالم  
المتمكن ؛ شيخ العربية : عمرو بن بحر الجاحظ .

وثقة بالقارىء العربي ، وأملأ في تقديره ، يسعدني أن أقدم إليه هذا  
الجمد المتواضع ، رمز تقدير وحب وإكبار ، لمفكر عربي ، صمد أدبه  
وفكره لامتحان الأجيال ، فلم يزدد جوهره الثمين إلا تألقاً وضياءً ونصوعاً ،  
ونال من تقدير المفكرين في الشرق والغرب في كل جيل أوسمة المجد  
والفخار والخلود . وسوف يحتفل العالم العربي بعد سنوات قلائل بمرور  
أحد عشر قرناً على وفاته ، أو اثني عشر قرناً على ميلاده .  
رحمك الله يا أبا عثمان .

فقد أديت الرسالة ، وسجلت في تاريخ الفكر العربي والإنساني أروع  
الصفحات ...



الجاحظ



# البَابُ الْأَوَّلُ

عمر الجاحظ



## تسبيح

ولد أبو عثمان عمرو بن بحر السكيتاني البصري عام ١٥٠ هـ : ٧٦٧ م ،  
وتوفي في المحرم عام ٢٥٥ هـ : يناير ٨٦٨ م ، ففي عام ١٩٦٧ م يكون قد مضى على  
ميلاده اثنا عشر قرناً ، وفي يناير ١٩٦٨ يكون قد مضى على وفاته أحد عشر قرناً ؛  
وعاصر الجاحظ اثني عشر من خلفاء بني العباس ؛ وهم : المنصور ، الممدي ،  
الهادي ، الرشيد ، الأمين ، أمون ، المعتصم ، الواثق ، المتوكل ، المنتصر ،  
المستعين ، المعتز ؛ وهم أشهر الخلفاء العباسيين ، وأعظمهم نفوذاً ، وأجلهم  
همة ، وأوسعهم سلطاناً ، وأبعدهم في خدمة الحضارة والعروبة  
والاسلام أثراً .

وقد اقترن ميلاد الجاحظ بميلاد النهضة السياسية والفكرية والأدبية  
في العصر العباسي الأول ، وفي ظلال نفوذ الخلافة العباسية ؛ ولسوف  
ندرس عصر الجاحظ لنقف على جميع المؤثرات التي أثرت في تفكيره وأدبه .

ولقد كان قيام دولة الخلافة العباسية عام ١٣٢ هـ : ٧٤٩ م على يد أبي  
العباس السفاح العباسي حدثاً كبيراً ؛ إذ أعلن من فوق منبر المسجد في الكوفة  
زوال دولة بني أمية ، وقيام حكم بني العباس ، واتخذ الهاشمية قرب الأنبار  
عاصمة له ، ووطد دعائم عرشه ، وأخذ البرد والقضيب من خلفاء بني أمية ،  
وكان مروان بن محمد الأموي حين أحاط به العباسيون أمر خادماً له أن يدفنهما  
في الصحراء (١) ؛ وفي عهد المنصور العباسي (١٣٦ - ١٥٨ هـ : ٧٥٤ - ٧٧٥ م)  
أسست بغداد في موضع قرية كانت تقوم على ضفة دجلة الغربية ، فإذا قصور

---

(١) ٣ : ٦٩ البيان والتبيين ، طبعة الخانجي - القاهرة

الأكاسرة في المدائن تنقل حجارتها (١) وأنقاضها لتبنى بها قصور بغداد ،  
وإذا المدينة الجديدة ترتفع على شكل مستدير يقوم في وسطه قصر الخليفة  
المسمى باب الذهب أو القبة الخضراء ، وإذا المدينة فارسية الطابع والنظام ،  
وترتفع فيها حول قصر الخليفة قصور الأمراء والوزراء والقواد وكبار رجال  
الدولة ومستشاري الخليفة ، وبدأ العمل فيها عام ١٤١ هـ وانتهى عام ١٤٥ هـ ؛  
وسارت النهضة السياسية والفكرية والأدبية في عهد المنصور في طريقها  
لاتلوى على شيء ، فازدهرت الحضارة ، وامتد نفوذ الإسلام حتى بلغ  
كشمير في الهند ، وكان المنصور داهية أربيا ، ومقدما في علم الكلام (٢)  
أديبا ، وفي عهده ولد أبو عثمان الجاحظ ، الذي صار فيما بعد من أعلام  
الفكر العربي في عصره ، بل من أئمة الفكر الإنساني ومن أشهر الأدباء  
العالمين قاطبة ، واحتل منزلة عالية في تاريخ الثقافة العربية الإسلامية ، لم  
يبلغها أديب آخر على مر الأيام .

---

(١) الجاحظ طبع دار المعارف - القاهرة ، بقلم حنا الفاخوري  
(٢) ٣ : ٣٦٧ البيان والتبيين - الخانجي - القاهرة

# الفصل الأول

## الحياة السياسية في عصر الجاحظ

- ١ -

شاهد الجاحظ عظمة الخلافة العباسية ، وعاش في ظلال سلطانها العظيم ونفوذها الكبير ؛ كانت حياته عهد استقرار وازدهار ؛ فقد ثبتت قواعد الدولة على يدي المنصور ، وامتد نفوذها في كل مكان في أيام المهدي ، وتألفت حضارتها وعظمت هيبتها في زمن الرشيد والمأمون ، وتوالى انتصاراتها العسكرية في خلافة المعتصم ، وظلت في قوة وازدهار في عصر الواثق والمتوكل .

وفي ظلال هؤلاء الخلفاء كان النفوذ السياسي للعنصر الفارسي الذي ساعد على قيام الدولة ونشر دعوتها ، وثل عروش الأمويين ؛ وكانت الأمور بأيدي الوزراء والقواد الفرس ، وإن كان للخليفة العباسي الرأي الأعلى ، والسلطان الكامل ، والكلمة النافذة ، والرأي القاطع ؛ وربما أوجس في نفسه خيفة من معاونيه من الفرس ، فيبطش بهم كما فعل المنصور ، وكما فعل الرشيد بإبرامكة ، والمأمون بالفضل بن سهل ، وإذا كانت دولة بني أمية عربية أعراقية فإن دولة بني العباس أصبحت أعجمية خراسانية كما يقول الجاحظ (١) ، فقد كان للفرس في هذا العهد نفوذ كبير ، فهم أكثر من تولى الأعمال للمنصور (٢) ، واتخذ الخلفاء ذلك سنة (٣) ؛ وفي عصر الرشيد زاد

---

(١) ٢٠٦ : ٣ البيان والتبيين

(٢) راجع الجرشري ١٣٩ - ١٥٧

(٣) ٤٠١ : ٢ مروج الذهب للمسعودي

نفوذ الفرس بفضل البرامكة ، وكان منصب الوزارة وغيره وقفا عليهم ، وظل نفوذهم في ازدياد بتوالي السنين (١) ، خفت كفة العرب ، ورجحت كفة الأعاجم ، وصار العرب عنصراً من العناصر الكثيرة التي عاشت في ظلال الخلافة ، وقد جعل الفرس قصور الخلفاء في بغداد أشبه بقصور الأكاسرة في المدائن ، وهم الذين نسقوا الدواوين ، ووضعوا أساليب الحرب ونظم الحكم ، فتحوّل الأنظار عن العرب وتقاليدهم ، وانفتحت على الجديد والاستفادة منه ، وبتأثير ذلك نشأت نزعة التجديد والتخير ، أي تخير أمثل ما في الحضارات القديمة ، وتوسيع الصدر لها . والعمل بها (٢) ، فاتخذ الخلفاء الوزراء من الفرس ، وجعلوا وزارتين : وزارة تفويض ووزارة تنفيذ ، فالأولى تخول لصاحبها حق تدبير الشؤون برأيه ، والثانية يملك صاحبها شئون التنفيذ لأوامر الخليفة ، وبجانب الوزراء : المتولى على ديوان البريد ويراقب تصرف الولاة في الأقاليم الكبرى ، وصاحب ديوان التوقيع ويقوم بختم الرسائل وتسجيلها ، وصاحب ديوان الضياع ، ويتولى النظر في ضياع الخلفاء وأملاكهم ، وصاحب ديوان الخاوص وينظر في حسابات الحاشية والخدم ، وصاحب ديوان الضرب وديوان الطراز ويتصرف في ضرب النقود والقيام بالطراز ، ثم هناك ديوان العزيز ، وديوان الجيش وديوان بيت المال ودواوين أخرى تقوم بشئون الإدارة ، ومنهم يختار حكام الأقاليم ، ومنهم الفضل بن يحيى البرمكى ، وجعفر بن يحيى البرمكى ، وقد اتخذ الفضل بخراسان جنداً من العجم سمّاهم (العباسية) ، وبلغ عددهم نحو خمسمائة ألف ، وجعل ولاءهم للعباسيين (٣) . وتبادل الخلفاء العباسيون

(١) ١ : ١٨ - ٤٩ ضحى الاسلام ط ١٩٥٦

(٢) ٨ الجاحظ للفاخورى

(٣) ١٠ : ٦٢ الطبرى

الهدايا والسفراء مع ملوك غربي أوربا مثل شارلمان ، ودفع ملوك الدولة الرومانية الشرقية الجزية للخلفاء وهم صاغرون .

وإذا كان عصر هؤلاء الخلفاء قد امتاز بقوة الخلافة ، وعظمة الخلفاء ، ومجد الدولة ، وبنفوذ الفرس ، فإن عصر المتوكل والمنتصر والمستعين والمعتز كان يتسم بضعف الخلافة ، وضياح هيبة الخلفاء ، وفساد شئون الدولة ؛ وذلك بسبب نفوذ الأتراك ، الذين بلغ عددهم مبلغا كبيرا في ظلال حكمهم .

وكان المعتصم قد كون منهم فرقة عسكرية كبيرة في جيش الخلافة بلغ عددها نحو السبعين ألفا ؛ ولما ضاقت بهم بغداد ، وكثرت الخصومات بينهم وبين الفرس ، أتى المعتصم « سامرا » ، على شاطئ دجلة وعلى مسيرة ثلاثة أيام من بغداد ، فاتخذها معسكرا لجيشه ، وحاضرة للملكة ، منذ عام ٢٢١هـ (١) ، وأصبحت مدينة عظيمة في مدة وجيزة (٢) ، وظلت مقر الخلافة حتى عام ٢٨٩هـ ، والمعتصم أمه « ماردة » تركية من السغد ، ولطمأناته إلى الأتراك صاروا موضع ثقته وإيثاره ، وكان ذلك ضربة شديدة أصابت نفوذ العرب والفرس في الصميم (٣) ، وأصبح نفوذ الترك قويا في دولة الخلافة ؛ وبعد قليل أخذوا يعتدون على قدسية الخلافة وجلال الخلفاء ، وينهبون الدور ، ويتعرضون للحرم والأطفال ، فكرههم الناس ، وقد هجا دعبل الشاعر الخليفة المعتصم من أجل ذلك فقال :

---

(١) ٤ : ٤٤ المسعودي — مروج الذهب ، تحقيق محمد محي الدين

عبد الحميد

(٢) ٥٢ و ٥٣ تاريخ الحضارة الإسلامية لبارتولد

(٣) ٤ : ١٤٤ و ٢٧٠ التمدن الإسلامي لجورجي زيدان ، ١٦٥ - حضارة

الإسلام في دار السلام

وهمك تركى عليه مهانة فانت له أم وأنت له أب

والأتراك هم الذين رشخوا للخلافة المتوكل عام ٣٢ هـ - بعد موت الواثق - لأن أمه «شجاع» تركية خوارزمية . وفى عصر المتوكل ازداد نفوذ الأتراك كذلك، ثم لاحظوا أخيراً أن الخليفة يعمل على كبح جماحهم ، فدبروا مؤامرة لقتله (١) ، ومعهم المنتصر الذى كان أبوه المتوكل يكرهه ويوشك أن يعزله من ولاية العهد ، وقتلوا المتوكل ووزيره الفتح بن خاقان فى أواخر عام ٢٤٧ هـ ، وعقب ذلك ازداد تدخلهم فى أمور الخلافة ، وخاصة فى عهد المنتصر والمستعين والمعتز ، الذى مات الجاحظ فى آخر خلافته عام ٢٥٥ هـ (٢) . .

وقد قامت ثورات كثيرة شعبية ضد الأتراك ، أهمها ثورة عام ٢٤٩ هـ التى قضى عليها الأتراك بغنف وقوة ، وكان بعض زعماء الترك يحاولون التخفيف من حدة شعور الرأى العام وبغضه لهم ، وبشوا دعايات كثيرة ، كان من مقدماتها ، ومن أبرعها رسالة كتبها الجاحظ بإيحاء من الفتح بن خاقان ، عن مناقب الأتراك وعامة جند الخلافة ، ودعا فيها إلى وحدة الأجناس والعناصر ، وأشاد فيها بالأتراك ونوه ببطولتهم ، على أن هذه المحاولة وسواها من المحاولات جميعها قد فشلت فى الوصول إلى الغرض المنشود . .

وكذلك حفل عصر الجاحظ بكثرة ثورات العلويين وخروجهم على

(١) ٤ : ٦٥ - ٦٧ مروج الذهب

(٢) ١١٠ : ١٦٢ طبرى ، ٢ : ١٣٠ شذرات الذهب ، ٤ : ١٢٠ مروج

الخلافة ، وذلك راجع لاضطهم سادهم واضطهاد شيعتهم ، وقد زاد هذا الاضطهاد حدة في عهد الرشيد والمتوكل (١) .

ولم تخل البلاد في عصر الجاحظ من الفتن والحروب ؛ ففي الداخل نهض الخلفاء إلى قمع ثورات الراوندية أتباع ابن الراوندى الرافضى ، والزنادقة في فارس والعراق ، والخرمية أتباع بابك الخرمى الذى ملك « الجبل » أكثر من عشرين عاما ( ٢٠١ - ٢٢٣ هـ ) حتى قضى المعتصم على ثورته ؛ وفي الخارج كانت غزوات الصيف والشتاء مستمرة ، وأكثر ما كانت موجهة إلى الإمبراطورية الرومانية الشرقية في سهول آسيا الصغرى ، وخاصة في زمن الرشيد والمعتصم .

وفي ظلال هذه الفوضى السياسية استقلت بعض البلاد عن حكم الخلافة العباسية ، كالدولة الطاهرية بخراسان وهى فارسية ، والدولة الدلفية بكردستان وهى عربية ، وسواهما ..

---

(١) ١٩: ٧ تاريخ ابن الأثير ، ١: ٤١ ظهر الإسلام لأحمد أمين ، ١٧٣  
الإدارة الإسلامية لمحمد كرد على ط ١٩٣٤

## الفصل الثاني

### الحياة الاجتماعية في عصر الجاحظ

- ١ -

أساس الحياة الاجتماعية هو الحالة الاقتصادية في أى مجتمع من المجتمعات أو أمة من الأمم . ولقد كانت الحياة الاقتصادية في عصر الجاحظ لا تسكاد تستقر على أساس متين ، وإذا كان الجمالون يحاولون التخلص بكرائم أموالهم من أيدي السلطان بالحيل ، كما يقول الجاحظ (١) ، فما بالك بغيرهم من أصحاب الأموال .

انتشر نظام إقطاع الأرض مكافأة أو هبة للمقرين لدى الخلفاء والوزراء ، وكان كبار الملاك يستقلون بإقطاعياتهم دون اهتمام بتحسين حالة الناس ، وكانت الرشوة منتشرة بين طبقات الموظفين صغارهم وكبارهم جميعاً ، وعمت المصادرة ، وصارت مصدراً من مصادر ربيت المال (٢) ، وأنشئ لها ديوان مخصوص (٣) ، وكانت ضرائب الأطنان أساس دخل الخلافة (٤) وقد كثرت ثروات الخلفاء والوزراء وسواهم من طبقات الخاصة ، وتنافسوا في الترف وتشيد القصور ، وكان الفرق بين طبقة الخاصة وطبقة العامة كبيراً (٥) ،

---

(١) ٢٠٧ : ٣ الحيوان ، ط الحلبي القاهرة

(٢) ١٨٠ : ٤ التمدن الإسلامى

(٣) ١٦٩ الادارة الإسلامية ، ١ : ٣٥ ظهر الاسلام

(٤) ٥٣ تاريخ الحضارة الإسلامية لبارتولد

(٥) ٥ : ٢٠ - ٥٩ و ١٠١ - ١٢٩ التمدن الاسلامى

والنفوذ والثراء في أيدي الخاصة من الناس ، مما استلزم البذخ والرفاهية ، فالمعتصم أنفق على بناء سامرا أموالا طائلة ، وكذلك فعل المتوكل في بناء الجعفرى ، ونلس من ذلك أن الترف والنعيم كانا حظ عدد قليل ، هم الخاصة من الناس ، وبعض رجال التجارة والصناعة ، حين كان الفقر والشقاء للعامة وهم أكثر الناس (١) . . ومن مظاهر الثراء في عصر الجاحظ : كثرة الرقيق حتى امتلأت به القصور ، فكثرت نسل الجوارى ، واختلطت الدماء ، وشاع الغناء ، وذاع اللهو والمجون بين مختلف الطبقات . وذلك كله أثر لاقتصاديات البلاد الواسعة ، وعدم عدالة توزيعها بين الناس . وقد انتشرت تجارة الرقيق من الصقليين والترك وغيرهم ، ويشبه الجاحظ أصناف الرقيق بألوان الحمام فشبه الصقالبة بالحمام الأبيض ، والزنج بالحمام الأسود . واشتهر من الأرقاء الغلمان الذين كانوا مثلاً للجمال والظرف ، والغلاميات الحسان يقصصن شعورهن ، ويلبسن ثياب الغلمان . وكان للجاحظ عدة غلمان ، منهم غلام اسمه « نفيس » (٢) .

ويقول أبو عثمان : ابتعت خادماً كان قد خدم أهل الثروة واليسار وأشباه الملوك ، فر به خادم من معارفه ، فقال له : إن الأديب وإن لم يكن ملكاً يجب على الخادم أن يخدمه خدمة الملوك (٣) .

ولضيق أبواب الرزق على كثير من الشعب ، وقصور وسائل الكسب من أن تقى بمطالب الحياة ، اتخذ بعضهم تكسيف الناس حرفة ، وقعدوا للسؤال في كل مقعد ، ولما استرعى هؤلاء نظر رسول ملك الروم إلى المنصور ، قال لعامة بن حمزة وكان يرافقه من قبل المنصور في تطوافه ببغداد :

---

(١) ٩٧ : ١ ظهر للإسلام

(٢) ٢٦ : ٤ و ٢٧ البيان - الخانجي - القاهرة

(٣) ٢ : ٢٣١ المرجع السابق

إنى أرى عندكم قوما يسألون الناس ، وقد كان يجب على صاحبك أن يرحم هؤلاء ويكشفهم مؤنهم وعيالاتهم ، فاعتل له عمارة بوجه ، واعتل له المنصور بوجه .

وقد صور أبو العتاهية حياة الفقراء والشعب في شعره تصريراً رائعاً . ومن ذلك وضعه للغلاء في بغداد في قوله :

|                     |                      |
|---------------------|----------------------|
| من مبالغ غنى الإما  | م نصائحاً متوالية    |
| إنى أرى الأسعار أسه | عار الرعية غالية     |
| وأرى غيوم الدهر را  | ثمة تمر وغادية       |
| وأرى اليتامى والأرا | مل في البيوت الخالية |
| من بين راج لم يزل   | يسمو إليك وراجية     |
| يشكون بمجدة بأص     | وات ضعاف عالية       |
| من للبطون الجائعات  | وللجسوم العارية (١)؟ |

وأكثر أبو العتاهية في شعره من الدعوة إلى الزهد ، والرغبة عن الملذات والانصراف عن الدنيا ، وذلك من أثر الحرمان والفقر ، يقول من شعره :

|                   |                   |
|-------------------|-------------------|
| رغيف خبز يابس     | تأكله في زاويه    |
| وغرفة ضيقة        | نفسك فيها خالية   |
| أو مسجد بم عزل    | عن الورى في ناحية |
| تدرس فيه دقراً    | مستنداً بسارية    |
| خير من الساعات في | في القصور العالية |

وكانت الدولة الإسلامية في ذلك الحين مؤلفة من عدة عناصر أهمها :

١ - العنصر العربي ، وقد أقصى عن النفوذ ، وكان للمعتصم في ذلك آثار معروفة ، وكان مابقى لهم من نفوذ أظهر ما يكون في الجزيرة والشام حيث كونوا لهم هناك عدة دويلات ، وطابع العربي الزهو والاعتزاز بالنفس والفضائل ، والميل إلى الأدب ، والرغبة في السياسة .

٢ - العنصر الفارسي ، وكانوا عماد النظام السياسي والإداري للدولة ، التي تأثرت بهم في حياتهم العقلية الخصبية وفي عاداتهم وتقاليدهم العامة وهم دعاة الترف والمجون والحضارة ، وطابعهم البذخ والعمل السياسي والإداري المنظم ، وتشجيع العلوم ، والظهور بمظهر التشيع .

٣ - العنصر التركي ، علا أمرهم منذ عهد المعتصم ، وقضوا على نفوذ العرب والفرس ، فاتجه الفارسيون إلى الاستقلال ببلادهم ، وأخلاق الترك الاجتماعية ضعيفة ، وفيهم عبث بالأخلاق ، وشراة في جمع المال وكانوا مشهورين بالجمال والنظافة ، فكشرت الجوارى التركيات والغلمان الأتراك في قصور الأثرياء ، وكان بعض الخلفاء من أمهات تركيات ، وطابعهم حب الجندية والفروسية والانتصار لمذهب أهل السنة ، والبعد عن الفلسفة والجدل في الدين ؛ وعدم الرغبة في التجديد .

٤ - العنصر الرومي . وقد كثر أسراهم في بيوت الخلفاء والأثرياء ، وكان بعض الخلفاء من أمهات روميات ؛ وكانت الجوارى الروميات والغلمان الروم يملأون القصور ؛ ويتعشقهم الشعراء ؛ ومنهم نسيم غلام البحتری<sup>(١)</sup>

ومن هذا العنصر ابن الرومي الشاعر ( ٢٢١ - ٥٢٨٣ ) .

٥ - الزنج أو السود ، كانوا يجلبون من سواحل أفريقيا الشرقية للعمل في الزراعة والصناعة ، وفي بيوت الطبقات المتوسطة ، وفي الحراسة وغيرها من الأعمال ، وقد قاموا بثورة كبيرة قضى عليها الموفق عام ٥٢٧٠ هـ ، بعد خمسة عشر عاما .

ولتنوع الحياة الاجتماعية إلى خاصة وعامة ، وترف وفقر ، ونسك ولهو ، كانت البلاد معرضا للنحل ، ومجالا للدعايات السرية وأصحاب المذاهب الذين مزجوا الأغراض الاجتماعية بالمبادئ الدينية ، وعالجوا الترفيه عن الفقراء بالدعوة إلى المساواة ، فكان فيها التشجيع برجالاته ، والاعتزال بطوائفه ، والسنة باختلاف الأقوال فيها ، والفلسفة بمذاهبها ، والعلوم الحديثة بأنواعها ، وطوائف الأديان الأخرى بمبادئهم وآرائهم .

وقد قامت جماعات تكافح الشك في الدين ، والمجون في المجتمع ، وتدعو إلى الأخلاق الإسلامية الأصيلة ، ومنهم الحنابلة الذين قاموا بثورات في بغداد لمحاربة الإلحاد واللهم . على أن النزعة السائدة من الجانب الديني كانت هي الحرية الدينية ، وساعد على ذلك قيام المعتزلة الذين قرروا حرية العقل ودافعوا عنها ، وكذلك ترجمة الفلسفة اليونانية وذيوع مذاهبها في الفكر الإسلامي ، وقامت ضجة عالية بين مختلف الفرق الاجتماعية والدينية من نصارى ويهود ، وصائبة وزرادشتيين ومانويين وزنادقة ودهريين وغيرهم ، وكان بين المعتزلة وأهل السنة والشيعة ورجال الحديث ، وبين الخوارج والرافضة وبين الجهمية والمرجئة وغيرهم جدل شديد .

وهكذا عاش الناس في امتزاج وتوليد بين مختلف العناصر والأجناس،  
وفي صراع شديد ، بين الآراء والمذاهب ، بين العرب والموالي ، بين  
دعوات العروبة الخالصة ودعوات الشعوبية الجاحقة ، بين حياة الزندقة  
وحياة الإيمان ، بين عيشة اللهو وعيشة الجد ، مما أثمر ثمره في الحياة  
الاجتماعية في عصر الجاحظ .

وبما كان له دويه الشديد وصداه العميق في حياته وثقافته وأفكاره  
وآرائه .. على أن كتب الجاحظ هي أغزر مصدر لدراسة الحياة الاجتماعية  
في عصره (١) .

## الفصل الثالث

### الحياة العقلية في عصر الجاحظ

- ١ -

ازدهرت الحياة العقلية في عصر الجاحظ ازدهارا كبيرا ، وتلافت في الحواضر الإسلامية شتى الثقافات التي تمثل حضارات الأمم العريقة في العلم والثقافة ؛ وأخذ الخلفاء يشجعون الحركة العلمية في شتى جوانبها ، ويضفون عليها ظلال رعايتهم وتشجيعهم ، وكانوا يبالغون في إكرام الأدباء والعلماء ويجالسونهم ويقربونهم إليهم ، وصار العلم والأدب وسيلة إلى المناصب العالية ، والنموذ والجاه ؛ وكان كل من نبغ في العلم ، أو شهر بالأدب ترفع منزلته ، ويتنافس العظماء في تكريمه ، كما يتنافسون في إنشاء دور العلم ، وترجمة الكتب إلى العربية من مختلف اللغات .

وإذ كانت الدولة مزيجاً من شعوب كثيرة ، كانت عقلية الشعب العربي آنذاك صدى لامتزاج الثقافات ، وتلاقى الحضارات ، ولتصافي الأجناس في غالب الأمر .

كانت الثقافة العربية الإسلامية هي الذائعة ، وهي أساس التكوين العقلي للطالب العربي في عصر الجاحظ ؛ وقوامها علوم الدين ، واللغة والأدب ، وما يتصل بكل ذلك من علوم ومعارف ؛ ولها أكبر الأثر في الفكر الإسلامي في عصر الجاحظ ، كما كانت المورد العذب للناس جميعاً .

وحيث كان النفوذ في عصر الجاحظ للفرس ، فقد انتشرت ثقافتهم انتشاراً كبيراً على أيدي الوزراء والكتاب الفارسيين ، ونقل المثقفون من

الفرس الذين أجادوا العربية ، والعرب الذين أتقنوا الفارسية ، إلى العربية ،  
تراث الفرس القديم في الحضارة والثقافة ، ويقول ابن خلدون ( ٨٠٨ هـ ) :  
إن حملة العلم في الإسلام أكثرهم من العجم (١) .

ودخلت الثقافة اليونانية في هذا العصر على الفكر الإسلامي بامتزاج  
العرب واليونان في الحياة الاجتماعية ، وخاصة في الشام ، وبتشجيع الخلفاء  
 لترجمة كتب الطب والنجوم والفلسفة من اليونانية إلى العربية ؛ وإذا كان  
خالد بن يزيد ( ٨٩ هـ ) أول من ترجم له كتب النجوم والطب والكيمياء (٢)  
 فقد عني المنصور ( ١٥٨ هـ ) بترجمة كتب النجوم والطب والفلسفة . وبعث  
إلى امبراطور الدولة الرومانية الشرقية يسأله صلته بمسا لديه من كتب  
الفلاسفة واختار لها مهرة التراجم وكلفهم بإحكام ترجمتها (٣) ، وترجمت له  
الكتب من اليونانية والرومية والسريانية والفهلوية (٤) .

وكذلك فعل الرشيد الذي أنشأ في بغداد بيت الحكمة ونقل إليه  
ما وجده من كتب في أنقرة وعمورية وبلاد الروم التي غزاها المسلمون ،  
وقلد يوحنا بن ماسويه أمر الإشراف على ترجمة الكتب القديمة ، وأوفد  
المأمون الرسل إلى ملك الروم في استخراج علوم اليونانيين ونسخها بالخط  
العربي وبعث المترجمين لذلك (٥) ، وعين سهيل بن هارون مشرفا على بيت  
الحكمة ، التي امتلأت بالكتب المهداة إلى الخليفة من ملك جزيرة قبرص  
ومن ملك الروم .

---

( ١ ) ٥٤٣ مقدمة ابن خلدون .

( ٢ ) ١ : ٢١٣ البيان والتبيين للجاحظ ٤٩٧ الفهرست لابن النديم ،  
٩٣ رسائل الجاحظ .

( ٣ ) ٤٨٠ المقدمة ، ٥٥ طبقات الامم لصاعد الاندلسي .

( ٤ ) ٤ : ٢٤١ مروج الذهب .

( ٥ ) ٤٨١ المقدمة .

وكذلك اتصلت الثقافة الهندية بالفكر العربي مباشرة وبوساطة  
الفرس أيضا .

تجمعت هذه الثقافات في العراق في عصر الجاحظ ، وأحدثت أثرها  
الضخم في العقول والأفكار ، وكان المتكلمون أكبر عامل في امتزاج هذه  
الثقافات (١) ، وصلة بين الفلسفة اليونانية والأدب ، فقدموا معاني لم يكن  
الأدباء والشعراء يعرفونها .

ومنذ عصر المتوكل زاد امتزاج هذه الثقافات واتصالها ، بتطاول الزمن  
وتلاقي العلوم ، وظهور آثار حركة الترجمة ، وتشجيع الخلفاء والوزراء  
والأمراء والولاة للعلم والعلماء ، فكان هذا العصر أزهى عصور العلم في  
البلاد الإسلامية ، ونبع أعلام خالدون في كل فرع من فروع الثقافة ،  
وعرف الناس أن « كل عز لم يؤكد العلم فإلى ذل يؤول » ، فانبكبوا على  
الثقافة ، وعهد أهل اليسار إلى المؤدبين بتعليم أبنائهم ، وبذلك أصبح التعليم  
صناعة ، وصار التأديب طريقا إلى المجد والسؤدد (٢) .

وكانت هذه الثقافات المتعددة تؤلف التراث العلمي في ذلك العصر ،  
وفيها زبدة علوم الآشوريين والبابليين والفينقيين والمصريين والهنود  
والفرس واليونان والرومان ، وكان لابد للرجل المستنير أن يأخذ بحظ من  
الثقافات جميعها (٣) . . . . وكانت السيادة أولا لنزعة الاعتزال التي أيدها  
المأمون بكل قوته ، وفي عصر المتوكل انتهى سلطان المعتزلة وارتفع شأن  
المحدثين ، وبطل القول في خلق القرآن . واضطهد رؤساء المعتزلة .

---

(١) ١ : ٣٨٠ ضحى الإسلام .

(٢) ٢ : ٣١٣ أمراء البيان - محمد كرد علي ط ١٩٢٧ القاهرة .

(٣) ١٢ الجاحظ لفاخوري .

وقد تعددت مراكز الحياة العقلية العربية في عصر الجاحظ فنشطت الدراسات الدينية واللغوية في مصر ، وتفوقت الشام في الشعر والآداب واللغة (١) ، وكان للعراق والصدارة في العلم والآداب والفلسفة ، وأصبحت بغداد والبصرة وحران من أهم مراكز البحث العلمي والحضارة في عصر الجاحظ ، فالجاحظ والكسندى (٢٥٣ هـ) بصريان ، والبتاني الرياضي الفلكي من حران ، واشتهرت بلخ وخوارزم وأصفهان في ميدان الفكر والثقافة .

عمرت مجالس العلم والآداب ، والعهد بعلباء البصرة : يختلفون إلى المسجد والمربد ، وكان المسجديون والمربديون جماعاً من شعب الآداب والرواية ؛ أما الكوفة فيختلف بنوها إلى الكناسة مجمع الشعراء والأدباء ، وإلى مسجدهم مجمع العلماء ، ومنغى القراء ، والمنافسة بين البصرة والكوفة على أشدها ؛ أما بغداد فكانت تتعقد مجالسها ، وتغص مساجدها بأرباب العقول وقادة الفكر وأمراء البلاغة ، وشعراء المحدثين (٢) .

وهكذا كان عصر الجاحظ حافلاً بالعلوم قديمها وحديثها ، كما كان حافلاً بالفلاسفة والمفكرين والعلماء ؛ وصارت العلوم المترجمة شرطاً في تكوين ثقافة الكاتب والأديب ؛ وعلى أي وجه فقد كانت مناهج التفكير متعددة ، وكان الخلاف بين هذه المناهج على أشده في العراق ، حتى رأينا

---

(١) ١ : ٨ بقيمة الدهر للشعالي ، ١ : ١٧٧ ظهر الاسلام لاحمد امير .

(٢) ٢ : ٣١٢ امراء البيان .

أبن قتيبة (٢١٣ - ٢٧٦ هـ) يثور في مقدمة كتابه «أدب السكاتب» على الحالة في عصره، حيث أهمل الناس علوم الدين مع عنايتهم بعلوم الفلسفة والمنطق (١) ولقد نبغ في عصر الجاحظ كثير من أئمة العلماء، ومن أشهرهم:

١ - في التشريع: مالك (١٧٩ هـ)، والليث بن سعد (٩٢ - ١٧٥ هـ)،  
وإشافعي (٢٠٤ هـ)، وأحمد بن حنبل (٢٤٠ هـ) والكراييسي (٢٤٥ هـ)،  
والزعفراني (٢٦٠ هـ)، وداود الظاهري (٢٠٢ - ٢٧٥ هـ)، والبويطي  
المصري ٢٣١ هـ.

٢ - وفي العلم: أبو الحسن المدائني (١٣٥ - ٢٣٤ هـ)، والواقدي  
(١٣٠ - ٢٠٧ هـ)، والزهرى كاتب الواقدي (٢٣٠ هـ)، وابن  
السيك ١٨٣ هـ.

٣ - وفي التصوف: إبراهيم بن أدهم اليلخي ١٦٢ هـ، وصالح المري  
الزاهد واعظ البصرة ١٧٢ هـ، ورابعة العدوية (١٠٠ - ١٨٠ هـ) (٢)،  
وبشر الحافي البصري (٢٢٧ هـ)، وذو النون المصري (٢٤٠ هـ)، والمحاسبي  
(٢٤٣ هـ)، والبسطامي (٢٦١ هـ).

٤ - وفي علوم اللغة والأدب: المفضل الضبي (١٧٠ هـ)، والخليل  
(١٠٠ - ١٧٥ هـ)، وسيبويه (١٨٨ هـ)، والأصمعي (٢١٦ هـ)، وأبوزيد  
الأنصاري (٢١٤ هـ)، وأبو عبيدة (١١٠ - ٢٠٨ هـ)، وأبو محمد البريدي  
(٢٠٢ هـ)، والقاسم بن سلام (١٥٠ - ٢٢٣ هـ)، وابن الأعرابي الكوفي  
(١٥٠ - ٢٣١ هـ) وهو من أصل هندي، وابن سلام الجعفي البصري  
٢٣١ هـ، ومصعب الزبيري (٢٣٦ هـ)، والتوزي (٢٣٨ هـ)، وأبو العميثل  
(٢٤٠ هـ)، وابن السكيت (٢٤٤ هـ)، ومحمد بن حبيب (٢٤٥ هـ)، والمازني

(١) ص ٢ وما بعدها - أدب السكاتب بهامش المثل السائر

(٢) ، ٢٧٨: المعبر في خبر من غير للذهبي (٧٤٨ هـ) الكويت ١٩٦٠

(٢٤٩ هـ) وأبو حاتم السجستاني وقد توفي - كالجاحظ - عام ٢٥٥ هـ ، والزبير ابن بكار (٢٥٦ هـ) ، والرياشي (٢٥٧ هـ) ، وعمرو بن شبة (١٧٣ - ٢٦٢ هـ) ، وابن قتيبة (٢١٣ - ٢٧٦ هـ) ، والمبرد (٢١٠ - ٢٨٥ هـ) .

٥ - وفي علم الكلام ظهر من المعتزلة : بشر بن المعتمر ( ٢١٠ هـ ) وثمامة بن أشرس ٢١٣ هـ ، والنظام ( ١٨٠ - ٢٢٣ هـ ) ، وابن أبي دواد ( ١٦٠ - ٢٤٠ هـ ) ، ويحيى بن أكرم ٢٤٣ هـ ، وأبو الهزيل العلاف البصري ( ٢٣٥ هـ ) ، والجاحظ ( ٢٥٥ هـ ) .

٦ - ومن المفكرين والفلاسفة ابن ماسويه الطبيب ٢٤٣ هـ ، والكندي ٢٥٣ هـ ، وتلميذه السرخسي ٢٨٦ هـ ، وحنين بن اسحاق ( ١٩٤ - ٢٦٠ هـ ) ، وأبو حنيفة الدينوري ٢٨٢ هـ ، وثابت بن قرة ( ٢٢١ - ٢٨١ هـ ) ، ثم البتاني الحراني ( ٣١٧ هـ ) ، وأبو زيد البلخي ( ٣٢٢ هـ ) وسواهم .

وهكذا حفل عصر الجاحظ بأفذاذ العلماء والمفكرين ورجال الدين ، كما حفل بالأدباء والكتّاب والشعراء .

وتلك هي معالم الحياة العقلية في عصر الجاحظ ، بما فيها من مؤثرات وتأثيرات ، وبما اشتملت عليه من تطورات ونهضات ، وكان الجاحظ يعيش في قمة هذا الطود الشاخ من الثقافات ، يدرس هذه البيئات الثقافية ، مصورا ومؤرخا ، يحيا ويراقب ، يختبر وينظر ، يمتزج وينعزل ؛ وكان العصر كله مصورا في نفسه وكتبه ، تتجلى فيه وفيها العديد من النزعات والثقافات ؛ فكان بذلك علما من أكبر أعلام الفكر العربي ، في عصره وبعد عصره على السواء .

## الفصل الرابع

### الحياة الأدبية في عصر الجاحظ

- ٣ -

صبغت آثار الثقافات المترجمة الحياة الاجتماعية والعقلية في عصر الجاحظ بأصباغ جديدة ، ولكن أثرها في الأدب واللغة كان متفاوتا ، فظلت مناهج الأداء والأساليب ولغة الكتابة والشعر قريبة مما كانت عليه من قبل ، من حيث نصجت معاني الكتاب وخيالات الشعراء ، وعمقت صياغتهم الذهنية وتفكيرهم العقلي إلى حد كبير . . ظلت العربية هي لغة التفكير والأدب وإن ساءرت حركة الرقي ، ولم تقف جامدة ضعيفة الإحساس بالحياة .

ولقد أثرى الأدب في عصر الجاحظ بما ترجم من فلسفة اليونان ومنطقهم ، فقد صبغا عقلية الأدباء والشعراء بآثارهما العميقة في التفكير والمعاني وطرافة التقسيم والخيال ، كما أثرى كذلك بالترجم إلى العربية من قصص الهند وأدب الفرس ، وكان للعرب الذين يجيدون الفارسية والفرس المتعربين مجال كبير في الأدب العربي ، ومن بينهم : بشار وأبو نواس ، والعتابي ( ٥٢٢ هـ ) وغيرهم .

فأنتجوا أدبا عربيا فيه معاني الفرس وبلاغة العرب . وكبار الكتاب والشعراء في هذا العصر من أصول فارسية ، ممن أحدثوا آثارا واسعة في الكتابة الفنية ، كذلك في أغراض الشعر ومعانيه وأوزانه وقوافيه ، وإذا كان الأدب في عهد بني أمية عربيا خالصا في المادة والمعنى ، ولم يكن للفرس إلا مدارسته وحفظ وروايته ، فقد كان أثرهم في عهد بني العباس أعمق ،

لا فى الأسلوب الببانى ، بل فى التفكير والخيال ، وبتأثيرهم تنوعت الأوزان وظهر التأنق فى النثر والشعر ، وطلبت الرقة والدمائة ، مع المحافظة على فصاحة العربية والأخذ بأساليبها .

\* \* \*

ويمتاز الأدب فى هذا العصر بظهور آثار الحياة العقلية فيه ، ويصدق تمثله للحياة الاجتماعية ، وبكثرة الحكم والقصص فيه ، وبظهور المؤلفات الجامعة فيه : كالبیان والحيوان وأمثالها ، وبأن الأدب أصبح صناعة علمية فى الإنشاء والتأليف ، وأظهر ما يتجلى فيه إبداع التصوير واتساع الخيال ، والمبالغة الشديدة والإكثار من البراهين العقلية والأمثال . . وقد أصاب الأدب كساد ، وانصرف الناس إلى الفلسفة وعلومها مما يبسطه ابن قتيبة فى مقدمة كتاب « أدب الكاتب » .

ولقد كان ظهور الموالى وعلو منزلتهم فى المجتمع العباسى ، مما أحيى فى نفوسهم الشعور القومى ، فظهرت الشعوية تنفس عن غيظها المكظوم طول عهد الأمويين ، وتمجد العجم بإعلان ما أثرهم ، وتزرى على العرب بتلمس المثالب لهم ، وتسجل ذلك فى الشعر ، من أمثال بشار ، والخرمى وأبى نواس ، وفى الكسب يضعها أمثال أبى عبيدة والهيثم بن عدى ، وسعيد بن حميد ، وعلان الشعوبى ، وانبرى لهؤلاء من الشعراء والعلماء من يرد عليهم ، ويدفع عن العرب وينتصر لهم ، كالجاحظ وابن قتيبة ومحمد بن يزيد الأموى .

وكان الأدب فى هذا العصر يعيش فى ظلال القصور ، التى تملك من النفوذ والثراء أسباب الترف ما لا يملكه الأدباء ، ولا العامة من الشعب .

وظهر تأثير الحضارة في أدب الكتاب وشعر الشعراء واضحاً جلياً ، خاصة في طبقة شعراء اللهم والغزل والمجون من أمثال بشار ومطيع بن إياس ووالبة وأبي نواس ومسلم وحسين بن الضحاك وغيرهم . وقد ضعفت الخطابة في هذا العصر بزوال أسبابها ، وأعجمية رجال الدولة ، ولأن العرش العباسي كان قد حكم بالاستبداد ، وبطلت الخطابة في الجيوش ، وضعفت الملكات .

وصار في الكتابة ، وقد تنوعت أساليبها وأغراضها ، غنى عن الخطابة . فاحتلت كتابة الرسائل منزلة سامقة ، وقد كان للانقلاب العباسي أثر في الميول والعقول ، ظهر على أفلام الكاتبين فاستنبطوا عيون المعاني ، وتخبروا شريف الألفاظ ، بما لم يكن حوشياً ولا سوقياً ، وفتحوا أبواب البديع ، وبذ الكتاب فحول الشعراء في الثراء والجاه ، ونبغ في الكتابة كما نبغ في الأدب والشعر جمهور كبير ، ونهض الشعر في هذا العصر نهضته التي لم يبلغ مثلها في عصر من العصور .

وكانت مصادر الثقافة الأدبية في هذا العصر كثيرة ، ومن أهمها : القرآن والحديث ، والكتب المؤلفة حولها مما يتصل بالأدب من مثل : مجاز القرآن لأبي عبيدة ، ونظم القرآن للجاحظ ، والإعجاز للواسطي المعتزلي (٥٣٠٦هـ) ، وكذلك خطب الخطباء وحكم الحكماء ورسائل الأدباء ، وكتب التاريخ والسياسة ، وكتب الأدب الجامعة : كالحيوان والبيان والتبيين وعيون الأخبار ، وكتب الكتابة والنقد والبيان ومنها كتاب الفصاحة للسجستاني والبلاغة للبردد وقواعد الشعر لشعرب ، والرسالة العذراء لابن المدبر . ثم كتب الشعر وأخبار الشعراء وطبقاتهم ، وغير ذلك من روايات الرواة وأخبار الأخباريين وأحاديث الأعراب .

ويقول الجاحظ : « وقد أدركت رواة المسجدين والمربدين ، ومن لم يرو أشعار المجانين ولصوص الاعراب ونسبهم ، والارجاز الأعرابية القصار ، والأشعار المنصفة ، فإنهم كانوا لا يعدونه من الرواة ، ثم استبردوا ذلك كله ، ووقفوا على قصار الحديث والقصائد والفقر والمنتف من كل من كل شيء ، ولقد شهدتهم وما هم على شيء أحرص منهم على نسيب العباس بن الأحنف ، فما هو إلا أن أورد عليهم خلف نسيب الاعراب ، فصار زهدهم في نسيب العباس بقدر رغبتهم في نسيب الاعراب ، ثم رأيتهم منذ سفيات وما يروى عندهم نسيب الاعراب إلا حدث السن قد ابتدأ في طلب الشعر ، أو فتيا في متغزل ، ولقد جلست إلى أبي عبيدة والأصمعي ويحيى ابن نعيم وعمرو بن كركرة ، مع من جالست من رواة البغداديين ، فما رأيت أحداً منهم قصد إلى شعر في النسيب فأنشده ، وكان خلف الأحمر يجمع ذلك كله » (١) .

ومن ذلك نعلم أن الرواة كانت تختلف أذواقهم في الرواية بين وقت وآخر ، كما تختلف أذواق الناس في الملابس و ( المودات ) اليوم .

ومن أشهر أعلام النهضة الأدبية في عصر الجاحظ : أبو نواس ١٩٨ هـ ومسلم ٢٠٨ هـ ، وأبو العتاهية ( ١٣٠ - ٢١١ هـ ) ، وأبو تمام ( ١٩٢ - ٢٣١ هـ ) وأبان اللاحق ( ٢٠٠ هـ ) ، والعتابي ٢٢٠ هـ ، وديك الجن ( ١٦١ - ٢٣٥ هـ ) وعلى بن جبلة ( ١٦ ، ٢١٣ ) ودعبل ( ١٤٨ ، ٢٤٦ هـ ) ومحمود بن الحسين الوراق ٢٣٠ هـ ، وعبد الصمد بن المعذل ( ٢٤٠ هـ ) وكان شاعر البصرة (٢)

(١) ٤ : ٢٣ و ٢٤ البيار والنبين - نشر الخانجي

(٢) ٩٣ خاص للعمالى ، ٣ : ٧٤ زهر الآداب للدهري

وعلى بن الجهم (٢٤٩ هـ) ، والحسين بن الضحاك الخليع (١٦٢ - ٢٥٠ هـ) ،  
وابن الرومي (٢٢١ - ٢٨٣ هـ) ، والبحترى (٢٨٤ هـ) .

وكذلك : الفضل البرمكي (١٤٧ - ١٩٢ هـ) والفضل بن سهل (٢٠٢ هـ) ،  
والفضل بن الربيع (٢٠٨ هـ) ، وابراهيم بن المهدي (٢٢٤ هـ) وابراهيم الموصلي  
(١٢٥ - ١٨٨ هـ) ، والحسن بن سهل (١٦٦ - ٢٣٦ هـ) واسحاق الموصلي  
(٢٣٥ هـ) وعمر بن مسعدة (٢١٤ هـ) واحمد بن يوسف (٢١٣ هـ) وابراهيم بن  
العباس الصولي (٢٤٣ هـ) وسعيد بن حميد (٢٦٠ هـ) ، والحسن بن وهب  
(٢٦٥ هـ) ، وسليمان بن وهب (٢٧٢ هـ) (٢) ، وابراهيم بن المديبر (٢٧٩ هـ)  
وابن طيفور (٢٠٤ - ٢٨٢ هـ) ، وابن أبي الدنيا (٢٨١ هـ) ، وابن قتيبة  
(٢١٣ - ٢٧٦ هـ) ، وأبو علي البصير (٢٥١ هـ) ، وجحظة البرمكي (٢٢٤ -  
٣٢٦ هـ) وسواهم .

وهكذا حفل عصر الجاحظ بكثير من أعلام اللغة والرواية والأدب  
والشعر والنقد ؛ وكان الجاحظ درة العصر ، وقمة ما بلغه من نهضة أدبية  
مرموقة .

---

(١) ٤٢٣ : ١ الغبر للذهبي

(٢) ٢١٠ : ٤ روج الذهب للسعودي ، ويجعل تاريخ وفاته عام ٧٠

## البَابُ الثَّانِي

حياة أبي عثمان الجاحظ

١٥٠ - ٢٥٥ هـ

٧٦٧ - ٨٦٨ م



# الفصل الأول

## البصرة موطن الجاحظ

- ١ -

أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ بصرى ، ولد ونشأ وعاش ومات في البصرة ، ولم يغادرها إلا قليلا إلى بغداد أو غيرها من العواصم والبلدان .

ولقد بنيت البصرة في الإسلام عام ١٤ هـ ، بناها عتبة بن غزوان بأمر الخليفة عمر بن الخطاب ، فأخذ عمرانها في الإتساع ، والحياة فيها تزدهر رويدا رويدا ، ونبع منها خول العلماء والشعراء ، والأدباء والمفكرين على مر العصور ، وحسبك بالجاحظ ابنا من أشهر أبنائها ، وعلمنا من أكبر أعلامها .

وصارت البصرة بعد قليل من أكبر مراكز الحياة العقلية في الإسلام ، وميناء العراق السكبرى ، ومن أعظم الموانئ البحرية في العالم الإسلامى القديم ، ترد إليها التجارة من كل مكان ، وتنقل تجارة البلاد العربية في سفنها الكبيرة إلى جميع موانئ المحيط الهندى حتى الصين ، ويغشاها أصناف من شعوب آسيا وإفريقية ، وقد اشتهر البصريون بأسفارهم البحرية في المحيط الهندى ، وفي البحر الرومى ( الأبيض المتوسط ) ، وفي غيرهما من البحار ، وكان لهم مران على التجارة يصرفونها في البر والبحر ، تاركين الزراعة لأبناء الذمة من السريان ، والعجم والزنج وغيرهم (١) ، ومراكب

البصرى عزيزة عنده كمنزله ، والجاحظ يذكر المراكب ويقدمها على المنزل (١) ، والبصرى كذلك خبير بالأسماك وأنواعها (٢) .

وازدادت حضارة البصرة في حياة الجاحظ ( ١٥٠ - ٢٥٥ هـ ) ، وعم الرخاء والرفاهية جميع سكانها ، واتسع البصريون في المال والتجارة ، وأصبحت المدينة أكبر ما تكون عمرانا ، وأكثر ما تكون ثراء . تزخر بشتى ألوان الحياة والترف ، وكان الخلفاء لا يولون عليها إلا أميرا من أمراء البيت الهاشمي العباسي ، ولى أمورها جعفر بن سليمان بن علي (٣) ، وقد دعا الرشيد لزيارة المدينة فزارها عام ١٧٦ هـ (٤) ، ويصف الجاحظ ما قدم على المائدة من طرائف الطعام للخليفة (٥) ، ووليها كذلك محمد بن سليمان الهاشمي ، وقد أهدى إلى الخيزران زوج الرشيد مائة وصيفة في يد كل واحدة جام من ذهب ، وزنه ألف مثقال مملوء مسكا (٦) ، ومن ولاتها كذلك اسحاق ابن سليمان بن علي وليها للرشيد (٧) ، ومات ببغداد ، وكان من معادن العلم (٨) ، ومن ولاتها أيضا عيسى بن جعفر حفيد المنصور وصهر الأمين (٩)

( ١ ) ٢٦٨ رسائل الجاحظ نشر السندوبى .

( ٢ ) ٣ : ٢٦١ وأول الجزء السادس والسابع من الحيوان نشر الحلبي .

( ٣ ) ٣ : ٧٤٠ الطبرى ط أوربا .

( ٤ ) ٩٧ الذخائر والتحف لابن البربر ط الكويت ١٩٦٠ .

( ٥ ) ٧ : ١٨٧ الحيوان - نشر الحلبي .

( ٦ ) ١١٥ رسائل الجاحظ نشر السندوبى .

( ٧ ) ١ : ٢٦٤ لسان الميزان ، ويذكر الجاحظ عزله عن البصرة وعكوفه

على القراءة ( ١ : ٦١ الحيوان ) .

( ٨ ) ٦ : ٣٤ الحيوان .

( ٩ ) ٣ : ٨٩ المرجع السابق .

وكان سكان البصرة من شتى العناصر والأجناس ، مع غلبة العنصر العربى فيها ، وأكبر العناصر تأثيرا فى حياتها الاقتصادية : الفرس ، ثم الزنج الذين قاموا بشرة كبيرة فيها استمرت خمسة عشر عاما ( ٢٥٥ — ٢٧٠ هـ ) حتى قضى عليها الموفق . وقد نزل بالبصرة كثير من الصحابة ، واختلط فيها العرب بالموالى بالتزواج والسكنى ، كما كانت مبرزة فى الميدان اللغوى ، لتبحرها فى العمران والثقافة ، ولقربها من البادية التى عرف أهلها بالفصاحة وصدق اللمحة ، وكانت تبارى الكوفة فى شتى نواحي الحياة والمعرفة ، ولهايتين المدينتين منزلة جليلة فى العالم الإسلامى آنذاك ، بما خرجت حنقاتهما من أعلام اللغة والأدب والشعر والنقد (١) .

وقد اشتهرت البصرة بمربدها ، الذى كان فى الإسلام سوقا أدبية كبيرة كسوق عكاظ فى الجاهلية ، والمربد ضاحية من ضواحي البصرة فى الجهة الغربية منها ، مما يلى البادية ، بينة وبين البصرة ثلاثة أميال ، وكان سوقا عامة للإبل والتجارة أولا ، ثم للغة والأدب والشعر والنقد والبلاغة أخيرا ، وهو واقع على طريق من ورد البصرة من البادية ومن خرج من البصرة إليها ، أنشأه العرب على طرف البادية يقضون فيه شئونهم قبل أن يدخلوا الحضر أو يخرجوا منه .

ومما نقله صاحب اللسان عن النضر بن شميل من أن البصرة بنيت بالمربد نستدل على أنه كان موجودا فى الجاهلية ، وإن كانت أخباره آنذاك معدومة وإنما شهر أمره بعد فتح العرب للعراق ، حيث سكنوه وخططوا البصرة ،

---

(١) راجع الحياة الأدبية فى البصرة - فى القرن الثانى الهجرى .

وأنشأوا فيه المساكن ، وكان من قبل مريداً - محبسا - للابل فقط . ثم اتصلت العمارة بينه وبين البصرة ، حتى قالوا فيه : « العراق عين الدنيا ، والبصرة عين العراق ، والمريد عين البصرة » وصار المريد صورة لعكاظ ، فهو « سوق للتجارة ، وسوق للدعوات السياسية ، وسوق للآداب ، وأصبح مجتمع العرب من مختلف الأمصار يتناشدون فيه الأشعار ، ويروون عن أعرابه طرائف الأخبار والآثار .

وفي البصرة نزلت عائشة أم المؤمنين في مسيرها إلى البصرة مطالبة بدم عثمان بن عفان بحد مقتله ، وكانت تستنصر بأهل البصرة ، وتدعوهم بدعوتها وخرج معها طلحة والزبير ، وخرج أهل البصرة للقاءها ، وخرج إليها كذلك عثمان بن حنيف عامل على البصرة ليقتنعها بالرجوع إلى الحجاز ، وأصبح المريد يموج بأنصار على وأنصار أم المؤمنين عائشة عليها السلام ، وتعددت فيه حلقات الخطابة والخطباء ، وهكذا انتقل المريد إلى مجمع حافل .

وفي العصر الأموي شهد المريد نهضة أدبية جديدة ، إذ استراح العرب من الفتح ، واستقرت الممالك في أيديهم ، وأصبح العراق وخاصة البصرة مقصد العرب يؤمه من أراد الغنى والمتعة ، ويسكنه قوم من العرب كرهوا معيشة المدن ، ويقصده أهل البصرة للنزهة والاستجمام ، ومن ثم أصبح ملتقى العرب جميعا ، يتلاقون فيه ، ويحيون به حياة تشبه حياة الجاهلية ، من إحياء للعصبيات ، ومفاخرة بالأنساب ، وتعاضم بالكرم والشجاعة ، وذكر لما كان بين القبائل من أحن ، وكان لجريده حلقة ، وللفرزدق حلقة ، وكذلك كان للعجاج ولذي الرمة وغيرهما من الشعراء ، حلقات ينشدون فيها أشعارهم ، وحوطهم الناس يسمعون منهم ، وأصبح المريد يزخر بالشعراء ، يتهاجون ويتفاخرون ، ويعلى كل شاعر شأن قبيلته

ومذهبه السياسى ، ويضع من شأن غيره من الشعراء (١) .

وهكذا نشأ فيه فى العصر الأموى لون جديد من ألوان الأدب، وهو الشعر السياسى ، وكثير من نقائص جرير والفرزدق والأخطل كانت أثرا من آثار المربد ، قيلت فيه ، وقيلت فيما كان بين اشعراء من مفاخرة ومنافرة وخصوصيات .

وبذلك كان المربد مدرسة كبيرة فى العصر الأموى ، تفتج أدبا غزيرا ، وشعرا ضخما ، يعد امتدادا للشعر الجاهلى لاتحاد البواعث والمؤثرات ، وبعد العصر الأموى بقى للمربد نشاطه الأدبى وحده .

وأجل ما كان للمربد من أثر أدبى هو خروج شباب البصرة لتلقى الأعراب ومشافهتهم ، والأخذ عنهم ، وتدوين بلاغاتهم ، قال أبو نواس : بكرت إلى المربد ومعى ألواحى أطلب أعرايا فصيحا (٢) ، ويقول الجاحظ : أدركت رواة المسجدين والمربد (٣) ، وهكذا ظل المربد قائما فى العصر العباسى : سوقا للتجارة ، ومدرسة للأدب والبلاغة والشعر فحسب ، حتى خربه الزنج فى ثورتهم السياسية (٢٥٥ - ٢٧٠ هـ) ، فغفا أثره ، وذهبت دولته .

ولقد نزل بالبصرة كثير من الصحابة والعرب ، ومن أعلامها الأولين : أبو موسى الأشعرى ( ٧٠ هـ ) وأنس بن مالك ( ٩٢ هـ ) ، والحسن البصرى ( ١١٠ هـ ) ، وابن سيرين ( ١١٠ هـ ) ، ومنهم كذلك أبو الأسود الدؤلى

( ١ ) ذكر الجاحظ المربد فى الحيوان ( ١ : ٢٥٨ و ٢٦٠ ) .

( ٢ ) ٦ : ١٣٩ الحيوان .

( ٣ ) ٤ : ٢٣ البيان - نشر الحناجى - القاهرة .

(٢٩ هـ) ، والفرزدق وجريز والراعى ، ومنهم سعيد بن أبى عروبة (١٥٦ هـ) وهو شيخ البصرة وعالمها وأول من دون العلم بها (١) فهو أول من صنف بالعراق ، كما أن ابن جريج الرومى أمام الحجاز كان أول من صنف الكتب بالحجاز (٢) ، وكان إياس المزنى قاضى البصرة (١٢٢ هـ) .

ومن أعلام ا فى اللغة والنحو والعربية : عيسى بن عمر النخعى (١٤٩ هـ) أستاذ الخليل وسيبويه ، وأبو عمرو بن العلاء (٧٠ - ١٥٤ هـ) والخليل بن أحمد (١٠٠ - ١٧٥ هـ) ، ويونس بن حبيب (٩٤ - ١٨٢ هـ) (٢) ، وسليويه ١٨٨ والأخفش الأكبر ١٧٧ هـ (٣) ، ومؤرج السدوسى البصرى (١٩٥ هـ) (٥) ، وأبو محمد اليزيدى (١٢٨ - ٢٠٢ هـ) (٦) والنضر بن شميل المازنى ٢٠٣ هـ ، ويعقوب الحضرمى البصرى النحوى (٢٠٥ هـ) (٧) وقطرب ٢٠٦ هـ ، وأبو عبدة (١١٠ - ٢٠٨ هـ) . وأبو زيد الأنصارى ٢١٤ هـ ، والأصمعى (١٢٢ - ٢٠٦ هـ) ، والأخفش الأوسط ٢٢١ هـ (٨) ، والقاسم بن سلام (١٥٠ - ٢١٣ هـ) ، وابن سلام الجهمى ٢٢١ هـ ، ويروى الجاحظ عنه كثيرا فى الحيوان والبيان ، والجرمى ٢٢٥ هـ ، والتوزى ٢٢٣ هـ ، وأحمد بن حاتم الباهلى ٢٣٥ هـ ، والمازنى ٢٤٧ هـ ، والزيادى ٢٤٩ هـ ، وأبو حاتم

(١) ٢٢٥ : ١ العبر للذهبي

(٢) ٢١٣ : ١ المرجع نفسه

(٣) روى عنه الجاحظ فى الحيوان ٥ : ٥٩١

(٤) أستاذ سيبويه ١ : ٤٨٧ زهر الآداب - الحلبي بالقاهرة

(٥) ١٩ : ١٩٦ معجم الادباء لياقوت

(٦) ٢٣٨ : ١ العبر للذهبي

(٧) ٢٤٨ : ١ المرجع

(٨) ٢٢٤ - ٢٣٠ معجم الادباء

السجستاني ٢٥٥ هـ، والرياشي ٢٥٧ هـ، والسكري ٢٥٧ هـ، والمبرد (٢١٠ - ٢٨٥ هـ) ثم الزجاج ٣١٠ هـ، والأخفش الأصغر ٣١٥ هـ، وابن السراج ٣١٦ هـ، وابن دريد (٢٢٣ - ٢٢١ هـ) وعبد الرحمن الهمداني ٣٢٠ هـ، والزجاجي ٣٢٧ هـ، وابن درستويه ٣٤٧ هـ، والسيرافي (٢٨٠ - ٣٦٨ هـ)، والآمدي ٣٧١ هـ، والروماني ٣٨٤ هـ.

ومن أعلامها في الأدب والشعر: ابن المقلع (١٠٦ - ١٤٣ هـ) وبشار ١٦٧ هـ، وصالح بن عبد القدوس ١٦٧ هـ، وكان يجلس للوعظ في منسجد البصرة (١) ومروان بن أبي حفصة ١٨٣ هـ، والعباس بن الأحنف ١٨٨ هـ؛ وأبو نواس (١٤٥ - ١٩٨ هـ)، وأبو الشمقمق ١٩٨ هـ وهو شاعر بصرى قدم بغداد أيام الرشيد، ومسلم بن الوليد ٢٠٨ هـ، وسهل بن هارون ٢١٥ هـ (٢) وحسين بن الضحاك ٢٥٠ هـ وأشجع السلمي ١٩٩ هـ، والفضل بن عيسى الرقاشي ٢٠٠ هـ، ومحمد بن يسير، وخالد بن يزيد الممالي، والجزاز وقد أدرك عصر المتوكل، وأبو سعيد الخزومي البصري، ومحمد بن منذر، وابن أبي عيثة، وأحمد بن المعذل البصري المتكلم ٢٤٠ هـ.

ومن أعلامها في الاعتزال: واصل بن عطاء (٨٠ - ١٣١ هـ) وعمرو ابن عبيد (٨٠ - ١٤٤ هـ)، وأبو الهذيل العلاف (٢٣٦ - ٨٤٠ م)، والنظام (١٨٠ - ٢٢١ هـ) والجاحظ، وابن أبي دؤاد (١٦٠ - ٢٤٠ هـ)، ويحيى بن أكتم ٢٤٢ هـ، وسواهم، ومنهم: الجبائي (٢٣٥ - ٣٠٣)، والأشعري (٢٧٠ - ٣٣٣) وأبو الحسين الخياط صاحب كتاب الانتصار (٣٠٠ هـ).

---

(١) ١٢ : ٨ - ١٠ المرجع السابق

(٢) ٣ : ٢٤ تاريخ الأدب العربي لبروكلمان، ويجعل الجارم في تحقيقه على البخلاء وفاته عام ١٧٣ هـ : ٧٨٩ م نقلا عن الأعلام للزركلي وكان شعوبيا (١ : ٥٧٧ زهر الآداب).

ومن المفكرين والفلاسفة : الكندي ٢٥٣ هـ ، والسرخسي ٢٨٦ هـ ،  
وأبو زيد البلخي ٣٢٢ هـ ، ومنهم ابن ماسويه ٢٤٣ هـ ، وسلمويه ٢٢٥ هـ ،  
وابن سهل الطبيب ٢٥٥ هـ . وكذلك أعين الطبيب البصري (١) ، وقدامة  
حكيم المشرق (٢) ، وأبو شمر المعتزلي وهو من تلاميذ المدائني (٣) ، وسابور  
ابن سهل ( ٢٥٥ هـ ) رئيس مدرسة جنديسابور .

ومن رواة الأدب والأخباريين البصريين : أبو المنجوف السدوسي  
البصري ، وأبو هفان الاخباري البصري ، ويحيى بن نجم ، وعمرو بن  
كركرة (٤) ، ومحمد بن سلام ، وأبو كعب القاص وكان يقص في مسجد  
عتاب كل أربعاء (٥) ، وجهم بن خلف المازني (٦) ، وأبو اليقظان (١٩٠ هـ) (٧)  
وابن أبي كريمة ، والعتبي ٢٢٨ هـ ، وعبدالله الغبشي البصري الاخباري ٢٢٨ هـ  
وأبو زيد الأنصاري ( ٢١٥ هـ ) وكان يحفظ ثلثي اللغة والأصمعي ثلثها (٨) ،  
والمدائني البصري ( ١٣١ - ٢٢٤ هـ ) (٩) ، وهشام الكلبي ٢٠٤ هـ ، وأبو بكر  
الهللي البصري الاخباري ( ١٦٧ هـ ) (١٠) .

(١) ٢ : ٢٢٣ الحيوان

(٢) ٥ : ٩٥ الحيوان

(٣) ٢ : ٢٥٧ الحيوان

(٤) كان يحفظ اللغة كلها كما قيل ، وكان يزعم أن الأغنياء أكرم عند الله من

المفقر - ١٣١ و ١٣٢ : ١٦ معجم الأدباء .

(٥) ٣ : ٢٥ الحيوان

(٦) ٣ : ٢٤٢ الحيوان

(٧) ٢ : ١٠ الحيوان

(٨) ١ : ٣٦٧ المعبر للذهبي

(٩) ١ : ٢٩١ المرجع

(١٠) ١ : ٢٥١ المرجع

هؤلاء هم أعلام البصرة الذى عاصروهم الجاحظ وروى عنهم ، وتتلمذ على لفيف منهم ، وكانت البصرة فى عصره أكبر حواضر العلم والآداب بعد بغداد ، ومدرسة كبرى تخرج منها الكثير من العلماء والأدباء والشعراء .

وكان من أصدقاء الجاحظ البصريين ، من روى لهم ، ومجمل فمكهاهم وجدهم ولهم : أبو محمد عبد الله بن هارون العروضى الذى ذكره فى الحيوان (١) ، وجعفر بن سعيد ، وإسماعيل بن غزوان ، وخاقان بن صبيح ، والخرمى كاتب البرامكة ، والحزامى عبد الله بن كاسب ، وعمر والخاركي البصرى ، وموسى بن عيسى الكسروى ، ومحمد بن جهم المسمى (٢) ، ومخفوظ النقاش ، ومحمد بن حسان الأسود ، وتمام بن أبى نعيم ، وأحمد بن خلف اليزيدى البصرى ، وأبو على الأسوارى ، وابن مناذر البصرى الشاعر ، وإبراهيم بن سيابة ، وعمر بن كركرة البصرى المذهب ، وإبراهيم بن أبى السندی ، ومحمد بن الجهم البرمكى ، وابن أبى كريمة ، ويذكر الجاحظ قصة إعادة الحياة إلى غلام له (٣) ، ولعله أحمد بن زياد بن أبى كريمة ، وسواهم . .

تلك هى البصرة المدينة البحرية العربية الكبرى ، التى ولد فيها الجاحظ ، وقضى أكثر حياته فى ظلها ، وتنقل منذ طفولته بين مراتبها ومسارحها ، وقص فى كتبه قصص أعلامها ، وأدبائها وبلغائها ورواتها

(١) ٣١٦ : ٣ ، ١٨٦ : الحيوان ، وقد أخذ عن الخليل وأخذ عنه رزين العروضى الشاعر ٢٤٧ هـ ، وكان بين أبى محمد العروضى وبين النظام مداراة (٣ : ٢٤٨ الحيوان) .

(٢) كان المسمى طبيباً طيب الحجج ، ظريف الخليل عجيب العال (٣ : ٢٢٥ الحيوان)

(٣) ٣٥٠ : ٣ الحيوان .

وبخلائها ؛ وأحاديث تجارها وعمالها وكهولها ، وذوى التجربة والخبرة فيها ، كما نقل فيكاهات وقصص أهل البصرة من المسجديين (١) وغيرهم ، حتى ليقول في البخلاء : « قال أصحابنا من المسجديين : اجتمع ناس في المسجد — أى مسجد البصرة الجامع — ممن ينتحل الاقتصاد في النفقة والتنمية للبال ، من أصحاب الجمع والمنع ، وقد كان هذا المذهب صار عندهم كالنسب الذى يجمع على التحاب » (٢) .

ثم يقص قصصهم ونوادهم ووصاياهم في البخل مما تقف معه على أدب رائع ، وتصوير جليل لبينة البصرة الاجتماعية والاقتصادية .

ويقول الجاحظ : قال شيخ من أهل المسجد : ما كنت أريد أن أجلس إلى قوم إلا وفيهم من يحدث عن الحسن ( البصرى ) وينشد للفرزدق (٣) ، ويقول : وقد أدركت رواة المسجديين والمربديين (٤) .. إلى نصوص كثيرة أخرى في هذا الباب .

(١) طائفة من البخلاء كانوا يجتمعون في المساجد ، ١ : ٦٢ البخلاء تحقيق الجارم ، أوهم قوم اتحلوا المسجد منتدى لهم وطال غشياتهم له فعرفوا به وكانوا خليطاً من الشعراء والرواة ومصطنعى الحكمة وكانوا لا يتقيدون بنوع من العلم ، ولهم أثر في التوجيه الأدبى في عهدهم ، راجع البخلاء تحقيق الجاحظ ، ويذكر الجاحظ فتیان المسجديين في أدبه كثيراً ، ٣ : ٣٦٠ الحيوان ،

(٢) ١ : ٦٢ البخلاء تحقيق الجارم والعوامرى

(٣) ٣ : ٢٢٠ الحيوان

(٤) ٤ : ٢٣ البيان - نشر الخانجى

## الفصل الثاني

### ميلاد الجاحظ وطفولته

— ١ —

أبو عثمان الجاحظ عمرو بن بحر بن محبوب بن فزارة ، السكناني الليثي ، من بني كنانة بن خزيمة ، والد النضر أبي قريش ، وبنو كنانة بطن من مضر ، يقال لهم كنانة طلحة ، والليث نسبة إلى الليث بن بكر بن عبد مناة ابن كنانة بن خزيمة بن مدركة ، وإلى هذه القبيلة ينتسب أبو عثمان الجاحظ فهو عربي كناني .

وقد حاول بعض الشعوبيين أن يخرج الجاحظ من العرب ، لأنه من مفاخرهم الكسيري ، فزعم أن جده فزارة كان مولى لأبي القليس عمرو بن قلع بن عباد بن القليس (١) السكناني الفقيمي ، وكان إلى هذه الأسرة نسب المشهور في الجاهلية ، وكان فزارة جد الجاحظ أسود اللون ، فقالوا إنه كان جمالا لعمرو بن قلع ، واستندوا في ذلك إلى رواية منحولة ، تروى عن يموت بن المزرع البصري (٢) ( ٢٠٤ هـ ) ، وهي : « كان فزارة جد الجاحظ

---

(١) من حكام العرب وذوي الرأي قيمهم ، وأول من نسب المشهور على العرب في الجاهلية ، وورث أبناؤه عنه هذه المفخرة التي نزل القرآن بتحريمها

(٢) كان الجاحظ خالا لأمه ، وكان من العلماء والادباء والرواة ، وله شعر مأثور ، تتلذذ على المازني والجاحظ وسواهما ١٦ : ٨٤ معجم الادباء لياقوت ، وكذلك ( ١ : ٨ ٤ هـ حتى الاسلام ) ويجعل ابن خالكان الجاحظ خالا له ( ٣ : =

أسود اللون ، وكان جمالا لعمر بن قلع ، ويضيف بروكلمان إلى ذلك أن جد الجاحظ كان زنجيا أسود (١) ؛ ومن أيدي ذلك أحمد أمين (٢) وغيره ، ومعنى ذلك أنه من الجنس الأفريقي الذي اختلط بالعرب بعد الإسلام .

وسواد فزارة في رأى يموت ليس دليلا على أن الجاحظ انحدر من أصول غير عربية فقد يكون العربي أسود اللون ، وما جاء في هذه الرواية من أن جد الجاحظ كان جمالا لعربي هو عمرو بن قلع ليس دليلا قاطعا على إثبات ما يزعمون . على أنى أرجح أن الرواية منحولة ، إذ لم ترد عن مصدر موثوق به ، ولم يرو أحد أن أحد آباء الجاحظ كان رقيقا أو وقع في أسر ، ووصف فزارة بأنه كان مولى لأبي القلمس لا يدل على الرق ، فالمولى يأتي بمعنى الحليف والنصير والصاحب والقريب ، وقد تكون قبيلة عربية صريحة النسب مولاة لقبيلة عربية أخرى (٣) ، والذين هجوا الجاحظ من معاصريه لم يصفوه بالرق ولا بأنه كان مولى لأحد ؛ ولو كان الجاحظ من أصل غير عربي لنزع منزع الشعوبيين ، وذهب مذهبهم ، ويؤيد عروبة الجاحظ أبو زبد البلخي ٣٢٢ هـ ، وابن حزم (٣٨٤ - ٤٥٦ هـ) ، وسواهما .

---

= ٣٤٥ وفيات الاعيان تحقيق الشيخ محمد محي الدين عبد الحميد) وكان من أمل العلم والنظر والمعرفة (٤ : ١٩٦ مروج الذهب)

(١) ١٠٦ : ٣ تاريخ الادب العربي بروكلمان

(٢) ٤٠٨ : ١ ضحى الإسلام

(٣) ١٣ أدب الجاحظ للسندري القاهرة ١٩٣١ .

ولقد عاش الجاحظ محبا للعرب والعروبة ، يدافع عنهما ، ويرد على الشعوبيين ، وكان يقول في الشعوبية ، إنها « الحمية التي لا تبقى دينا إلا أفسدته » ويقول الجاحظ : « وأنا رجل من بني كنانة » (١) ؛ ويقول : ولكنني أخذت بآداب وجوه أهل دعوتي وملتي ولغتي وجزيرتي وجيرتي وهم العرب (٢) ، ويقول عن الموالي : « وقد نبتت منهم نابتة تزعم أن المولى بولائه صار عربيا ، والأعجمي لا يصير عربيا » (٣) ويقول : « وقد كتبت كتباً في رد الموالي إلى مكانهم في الفضل والنقص ؛ وإلى قدر ما جعل الله لهم بالعرب من الشرف ، وأرجو أن يكون عدلا بينهم ، وداعية إلى صلاحهم » (٤) ، وهذه النصوص وحدها كافية لإثبات القضية التي يحاول الشعوبيون إثارتها .

إن الجاحظ ينحدر من أصل عربي صريح خالص ، ومن بيت كريم المحتد ، عظيم المنزلة في الجاهلية والإسلام .

والجاحظ لقب لأبي عثمان ، فقد كان جاحظ العينين بارزهما ، مشوه الوجه ، وكان يلقب بالحدقي ، لأنه كان ناثئ الحدقتين ، وكان أبو عثمان يأنف من لقب الجاحظ ، ويعتز باسم « عمرو » ، وألف رسالة فيمن يسمى من الشعراء ( عمراً ) ، ويقول إنه لم يقع في الجاهلية والإسلام إلا على فارس مذكور ، أو سيد مطاع . أو رئيس متبوع . وكان لقب الجاحظ هو

---

(١) ٢٩١ رسائل الجاحظ - من رسالته في مدح النبيذ ، ويقول عنه ياقوت

لأنه كنان ( ١٦ : ٧٤ معجم الأدباء )

(٢) ٣ : ٢٦٧ الحيوان - ط الحلبي

(٣) ٢٩٩ رسائل الجاحظ من رسالته في بني أمية

(٤) ٣٠٠ رسائل الجاحظ

الذى شهر به أبو عثمان ، وأصبح لقب نحر وشرف لكل أديب يمكن أن يلقب به ، أو يستعيره رمزاً على اسمه .

وقد ولد أبو عثمان الجاحظ في البصرة في أوائل عام ١٥٠ هـ : ٧٠٧ م (١) ويروى عن الجاحظ (٢) : أنا أسن من أبي نواس بسنة ، ولدت أول سنة ١٥٠ هـ وولد في آخرها (٣) ، وهذا نص صريح على أنه ولد عام ١٥٠ هـ في خلافة المنصور ، ويذكر البعض (٤) أنه ولد عام ١٥٩ هـ : ٧٧٥ م في خلافة المهدي ، ويذكر آخرون (٥) أنه ولد عام ١٦٠ هـ : ٧٧٦ م في خلافة المهدي أيضاً .

إن الجاحظ على الصحيح ولد في المحرم عام ١٥٠ هـ : فبراير ٧٦٧ م في خلافة المنصور العباسي (١٢٦ - ١٥٨ هـ)

ودرج الجاحظ طفلاً في كنف أبيه ، ولم يلبث أن توفي والده وهو ناشئ صغير ، فنشأ في كفالة أسرته الفقيرة ، التي كانت من سواد الشعب في البصرة ، ولما ترعرع دخل الكتّاب في البصرة (٦) ، يتعلم فيه القراءة والكتابة شأن غيره من الأطفال .

(١) ١٠٦ : ٣ تاريخ الأدب العربي لبروكلمان ترجمة د. النجار ، ١٩٥٠ و ٢٠٠١  
أدب الجاحظ

(٢) ١٦ : ٧٤ معجم الأدباء لياقوت

(٣) يذكر ابن خلكان نقلاً عن تاريخ بغداد للبغدادي (٣٩٢ - ٤٦٣ هـ) أن أبا نواس ولد عام ١٤٦ هـ ، وهذا غير صحيح

(٤) ١ : ٤٠٨ طبع في الإسلام ، ١٩ أدب الجاحظ للسندوبى ، ١٥ الجاحظ للقاخوري

(٥) ٢ : ٣١٥ أمراء البيان - محمد كرد علي

(٦) يصرح الجاحظ بأنه تعلم في الكتّاب (٢ : ١٤ الحيوان)

وبدافع الرغبة في العلم، والطموح إلى مستقبل كريم بسببه. والتعويض عن اليتيم الذي هاض جناحه ، أقبل الطفل الصغير بكل قلبه وجوارحه على العلم والدرس والقراءة ، موفور الموهبة ، تام الملمكة ، وأخذ يتردد على حلقات العلم في مسجد البصرة الجامع (١) ، ويتلقى الفصاحة شفاها عن العرب في المربد ويستمتع من القصاص إلى أحداث الفتوح وسير الغزاة وأطوار الزهاد والناسكين ، وكان من أعلام البصرة في طفولة الجاحظ أمثال ابن أبي ذئب (٨٠-١٥٩هـ) ويزيد بن إبراهيم البصري ١٦٢هـ وشعبة المحدث شيخ البصرة ١٦٠هـ وسواهم .

وكان الجاحظ بعد انتهائه من العمل اليومي التعليمي يذهب ليتعشى بكسب يديه ، فيبيع الخبز والسمك بسيحان (٢) بالبصرة (٣) ، وكانت والدته تغني به ، ولما ضايقها ما كانت فيه من بؤس وانصراف ابنها إلى العلم والقراءة أكثر مما ينصرف إلى العمل ، جاءت يوما ، وقد طلب منها الأكل ، بطبق عليه كرايس ، فقال : ماهذا ؟ قالت هذا الذي تجيء به ، فخرج من منزله مغموما وجلس في جامع البصرة ، ويونس بن عمران جالس ، فلما رآه مغتما قال له : ماشأنك ، فحدثه الحديث ، فأخذه معه إلى منزله ، وقرب إليه الطعام ، وأعطاه خمسين ديناراً ، فدخل السوق واشترى الدقيق وغيره ، وحمله الخمالون إلى داره فعجبت الأم من ذلك وقالت : من أين لك هذا ؟ قال : من الكرايس التي التي قدمتها إلى .

وهكذا عاش الجاحظ في خلافة المنصور (١٥٠-١٥٨هـ) ، وجزء من خلافة المهدي ، مقبلا على التعليم ، مثابراً على التحصيل ، حتى بلغ مرحلة الشباب .

---

(١) يقول الجاحظ : بينما أنا جالس يوما في المسجد مع فتیان المسجدین  
عما إلى أبواب بني سليم ، وأنا يومئذ حدث السن (٣ : ٣٦٠ الجبران) .  
(٢) نهر البصرة (٣) ١٦ : ٧٤ معجم الأدباء لياقوت

## الفصل الثالث

### حياة الجاحظ

١ - مرحلة الدراسة والتحصيل (١٦٣ - ١٨٠ هـ)

انتقل الجاحظ من طفولته إلى مرحلة الشباب ، وهي مرحلة الدراسة والتحصيل ، حيث أخذ عن جلة العلماء وأئمة البصرة ، من أمثال القاضي أبي يوسف (١٨٢ هـ) والسري بن عبدويه ، والحجاج بن محمد ، وحماد بن سلمة البصري الحافظ عالم أهل البصرة (١٦٧ هـ) ، وصالح بن جناح اللخمي ، ويزيد بن هارون (٢٠٦ هـ) ، وعبدالله بن عون وشعبة بن الحجاج ، وحماد بن زيد بن درهم الأزدي البصرة ١٧٧ هـ ؛ وأخذ عن الخليل (١٠٠ - ١٧٥ هـ) وسيبويه ، وعمرو بن كركرة ، ومؤرج السدوسي البصري ١٩٨ هـ ، والنضر ابن شميل (١٢٢ - ٢٠٣ هـ) وقطرب ٢٠٦ هـ والاصمعي (١٢٢ - ٢١٦ هـ) وأبي عبيدة معمر بن المثنى ٢٠٨ هـ<sup>(٢)</sup> ، والأخفش الأوسط البصري ٢١٥ هـ . كما أخذ عن أبي إسحاق النظام (١٨٠ - ٢٢١ هـ) وثمامة بن أشرس<sup>(٣)</sup> (٢١٣ هـ) وغير هؤلاء ، من أئمة اللغة والشعر وعلوم العرب ، ومن لم يرقبهم ولا بعدهم مثلهم ، وعنهم أخذ جل ما في أيدي الناس من العلم بل كله<sup>(٤)</sup> .

---

(١) ١٩ : ١٩٦ معجم الادباء .

(٢) ١٩ : ١٥٤ .

(٣) ٢ : ١٢١ شذرات الذهب لابن العماد

(٤) ٢ : ٣١٧ أمراء البيان

وأخذ الجاحظ كذلك عن الأعراب الفصحاء ، من مثل : أبي المهدي ،  
وأبي خيرة ، ويزيد بن كثوة ، وأبي الريح الغنوي ، وأبي المنتجع بن نيهان  
التميمي ، وعبيد الكلابي ، وسواهم .

ومن روى عنهم من الكوفيين : أبو عمر الشيباني ( ١٢٥ - ٢١٠ هـ ) ،  
وابن الأعرابي ٢٣١ هـ . . وكذلك روى عن إبراهيم بن السندی وعلى  
الأسوارى (١) ، وغيرهم .

وأدرك الجاحظ من أعلام البصرة : عبد العزيز بن مسلم الزاهد ١٦٧ هـ  
وبشارا ( ١٦٧ هـ ) ، وجريز بن حازم البصري ( ١٧٠ هـ ) ، وسلام بن سليم  
المزني ١٧١ هـ ، وسلام بن أبي مطيع ١٧٣ هـ ، وبشر بن منصور الأزدي  
١٨٠ هـ ، وسواهم .

وعن غير هؤلاء من العلماء أخذ الجاحظ أيضا ، حيث اختلف إلى  
ندوات الشعراء ومجالس الأدباء ، يأخذ عنهم ، ويجالسهم ، ويناقشهم في  
البلاغة والأدب والشعر واللغة وكل ضروب المعرفة ، تساعد على ذلك  
موهبة الأصيلة ، وحافظته القوية ، وذكاؤه المتوقد ، وأمد طموحه وفقره  
بالمثابرة والقوة في التحصيل ، كما كان الأحداث في عصره ، وتطور الحياة  
والحضارة ، ولحركة الترجمة أثر في ثقافته وعقليته .

ومن مربد البصرة ، وحلقات المسجدين ، ودروس العلماء ، ومشاهدة  
الأعراب ، وأحاديث البلغاء ، وفكاهات الظرفاء ، ومجالس الحكماء : أخذ  
الجاحظ كثيرا من ضروب الثقافة ؛ وما أكثر ما كان أبو عثمان الجاحظ  
يلتقي بالأعراب الواردين على المربد ، يتلقف الفصاحة منهم شفاهها .

وعن أدباء الكتاب كابن وهب وابن الزيات أخذ الجاحظ الكثير كذلك من ثقافته الأدبية والنقدية ، وبهم عرف ماهية الشعر ، وقام بحق الأدب والكتابة ، حتى ليقول : طلبت علم الشعر عند الأصمعي فوجدته لا يحسن إلا غريبه ، فرجعت إلى الأخفش فوجدته لا يتقن إلا إعرابه ، فعطفت على أبي عبيدة فوجدته لا ينقل إلا ما اتصل بالأخبار وتعلق بالأيام والأنساب ، فلم أظفر بما أردت إلا عند أدباء الكتاب كالحسن بن وهب ومحمد بن عبد الملك الزيات (١) ؛ وأعجب أبو عثمان برواة الأخبار فقال فيهم : ورأيت عامتهم ، فقد طالت مشاهدتي لهم ، وهم لا يقفون إلا على الألفاظ المتخيرة ، والمعاني المنتخبة ، والمخارج السمينة ، والديباجة الكريمة ، وعلى الطبع المتمكن ، وعلى السبك الجيد ، وكل كلام له رونق (٢) .

وأحب الجاحظ العلم والكتاب محبة شديدة ، حتى كان يعد الظفر بكتاب شيئا عظيما ؛ قال محمد بن سليمان الجوهرى : كنا نصحب الجاحظ على سائر أحواله من جد وهزل ، فخرجنا يوما للنزهة ، فبينما نحن على باب جامع البصرة ، ننظر شيئا أردناه ، إذ عارضت امرأة معها أوراق مقطعة ، فعرضت ذلك علينا ، فلم نجد فيها طائلا فتركناها ، وتخلف معها أبو عثمان ونحن ننتظره ، فأطال . ثم رأيناه قد وزن لها شيئا ، وأخذ الأوراق ومضى بها إلى منزله ، فلما عاد أخذنا نهرأ به ، فقال : « أنتم حمق والله إن فيها ما لا يوجد إلا فيها ، ولكنكم جهال ، لا تعرفون النفيس من الخسيس » .

ويحدث أبو هفان عنه فيقول : لم أرقط ولا سمعت من أحب الكتاب والعلوم أكثر من الجاحظ ، فإنه لم يقع يده كتاب قط إلا استوفى قراءته

---

(١) ٨٤ : ٢ العمدة لابن رشيق ، والكشف عن مساوئ شعر المتنبي للصاحب ، ويعلق على ذلك الصاحب بقوله : فله أبو عثمان فلقد غاص على سر الشعر ، واستخرج أرق من السحر .

(٢) ١٦٣ دلائل الإعجاز للهرجاني ، ٤٧١ هـ .

كأننا ما كان ، حتى إنه كان يكثرى دكاكين الوراقين ، ويبعث فيها للنظر (١) .  
ويقول كذلك : لم أر قط ولا سمعت من أكثر محبة للكتب من ثلاثة :  
الجاحظ ، والفتوح بن خاقان ، واسماعيل بن اسحاق القاضي (٢) (٢٨٢ هـ) ،  
وقد وصف الجاحظ في الحيوان الكتاب وصفا رائعا .

وكان الجاحظ كثير ما يقصد الكوفة وبغداد ، ليصل بعلمائهما وأدبائهما ،  
ولما كثرت أعباؤه الأدبية اتخذ لنفسه وراقا خاصا ، هو أبو يحيى زكريا  
ابن يحيى (٣) .

حذق الجاحظ اللغة والأدب والشعر ، كما حذق علم الكلام وعلوم  
الدين ، وألم بالثقافات المترجمة ، ولم ينقطع عن القراءة ، ولم يثنه فقره عن  
العلم ، بل وجد فيه كل لذة ، وأصبح ولوعا به ، مشغوبا ببحياته من أجله ، وبدأ  
يؤلف الكتب إلا أن الناس كانوا ينصرفون عنها ، فلم تلق رواجا ولا ذيوعا  
وأخذ يؤلف الكتب ، وينسبها لغيره ، فتلقى من الرواج والشهرة أكثر مما  
كان يقدر ، وكل ذلك لم يستطع أن يعيش ، وأن يدفع عن نفسه الخصاصة .  
ومرارة الجوع وقسوة الفقر والحرمان .

يقول الجاحظ : « إنى ربما ألفت الكتاب المحكم المتقن فى الدين  
والفقه والرسائل والسيرة والخطاب والخراج والأحكام وسائر فنون الحكمة  
وأنسبه إلى نفسى ، فيتواطأ على الطعن فيه جماعة من أهل العلم ، بالحسد  
المركب فيهم ، وهم يعرفون براعته وفصاحته ، وأكثر ما يكون هذا منهم  
إذا كان الكتاب مؤلفا للملك معه القدرة على التقديم والتأخير والخط والرفع  
فانهم يحتاجون عند ذلك هياج الإبل المغتلبية ؛ فإن أمكنتهم الحيلة فى

(١) ١٦ : ٧٥ معجم الأدباء .

(٢) ١٦ : ٧٤ المرجع السابق .

(٣) ١٦ : ١٠٦ المرجع ، وفى الأسالى ١ : ٢٤٨ ، يحمل اسمه ابن زكريا

في اسقاط ذلك الكتاب عند السيد الذي ألف له فهو الذي قصدوه ، وإن كان السيد المؤلف فيه الكتاب تحريرا نقابا وحاذقا فطنا وأعجزتهم الحيلة سرقوا معاني ذلك الكتاب وألقوا من أغراضه وحواشيه كتابا ، وأهدوه إلى ملك آخر ، وامتوا إليه به ، وهم قد ثلبوه لما رأوه منسوباً إلى ، وموسوماً بي ، وربما ألقت الكتاب الذي هو دونه في معانيه وألفاظه ، فأترجمه باسم غيره ، وأحيله على من تقدمني عصره ، مثل ابن المقفع والخليل وسلم صاحب « بيت الحكمة » ، ويحيى بن خالد البرمكي ١٩٠ هـ ، والعتابي ومن أشبه هؤلاء من مؤلفي الكتب ، فيأتيني أولئك القوم بأعيانهم ، الطاعنون على الكتاب الذي كان أحكم من هذا الكتاب لاستنساخ هذا الكتاب ، وقراءته على ، ويكتبونه بخطوطهم ، ويصرونه إما ما يقتدون به ، ويتدارسون به بينهم ، ويتأدبون به ، ويستعملون ألفاظه ومعانيه في كتبهم وخطاباتهم ويروونه عن غيرهم من طلاب ذلك الجنس ، فتثبت لهم به رياسة ، بأنهم قوم فيه ، لأنه لم يترجم باسمي ، ولم ينسب إلى تأليفي (١) .

وفي هذا المجال عاش أبو عثمان في خلافة المهدي (١٥٨ - ١٦٩ هـ) ، والهادي (١٦٩ - ١٧٠ هـ) .

وفي خلافة الرشيد (١٧٠ - ١٩٣ هـ) كان الجاحظ قد بلغ مبلغ الرجال واستكمل كل أسباب ثقافته ، وأخذ يجد في تأليف الكتب والرسائل ، وكثيراً ما كان ينسبها ، كما سبق ، لغيره (٢) ، وفي عام ١٧٦ هـ ، زار الرشيد البصرة بدعوة من واليها جعفر بن سليمان بن علي (٣) ، وشاهد الجاحظ من عظمة الخلافة ومشاهد ، وبهره جلال الخلفاء وعظمتهم .. وأخذ كلما تقدم

(١) ص ٨ مقدمة المحاسن والاضداد للجاحظ .

(٢) ٢ : ٣٥٦ و ٣٥٧ أمراء البيان - محمد كرد علي .

(٣) ٩٧ الذخائر والتحف لابن الزبير ط الكويت ١٩٥٦ ، ٣ : ٧٤٠ طبري ، أوريا .

به الزمن تزداد مكانته ، وتطير شهرته العلمية والأدبية في كل مكان .

ولاشك أن اتساع الثقافة العربية في عصر الرشيد ، بترجمة الثقافات الأجنبية إلى لغة القرآن الكريم ، وحركة المعتزلة وتأثيراتها الفكرية الواسعة ؛ مما أمد الجاحظ الطموح بطاقات قوية من المعارف والعلوم ، وظل مقبياً بالبصرة ، عاكفاً على القراءة والكتابة .

## ٢ - مرحلة الاستاذية والشهرة ( ١٨٠ - ١٩٨ هـ )

وهذه الفترة من حياة الجاحظ تبدأ وهو في سن الثلاثين ، والرشيد على عرش الخلافة العباسية ، وتستمر إلى نهاية عصر الرشيد ، وطيلة عصر الأمين ( ١٩٣ - ١٩٨ هـ ) حتى يبلغ الجاحظ الثامنة والأربعين من عمره .

وقد أُلِفَ في هذه الفترة الكثير من الكتب ، وجلس في صدر حلقات العلم والأدب ، استأذاً وموجهاً ومفيداً للجماهير العلماء والشباب الإسلامي ، فكان من تلاميذه : أبو بكر عبد الله بن أبي داود السجستاني ( ٣١٦ هـ ) ، ومحمد بن عبد الله بن أبي الدلّهاب ، ودعامة بن الجهم . وأبو سعيد الحسن ابن علي العدوي ، وابن شبة ( ٢٦٢ هـ ) (١) ، وأبو حاتم السجستاني ٢٥٥ هـ وسواهم .

وفي هذه المرحلة طارت شهرة أبي عثمان في البصرة والسكوفة وبغداد وفي عواصم العالم الإسلامي ، وبين العلماء والأدباء والمفكرين ، وقام برحلات كثيرة إلى مختلف الخواضر الإسلامية دارساً وباحثاً ومفيداً ، حتى ليقال إنه زار دمشق وأنطاكية ومصر (٢) .

والجاحظ نفسه يقول في الحيوان : « رأيت عجباً آخر ، وهو أني في طول

---

(١) ١٦ : ٦٠ معجم الأدباء لياقوت .

(٢) ١ : ٤٠٩ ضحى الإسلام .

مادخلت البرارى ، ودخلت البلدان فى صحارى جزيرة العرب والروم والشام والجزيرة وغير ذلك ما أعلم أنى رأيت حجراً واحداً يجوز أن يدخله ضبع أو ظباء (١) ، وقد زادت الأسفار والضرب فى الآفاق اطلاعا وسعة معرفة ، ومهرت خياله بصور جديدة (٢) ، ويقول محمد كرد على (٣) : إنه طاف بأرض العراق والشام وفارس والروم والجزيرة وبلاد العرب .

وقد رأى أبو عثمان مارأى من عظمة الخلافة العباسية فى عصر الرشيد ، وشاهد مصرع البرامكة وما انطوى عليه من أحداث ، وأدرك وفاة الرشيد والصراع على الخلافة بين ابنه الأمين والمأمون ، ومقتل الأمين ، وجلس المأمون على عرش الخلافة فى المحرم ١٩٨ هـ .

وفى هذه الفترة تبدلت حياة أبى عثمان من الحرمان والفاقة إلى الغنى والثراء ، وبعد أن كان يشكو الفقر أصبحت له ضيعة تنسب إليه ، واقتنى مالا وبيتا ، وعنى بأبواب بيته فاختر لتركيبها أمهر النجارين (٤) . فقد عرف فضل الجاحظ ، واشتهرت مؤلفاته ، وطار ذكره ، ونبه حظه ، وطاب عيشه ، ودرج فى بحبوحة الرخاء ، فقبل جده ، وأقبلت الدنيا عليه ، واثالت عليه المنح والهدايا من الخلفاء والوزراء وأصحاب السلطان ، كإبرامكة والظاهرية وسواهم من ذوى النفوذ والثراء .

### ٣ - مرحلة المجد والزعامة الفكرية (١٩٨ - ٢٤٧ هـ)

تبدأ هذه الفترة من حياة الجاحظ ببدء خلافة المأمون وتنتهى بنهاية

---

(١) ٧ : ٤٤٢ الحيوان

(٢) ١٨ الجاحظ للفاخورى

(٣) ٧ : ٢ أمراء البيان

(٤) ٣ : ٢٧٦ الحيوان

خلافة المتوكل عام ٢٤٧ هـ ، وهو في السابعة والتسعين من عمره ، وتستمر نحو نصف قرن من الزمان ، بلغ فيه أبو عثمان كل ما يمكن أن يطمح إليه أديب من مجد ، وما يتمناه مفكر لنفسه من الإمامة والزعامة الفكرية في عصره ؛ وفي هذه الفترة عاصر الجاحظ أربعة خلفاء ، وهم :

المأمون العباسي ١٩٨ - ٢١٨ هـ (٨٢٣ م) .

المعتصم العباسي ٢١٨ - ٢٢٧ هـ

الواثق العباسي ٢٢٧ - ٢٣٢ هـ

المتوكل العباسي ٢٣٢ - ٢٤٧ هـ

وسوف نتناول حياة أبي عثمان في هذه المرحلة بشيء من التفصيل .

### الجاحظ في خلافة المأمون :

بلغت الخلافة في عهد المأمون غاية نفوذها وسلطانها ، وأقصى ما وصلت إليه من رخاء وحضارة ، وأصبحت بغداد مثابة العلماء ، ومقصد الأدباء ، وكان المأمون محبا للعلم ، مكرما للأدباء ، ذا بصيرة بمختلف فروع الثقافة ، وقد توج المأمون الحركة العقلية والفكرية في عصره بترجمة كل ما يفيد من تراث الأمم ، وشجع المترجمين على نقل ثقافات الفرس واليونان والرومان والهند إلى العربية ؛ وقد تتلمذ على أيدي شيوخ المعتزلة في عصره وتأثر بهم ، وكان طبعه ينزع به إلى العلوم والجدل ، فقرب علماء الكلام والفلسفة من المعتزلة إليه ، وذاعت في عصره محنة القول بخلق القرآن ، واستمرت حتى مات المأمون في يوم الخميس ١٧ رجب ٢١٨ هـ والجاحظ في الثامنة والستين .

وفي عصر المأمون الذي امتد عشرين سنة بلغ الجاحظ قمة المجد والزعامة الفكرية والأدبية في عصره ، وشارك في مختلف ألوان النشاط

الإسلامي ، وألف الكثير من الكتب ، وتلمذ عليه في البصرة العديد من الأدباء والعلماء والشعراء ؛ وكان يند إلى بغداد بين الحين والحين ، ثم اتخذها دار إقامة له ؛ وكان دخوله إلى بغداد عام ٢٠٤ هـ ، في الوقت الذي قدم إليها المأمون فيه من خراسان ؛ وما إن استقر به المقام فيها حتى تصدر للتعليم والمناظرة والتأديب والمحاضرة ، فقصده العلماء ، وأمه الحكماء ؛ ومن كان يلزم مجلسه الفراء ( ١٤٠ - ٢٠٧ هـ ) ، وكان كما يقول الجاحظ : يشتهي أن يتعلم منه شيئاً من علم الكلام ولم يكن له فيه طبع .

وفي عام ٢١٧ هـ حدث وباء عظيم بالبصرة قضى على أكثر سكانها (١) ، ونجا منه أبو عثمان الجاحظ .

وكان على صلة فكرية بالمأمون ، يقدره الخليفة لعبقريته واعتزاليته ، ويقدر هو الخليفة لسعة ثقافته وميوله الاعتزالية وعظمة الخلافة في عصره .

ولما قرأ المأمون للجاحظ كتاب «الإمامة» أعجب به إذ وجده على ما أمر به ، وكان قد أمر اليزيدي بالنظر فيها ليخبره عنها ، فأثنى اليزيدي عند الخليفة على الجاحظ وكتابته ، فاستدعاه ، وصار إليه ، فأثنى على عماله (٢) ، وسأله أن يكتب له رسالة في «العباسية» والاحتجاج لها ، ففعل الجاحظ ؛ وقدمه للخليفة ، ولما نظر المأمون في الكتاب ، وكان اليزيدي أدخله عليه ، دعا بالجاحظ فقال له : يا عمرو ، قد كان من يرتضى عقله ، ويصدق خبره (٣) ، ألقى إلى صفة هذا الكتاب ، فكنت أرى الصفة عياناً ، فلما حضر العيان أربى على الصفة ، ولما فلي أربى الفلي على العيان ، كباراء العيان على الصفة ،

---

(١) ١ : ٣٧١ العبر في خبر من غبر للذهبي - ط الكويت ١٩٦٠

(٢) راجع ٣ : ٢٧٤ البيان والتبيين للجاحظ - ط الخانجي

(٣) يقصد به المأمون اليزيدي مؤدبه المتوفى عام ٢٠٢ هـ

وهو كتاب ينوب عن حضور صاحب ، ويجل عن الحاجة إلى المحتجين له ، جامع لاستقصاء المعاني ، واستيفاء الحقوق ، بلفظ جزل ، ومخرج سهل ، سوقى ملوكى ، عامى خاصى ، قال الجاحظ : فوالله لما أفدته من تعلم صفة هذا الكتاب ، آثر عندى من الكتاب (١) .. ومن رسالة العباسية صفحات قلائل نشرها السندوبى فى كتاب « رسائل الجاحظ » (٢) .

وعاصر الجاحظ محنة القول بخلق القرآن ، واشترك فى تفاصيلها ودافع عن المأمون دفاعا مجيدا فى سياسته فى هذه المشكلة .

وفى أوائل خلافة المأمون ، وبعد أن توثقت الصلة بين الجاحظ والخليفة ، كان المأمون يريد تكريم أبى عثمان ، وإسناد رياسة ديوان الرسائل إليه ، وكانت رياسته أهم منصب أدبى فى الخلافة ، لأن عمل الديوان من أهم ما يدور عليه محور السياسة العامة للخلافة ، ولم يكن يتصدر فيه إلا ذور الأدب والكفاية والموهبة ونباهة الذكر ، والحدق بشتى ألوان الثقافات ، أصيلة أو مترجمة ، وإلا أصحاب السياسة والتدبير والتفوق فى صنوف البلاغات ، وكان إبراهيم بن العباس الصولى ( ٢٤٣ هـ ) من رؤساء الديوان فى أوائل عهد المأمون ، ولشهرة أبى عثمان وذىوع اسمه ، وأن أئمة المعتزلة من مستشارى الخليفة كانوا يثنون عليه ويمدحونه عنده ، ولصلة أبى عثمان بالخليفة ، أخذ المأمون يكلفه بأن يخلف « الصولى » فى الديوان كلما تغيب فى شأن من الشؤون العامة أو الخاصة ، ثم أصدر المأمون أمره بإسناد هذا المنصب إلى الجاحظ ، فصعد على كره منه بالأمر ، ولكن حفاظ الكتاب أحققهم ، وجلمهم من عناصر فارسية ، وهم يرون أن مثل هذا المنصب لا يتولاها إلا واحد منهم ، فأثاروا جوا خانقا ظم

---

(١) ٢ : ٤٨٦ أمراء البيان

(٢) ٣٠٠ - ٣٠٣ رسائل الجاحظ

وخأنه ، وتولوا الجاحظ بالغمز ، والدس ، وكان سهل بن هارون (١) يقول :  
إن ثبت الجاحظ في هذا الديوان أفل نجم الكتاب ، واستغنى الجاحظ من  
منصبه ، معذراً للخليفة بما وسعه من أعذار ، فأعفاه منه بعد ثلاثة أيام من  
عمله فيه (٢) .

ورجع الجاحظ إلى البصرة (٣) بعد أن أبى أن تستعبد نفسه الحرية حياة  
الوظيفة وقيودها ، ولم يرض أن يعمل مع عناصر شعوية تعيش في ديوان  
الرسائل وبالقرب منه ، ولا عمل لها إلا الدمائس والمؤامرات ،  
وقد ظل الجاحظ بعد ذلك يتهم بسهل ، ويسخر منه ، ليد سهل  
الخفية في حمل أبي عثمان على الاستعفاء من رئاسة الديوان ، فسجل اسمه  
في كتابه « البخل » ، فيمن سجل أسماءهم فيه من أعلام البخل والموصين به ،  
وسجل رسائله المشهورة في مدح البخل في كتابه ، ويظن أن سهل بن هرون  
ألفها يباعث شعوبى ، وهو السخرية من المثل الأعلى - الكرم - عند  
العرب (٤) .

(١) من الكتاب والحكماء والعلماء في عصر المأمون ، وهو من أصل  
فارسي ، عاش في البصرة ، وابق علماءها وأدباءها ، وحظى عند المأمون فولاه  
رياسة « بيت الحكمة » وتوفي عام ٢١٥هـ : ٨٣٠م ( ٣ : ٣٤ بروكلمان ، ١٢٠  
الفهرست ، ٢٥٨ : ٤ معجم الأدباء لياقوت « مرجليوث » ٣ : ٤٨-٥٨ عصر المأمون ،  
١ : ٧٠ ضحى الإسلام ) ، ويجعل الجارم في تحقيقه على البخل وفاة سهل بن  
هرون عام ١٧٣هـ : ٨٩٠م ( ١ : ١٨ البخل ) تتلأعن الأعلام للزركل ،  
وهو خطأ ، ويروى الجاحظ له شعرا ( ٢ : ١٩٦ البيان - ط الخانجي ، ٢ : ١٣٤  
البخل ) .

وكان ابن سهل شعوبيا ، وعمل معه في بيت الحكمة علان بن الحسن الشعوبى  
( ٣ : ٣٤ و ٣٥ تاريخ الأدب العربى لبروكلمان )

( ٢ ) ١٦ : ٧٩ معجم الأدباء لياقوت

( ٣ ) ٣ : ١٠٦ بروكلمان

( ٤ ) ٣ : ٣٥ بروكلمان - تاريخ الأدب العربى - ورسالة سهل بن هرون =

وهكذا ترك الجاحظ ديوان الرسائل ، مؤثرا الحياة الحرة ، بعيدا عن قيود المناصب وعن الشعوبيين والعناصر الحاقدة على العرب من الفرس وغيرهم ، ممن كان همهم إبعاد العرب عن مصادر النفوذ ودواوين الخلافة . ويدل على حب الجاحظ للحرية وكرهه لقيود الوظائف ما روى عنه أنه دخل يوما ديوان المكاتبات ، وهو فرع من فروع ديوان الرسائل ، فرأى جماعات من الكتّاب قد صقلوا ثيابهم ، وصففوا عماثهم ، ووشوا طرزهم ، فقال : هؤلاء كما قال الله تعالى : ( فأما الزبد فيذهب جفاء ) ظواهر نظيفة ، وبواطن سخيفة ، فويل لهم مما كتبت أيديهم وويل لهم مما يكسبون (١) .

ويروى عن الجاحظ أثناء توليه ديوان الرسائل في عهد نيابته عن الصولي أن أبا العيناء ( ١٩١ - ٢٨٣ هـ ) دخل عليه في أمر له ، فلما أراد الانصراف أحب الجاحظ أن يداعبه ، فأسر إلى حاجبه أنه إذا وصل أبو العيناء إلى الدهليز لا يدعه يخرج ولا يمكنه من الرجوع إليه ، فلما خرج أبو العيناء حجزه الحاجب وضيق عليه ، فنادى بأعلى صوته : يا أبا عثمان قد أريتنا قدرتك فأرنا عفوك (٢) .

ولام الكثيرون من الأدباء أبا عثمان لاستغفائه من ديوان الرسائل ، وقال بعضهم : « لم أر أغبن من الجاحظ لنفسه وإن كان أوحدهم البلاغة في عصره ، فما باله لم يلتبس شرف المنزلة بشرف الصنعة ، وقد رأى ابن الزيات

---

== تجدهما في : ١ : ٣٣ - ٤٥ البخلاء ، ٣ : ٣٥٥ العقد ، ٣ : ١٣٨ و ١٣٩ زهر الآداب على هامش العقد ، ٢ : ١٢ الأمثال للعسكري على هامش مجمع الأمثال للميداني .

( ١ ) ٣٧ أدب الجاحظ للسندوبي .

( ٢ ) ١٦ : ٨٤ معجم الأدباء لياقوت .

والصولي بلغا فيها ما بلغا ، وهو يلتبس فوائدهما والجاه بهما (١) ،  
بيد أن الجاحظ آثر أن يكون أميراً في وسط كتبه على أن يكون رئيساً في  
ديوان من دواوين الخلافة ، وما أشد ما يعجب الجاحظ بنفسه وهو يجلس  
إلى مكتبته يقرأ ويكتب ، إعجابه بأمير معزول عاد إلى دولة الأدب وإلى  
مكتبته في داره ، وهذا الأمير هو إسحاق بن سليمان الذي قال الجاحظ  
فيه (٢) إنه دخل عليه في إمرته للبصرة ، فرأى السباطين والرجال مثولاً كأن  
على رؤوسهم الطير ، ورأى فرشته ويزته ، ثم دخل عليه وهو معزول ،  
وإذا هو في بيت كتبه ، وحواليه الأسفاط والرقوق والقماطر والدفاتر  
والمساطر والمحابر ، قال الجاحظ : فما رأيته قط أنخم ولا أنبل ولا أهيب  
ولا أجزل منه في ذلك اليوم ، لأنه جمع مع المهابة المحبة ، ومع الفخامة  
الخلاوة ، ومع السؤدد الحكمة .

ومات المأمون في رجب عام ٢١٨ هـ . ولا ريب أن الجاحظ أسف  
لوفاة صديقه الخليفة ، وقدر له جهاده الصادق في خدمة الفكر الإسلامي ،  
والحضارة العربية ، وتراث الإسلام ، وإعزاز مجد المسلمين .

### الجاحظ في خلافة المعتصم :

تولى المعتصم بن الرشيد عام ٢١٨ هـ : ٨٣٣ م عرش الخلافة العباسية في  
بغداد بعد المأمون ، ونهج نهج أخيه في تأييد الاعتزال والقول بخلق القرآن ،  
ووقف للعناصر الفارسية ومؤامراتها بالمرصاد ، ومن ثم كون فرقة عسكرية  
ضخمة من الأتراك ليقاوم بها نفوذ الفرس والعناصر الفارسية في الدولة ،

---

( ١ ) ٢ : ٣٢٠ أمراء البيان .

( ٢ ) ١ : ٦١ الحيوان .

ولما كثروا وكثر ما يقع منهم ضد شعب بغداد من مصادمات ، بنى لهم مدينة «سر من رأى» وأصبحت عاصمة للخلافة (١) (٢٢١ - ٢٨٩ هـ) ؛ وشاهد الجاحظ الأحداث التي حدثت في عهد المعتصم ، من ثورة بابك الخرمي ومقتله عام ٢٢٣ هـ ، ومقتل الأفشين عام ٢٢٥ هـ ، وفتح عمورية عام ٢٢٣ هـ ، وغيرها .

وكان وزير المعتصم محمد بن عبد الملك الزيات صديقا حميما للجاحظ ، وهذا الوزير هو الذي قرب أحمد بن أبي دؤاد (٢) إلى الخليفة ، ثم حدث بين الرجلين سباق على القربى من الخليفة . . . وتوفي المعتصم عام ٢٢٧ هـ : ٨٤١ م .

وبلغ الجاحظ في خلافة المعتصم كل ما كان يطمح إليه من مجد ونفوذ وسلطان إذ قربه ابن الزيات من عرش الخلافة تقريبا شديدا ، فأصبح أبو عثمان ذا حظوة شديدة عند الخليفة ورجال دولته ، فهم جميعا يقدرون فضله ، ويكبرون أدبه ، ويجلون ما اختص به من المعارف الواسعة ، ويعجبون به وبإخلاصه للخلافة ، وبما طبع عليه من لطف المعشر ، وحسن السمر ، وطيب النادرة ، وكانوا يتوقون إلى حديثه ، ويقدرون بلاغته حق قدرها .

وكان ابن الزيات أشد الناس حبا له ، وإعجابا به ، فأثره أبو عثمان بوفائه وإخلاصه ، حتى كان يجب أن يكون الجاحظ معه ، يحادثه ، ويؤاكله ، قال أبو العيناء : كان الجاحظ يأكل مع ابن الزيات ، فجاءوا بفالوذج ، فأثر الوزير الجاحظ بأن يأكل معه منه ، فأسرع أبو عثمان في الأكل حتى

( ١ ) ٤ : ٥٥ مروج المذهب تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد .

( ٢ ) ٤ : ٩٧ و ٩٨ المرجع نفسه .

نظف ما بين يديه ، فقال له الوزير : تقشعت سماؤك قبل سماء الناس يا أبا عثمان ،  
فرد عليه الجاحظ : لأن غيمها كان رقيقا .

ويبدو أن بعض الوشاة أفسدوا ما بينهما . فكتب إليه الجاحظ رسالة  
مشهورة يقول منها : « أعاذك الله من سوء الغضب ، وعصمك من سرف  
الهوى ، وصرف ما أعارك من القوة إلى حب الإنصاف ، ورجح في قلبك  
إيثار الأناة ... الخ ، (١) .

وقد أقطع ابن الزيات الجاحظ أربعائة جريب (٢) ، واستمرت صلة  
الجاحظ بابن الزيات تزداد توثقا على مر الأيام .

وفي خلافة المعتصم ألف الجاحظ كثيرا من رسائله المشهورة فرسالته  
في « صناعات القواد (٣) » ، يذكر في مقدمتها أنه دخل على أمير المؤمنين  
المعتصم بالله . فقال له : يا أمير المؤمنين ، في اللسان عشر خصال ، ثم  
يخلص من ذلك إلى قوله : خفض يا أمير المؤمنين أولادك بأن يتعلموا من كل  
الأدب ، فإنك إن أفردتهم بشيء واحد ثم سئلوا عن غيره لم يحسنوه (٤) .

وكذلك ألف الجاحظ رسالته : « فضل هاشم على عبد شمس (٥) » في  
عهد المعتصم ، ويبدو أنه أهداها إلى الخليفة عام ٢٢٦ هـ ؛ إذ يقول الجاحظ

---

(١) راجعها في ٣١١ و ٣١٢ رسائل الجاحظ للسندوبى ، ١٦ : ٧٧  
معجم الأدباء لياقوت .

(٢) ٢ : ٣١٩ أمراء البيان .

(٣) ٢٦٠ - ٢٦٥ رسائل الجاحظ نشر السندوبى ، ١١٦ - ١٢١ ذيل  
زهر الآداب للحصرى .

(٤) ٢٦١ رسائل الجاحظ .

(٥) راجعها في ص ٦٧ - ٨٦ رسائل الجاحظ نشر السندوبى عام ١٩٣٣ .

فيها (١) : « بلغت مدة ملك بني هاشم إلى اليوم أربعاً وتسعين سنة » وابتداء ملك العباسيين بني هاشم عام ١٢٢ هـ .

وهكذا عاش الجاحظ في عصر المعتصم ، مقرباً من الخلافة ، معظماً من الخاصة والعامة على السواء ، حتى توفي الخليفة في ربيع الأول عام ٢٢٧ هـ .. وقد كثر تلاميذ الجاحظ ، فكان من بينهم العديد من شباب البصرة والكوفة وغيرهما ، وفي مقدمتهم أبو العيناء (٢) (١٩١ - ٢٨٣ هـ) ، وأبو العباس المبرد (٢١٠ - ٢٨٥ هـ) ، وثعلب (٢٩١ هـ) ، وابن قتيبة (٢١٣ - ٢٧٦ هـ) ، ويموت بن المزرع (٢٠٤ هـ) وسواهم ..

### الجاحظ في خلافة الواثق :

ولى الواثق بن المعتصم الخلافة عام ٢٢٧ هـ : ٨٤١ م ، فسار على نهج أبيه في سياسته ، وفي تأييده للاعتزال وزعمائه ، وفي حمل الناس على القول بخلق القرآن ، وفي أيامه مات أبو تمام الشاعر (٢٢١ هـ) بالموصل (٣) ، وابن الأعرابي (٢٥٠ - ١٣١ هـ) (٤) .. وكان - كما يقول المسعودي - محباً للنظر مكرماً لأهله ، مبغضاً للتقليد ، محباً للإشراف على علوم الناس وآرائهم (٥) ،

---

(١) ص ٧٧ المرجع نفسه .

(٢) يذكره الجاحظ في « الحيوان » مراراً - راجع ٣ : ٣٧ الحيوان ، وترجم ابن خلكان لأبي العيناء (٣ : ٤٦٦ - ٤٧٠ وفيات الأعيان نشر محمد يحيى الدين) .

(٣) يجعل المسعودي وفاته عام ٢٢٨ هـ (٤ : ٦٦ - ٦٧ مروج الذهب)

(٤) راجع ٣ : ٣٣ وفيات الأعيان

(٥) ٤ : ٧٧ مروج الذهب

وله مجالس في الكلام والفلسفة والطب<sup>(١)</sup> وكان ابن الزيات وزيره ، وأحمد ابن أبي دؤاد قاضيا للقضاة في خلافته .

وكان عمر الجاحظ في نهاية حكم الواثق ٨٢ عاما ، وهو سن متقدم ، حمل فيه صاحبه أعباء الزمن ، ومع ذلك فقد ظل مكبًا على القراءة والتأليف يفيد تلاميذه ويوجههم ، مقررًا من الخليفة ووزيره ابن الزيات .

وأنف الجاحظ كتاب الحيران وأهداه إلى ابن الزيات ، فكافأه عليه بخمسة آلاف دينار<sup>(٢)</sup> وكان ابن الزيات أديبا أريبا وسياسيا بعيد النظر ، وكان الجاحظ يناديه في خلافة الواثق<sup>(٣)</sup> ، وزاره الجاحظ مرة وقد افتصد ، فقال له : أدام الله صحتك ، ووصل غبطتك ، ولا سلبك نعمتك ، فقال الوزير : ماذا أهديت إلينا يا أبا عثمان ؟ فقال : فكرت في شيء أهديه إليك ، فلم أر أشرف ولا أطرف من كتاب سيديويه بخط الكسائي<sup>(٤)</sup> وعرض الفراء<sup>(٥)</sup> ، وقد اشتريته من ميراث الفراء ، فقال : والله ما أهديت إلى شيئا أحب منه<sup>(٦)</sup> .

ومن اتصل بهم الجاحظ في خلافة الواثق نجاح بن سلمة ( ٢٤٥ هـ )

---

(١) ٤ : ٧٨ — ٨٤ المرجع

(٢) ١٦ : ١٠٦ معجم الأدباء

(٣) ٣ : ١٠٦ بروكلمان

(٤) شيخ أئمة النحويين الكوفيين ، وكان مؤدب الرشيد والأمين والمأمون وتتلذذ على الخليل وغيره . وفي معجم الأدباء أن النظام ناظره في القدر في مجلس الرشيد ، وهذا زعم عجيب لأن الكسائي مات عام ١٨٩ هـ وولد النظام عام ١٨٠ هـ

(٥) توفي الفراء عن سن عالية ( ١٤٠ - ٢٠٧ هـ ) ٢ : ١٩٩ و ٢٠٠ بروكلمان

(٦) ١٦٦ أدب الجاحظ للسندوني .

وكان على الأموال في زمن الوراق والمتوكل (١) ، وللجاحظ فيه قصيدة (٢) سنذكرها عند الكلام على « الجاحظ الشاعر » وفيها يتحدث الجاحظ عن زهده وعن الأيام التي يستوى عندها العالم والجاهل .

وكان الجاحظ في هذه الفترة كثير المسال ، عظيم النفوذ ، دخل عليه صديق له ، فسأله : كيف حالك يا أبا عيثان ؟ فقال الجاحظ : سألتني عن الجملة فاسمعها مني واحدا واحدا ، حالي أن الوزير يتسكلم برأيي ، وينفذ أمري ، ويواتر الخليفة الصلوات إلي ، وآكل من لحم الطير أسمنها ، وألبس من الثياب أغرها ، وأجلس على ألين الطبرى ، وأتكل على هذا الريش ، ثم أصبر على هذا حتى يأتي الله بالفرج ، فقال له سائله : الفرج ما أنت فيه ، قال : بل أحب أن تكون الخلافة لي ، ويعمل محمد بن عبد الملك بأمرى ، ويختلف إلي ، فهذا هو الفرج (٣) .. وفي هذه الفترة نجد الجاحظ يخدمه الحراس والخدم يقول : كان عندنا حارس يكنى أبا خزيمة (٤) ، ويقول : ابتعت خادما كان قد خدم أهل الثروة واليسار وأشبه الملوك (٥) ، ويقول : قلت لغلامي نفيس (٦) ، وقال نفيس لغلامي (٧) .

وبعد قليل توفي الخليفة الوراق عام ٢٣٢ هـ : ٨٤٧ م ، فحزن عليه الجاحظ حزنا عميقا .

---

(١) راجع ٣ : ٤٦٩ وفيات الأعيان في ترجمة أبي العيناء

(٢) ١٦ : ١١١ معجم الأدباء

(٣) ٣٤ السندوبى - أدب الجاحظ

(٤) ٣ : ٢٨ الحيوان

(٥) ٢ : ٣٣١ البيان والتبيين - ط الخانجي

(٦) ٤ : ٢٦ المرجع

(٧) ٤ : ٢٧ المرجع

### الجاحظ في خلافة المتوكل :

جلس المتوكل بن المعتصم على عرش الخلافة خمسة عشر عاما (٢٣٢ - ٢٤٧ هـ) ، وكانت أيامه أحسن الأيام وأنضرها (١) ، ولما أفضت الخلافة إليه أمر بترك النظر والجدل ، وأنهى محنة القول بخلق القرآن (٢) ، وبعد أشهر من خلافته قتل وزيره ابن الزيات عام ٢٣٣ هـ ورفع منزلة أبي دؤاد ، وقد يكون ابن الزيات حاول في خلافة الواثق إبعاد المتوكل عن الخلافة بعد الواثق (٣) .

وكان الفتح بن خاقان التركي أغلب الناس على المتوكل وأقربهم منه وأكثرهم تقدما عنده ؛ وكان البحترى شاعره الأثير لديه ، ثم ولى منصب قاضى القضاة يحيى بن أكرم (٢٤٣ هـ) مكان ابن أبي دؤاد الذى نجاه عن القضاء عام ٢٣٩ هـ ، وكانت سياسة المتوكل القضاء على نفوذ الأتراك فى دولة الخلافة ، ولكن الحزب التركى دبر مؤامرة لقتل المتوكل ونفذها بدقة عام ٢٤٧ هـ : ٨٦٢ م بمعاونة ولى العهد المنتصر بن المتوكل ، وقتل المتوكل فى قصره الجعفرى ، وقتل معه وزيره الفتح بن خاقان .

وكان البحترى حاضراً وجرح فى المعركة فهرب ، وله حديث طويل وصف فيه اليوم الأخير فى حياة المتوكل وصفاً رائعا (٤) ، ورثاه البحترى برأيته المشهورة .

وإثر نكبة المتوكل لوزيره ابن الزيات الذى كان الجاحظ مقرباً إليه هرب أبو عثمان إلى البصرة ، فقيل له : لم هربت ؟ فقال : خفت أن أكون ثانى

---

(١) ٤ : ٨٦ و ١٢٢ مروج الذهب للمسعودى

(٢) راجع المسعودى ٤ : ٨٦

(٣) راجع ٤ : ٨٨ مروج الذهب فى سخط المتوكل على وزيره

(٤) ٤ : ١١٩ - ١٢٢ مروج الذهب

اثنين إذ هما في التنور (١) ؛ وأمر ابن أبي دؤاد أن يجاء بالجاحظ من البصرة ،  
نجى به مقيد الرجلين ، مغلول العنق بسلسلة ، في قيص سمل ، فدخل  
على ابن أبي دؤاد ، فلما وقع نظره عليه قال : والله ما علمتكم إلا متناصيا  
للنعمة ، كفورا للصنعة ، معدنا للمساوىء وما فتى باستصلاحى لك ،  
ولكن الأيام لا تصلح منك ، لفساد طويتك ورداءة دخيلتك ، وسوء  
اختيارك ، وغالب طبعك .

فرد عليه الجاحظ : خفض عليك ، فوالله لأن يكون لك الأمر على  
خير من أن يكون لى عليك ، ولأن تحسن وأسىء أحسن فى الأحداث من أن  
أحسن وتسىء ، ولأن تغفو عنى فى حال قدرتك أجهل بك من الانتقام منى .  
فقال له ابن أبي دؤاد ، قبحك الله ، والله ما علمتكم إلا كثير تزويق الكلام ، وقد  
جعلت بيانك أمام قلبك ، ثم أضغنت فيه النفاق والكفر ، ما تأويل هذه الآية :  
( وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهى ظالمة إن أخذه أليم شديد ) ؟

قال الجاحظ : تلاوتها تأويلها ، أعز الله القاضى ، فقال : جيئوا بجداد ،  
فبادره الجاحظ : أعز الله القاضى ، ليفك عنى أوليزيدنى ، قال القاضى : بل  
ليفك عنك ؛ وأخذ الحداد يعنف بساقه ، فلطمه الجاحظ . وقال له : اعمل  
عمل شهر فى يوم ، وعمل يوم فى ساعة ، وعمل ساعة فى لحظة ، فإن الضرر  
على ساقى ، وليس بجذع ولا ساجة ، فضحك القاضى ومن معه ، وقال لمحمد  
ابن منصور الكاتب ، وكان حاضرا : أنا أثق بظرفه ولا أثق بدينه ، ثم قال :  
يا غلام صر به إلى الحمام ، وأمط عنه الأذى ، فنزع عنه الغل والقيد ، وأدخل  
الحمام ، وحملى إليه الملابس فلبس ، ثم دخل على القاضى فأحله فى صدر  
المجلس ، وأقبل عليه قائلا : هات الآن حديثك يا أبا عثمان .. وأصبح الجاحظ  
مقربا من القاضى بعد أن كان منهرفا عنه (٢) .

(١) إشارة إلى التنور الذى عذب فيه ابن الزيات - ١٦ : ٧٦ معجم الأدباء

(٢) ٣ : ١٥٨ ضحى الإسلام

وللجاحظ شعر في ابن أبي دؤاد (١)، سنعرض له في موضعه ، وله رسالة إليه في الاعتذار (٢) ، وألف الجاحظ كتابه المشهور « البيان والتبيين » وأهداه إليه ، فأعطاه عليه خمسة آلاف دينار ، ولما فليح القاضي وخلفه ابنه أبو الوليد لزمه الجاحظ إلى أن صرف عن القضاء . وتوفي أبو الوليد ، ثم توفي أبوه بعده بعشرين يوما وذلك عام ٢٤٠ هـ (٣) .

وفي خلافة المتوكل أصبح الجاحظ وثيق الصلة بوزيره التركي الفتح بن خاقان ، وقدم له بعض كتبه ، ومنها رسالته المشهورة « مناقب أترك وعامة جند الخلافة » واستحكمت أواصر الصداقة بينهما ، وكان الفتح يثني على الجاحظ عند المتوكل (٤) ويأخذ له منه الجواز الطائلة .

ويقول الجاحظ : ذكرت للمتوكل لتأديب بعض ولده ، فلما رآني استبشع منظري ، فأمر لي بعشرة آلاف درهم وصرفني (٥) ، فخرجت من عنده ، فلقيت محمد بن إبراهيم ( بن السندی ) وهو يريد الانصراف إلى مدينة السلام ، فعرض على الخروج معه ، والانحدار في حراقتة ، وكنا بسر من رأى ، فركبنا الحرافة ، فلما انتهينا إلى قم القاطول نصبت ستارة وأمر بالغناء .

ويذكر الجاحظ قصة انتحار المغنية و غلام لمحمد بن إبراهيم في الماء ، وكنا عاشقين ، وما قصه الجاحظ عليه من قصة ممثلة انتحار فيها عاشقان

( ١ ) ١٦ : ٨٦ معجم الأدباء ، ١٨٠ - ١٨٢ أدب الجاحظ للسندوبي .

( ٢ ) ٣١٣ رسائل الجاحظ .

( ٣ ) ٤ : ٩٧ مروج الذهب ، ٣ ص ٥ - ٨ ضحى الإسلام .

( ٤ ) راجع ١٤٦ - ١٤٨ أدب الجاحظ للسندوبي .

( ٥ ) راجع ٢ : ١٢٢ شذرات الذهب ، ٣ : ١٠٦ بروكلمان ، ١٥٩

أدب الجاحظ للسندوبي .

فى دار يزيد بن عبد الملك الأموى (١) الخليفة (١٠١-١٠٥ هـ) .

ومن صور إيثار الفتح بن خاقان (٢) للجاحظ. هذه الرسالة التى كتبها من عاصمة الخلافة إلى أبى عثمان بالبصرة ، وجاء فيها : « إن أمير المؤمنين يجد بك ، ويهش عند ذكرك ، ولولا عظمتك فى نفسه لعلمك ومعرفتك ، لحال بينك وبين بعدك عن مجلسه ، ولغصبك رأيك وتديريك فيما أنت مشغول به ، ومتوفر عليه ، ولقد كان ألقى إلى من هذا عنوانه ، فزدتك فى نفسه ، زيادة كف بها عن تجشيمك ، فاعرف لى هذه الحال ، واعتقد هذه المنية على كتاب ( الرد على النصارى ) وافرغ منه ، وعجل به إلى ، وكن بمن جدا به على نفسه ، وتناول مشاهرتك ، قد استطلعت لما مضى ، واستسلمت لك لسنة كاملة مستقبلة ؛ وهذا ما لم تحلم به نفسك ، وقد قرأت رسالتك فى ( بصيرة غنام ) ، ولولا أنى أزيد فى خيلتك لعرفتك ما يعتربنى عند قراءتها والسلام » (٣) .

وهكذا كان الجاحظ فى عهد المتوكل يعيش فى أموال وافرة ، ونفوذ عريض ، دخل (٤) عليه صديقه ميمون بن هرون ، فرأى ما فيه من ثراء وجاه ، فقال له : ألك ضيعة بالبصرة ؟ فتبسم الجاحظ. وقال : إنما أنا وجارية لى ، وجارية تخدمها ، وخادم ، وحمار ، أهديت كتاب « الحيوان » إلى محمد بن عبد الملك فأعطانى خمسة آلاف دينار ، وأهديت كتاب « البيان والتبيين » إلى أحمد بن أبى دؤاد فأعطانى خمسة آلاف دينار ، وأهديت كتاب الزرع

( ١ ) ١٦ : ٩٩ معجم الأدباء ، ٤ : ١٠٠ و ١٠١ المسعودى ، ٣ : ١٤١ وفيات الأعيان .

( ٢ ) له ترجمة فى معجم الأدباء ١٦ : ١٧٤ - ١٨٦ .

( ٣ ) ١٦ : ٩٩ معجم الأدباء .

( ٤ ) ١٦ : ١٠٦ المرجع .

إلى إبراهيم بن العباس الصولى فأعطاني خمسة آلاف دينار . فأنصرفت إلى البصرة ، ومعى ضيعة لا تحتاج إلى تجديد ولا تسميد .

كل هذا والجاحظ فى شيخوخته . الخلفاء والعطاء يحبون مجلسه ، ويفأخرون بصداقته ، وجميع رجال الدولة أصدقاء له ، ولا شك أنه حزن لمصرع المتوكل ، ولاذ بالصبر وهو مقيم فى البصرة ، خوفاً من بطش الأتراك .

### المرحلة الأخيرة :

تبدأ هذه المرحلة الأخيرة فى حياة الجاحظ بوفاة المتوكل ووزيره الفتح بن خاقان فى ٣ شوال ٢٤٧ هـ : يناير ٨٦٢ م . وولاية ابنه المنتصر مكان أبيه صنيحة الليلة التى قتل فيها الخليفة ، وشاهد أبو عثمان عمود ثلاثة من الخلفاء ، هم :

١ - المنتصر ( ٢٤٧ - ٢٤٨ هـ ) وكان وزيره أحمد بن الحبيب وفى عهده رفع الاضطهاد عن العلويين من آل أبى طالب وشيعتهم .

٢ - المستعين بن المنتصر ( ٢٤٨ - ٢٥٢ هـ ) .

٣ - المعتز بن المتوكل ( ٢٥٢ - رجب ٢٥٥ هـ ) .

وكانت سن الجاحظ عالية . والأيام تضعضع من قوته . والمرض تشتد وطأته على مفكرنا العظيم ، وأصيب بفالج نصفى ، فلزم بيته فى البصرة سجين المرض والشيخوخة ، ويبدو أنه أصيب بفالج فى خلافة الواثق وشفى منه ، ففى كتاب البخلاء يذكر أثناء ذكره لقصته مع محفوظ النقاش (١) أنه أصيب بطرف من الفالج ، ومع ذلك كان يغدو ويروح .



ويروى عن الجاحظ (١) أنه كان (بسر من رأى!!) فدخل عليه أبو معاذ الطبيب يعوده ، وقد فلج ، فلما أخذ مجلسه أتى رسول الخليفة المتوكل إليه يطلبه ، فقال الجاحظ : « وما يصنع أمير المؤمنين بشق ما تل ، ولعاب سائل ، أحد الشقين لو غرز بالمسال ما أحس والآخريمر به الذباب فيغوث وأكثر ما أشكوه الثمانون » فقد كانت هذه القصة إذا عام ٢٣٠ هـ ، وذكر المتوكل فيها يدل أنها حدثت عام ٢٢٢ هـ أو بعده إلا إذا كان ذكر الثمانين على وجه التقريب لا التحديد ؛ وأنشد الجاحظ يومئذ أبياتا من قصيدة عوف بن محم الخزاعي الشاعر (٢٢٠ هـ) ومنها :

إن الثمانين - وبلغنها قد أحوجت سمعى إلى ترجمان

ويجعل محقق كتاب الحيوان الأستاذ عبد السلام هارون مرض الجاحظ في خلافة الواثق نحو ذلك التاريخ ؛ ولكنه لا يذكر أنه شفى منه ، بدليل ما جاء في البخلاء ، وما روى عنه من روايات في أثناء خلافة المتوكل تدل على أنه لم يكن ملازما للفراش .

والظاهر أن المرض عاد إليه عام ٢٤٦ هـ في آخر خلافة المتوكل ، فقد روى (٢) أن المبرد تليذه قد عاده في مرضه فقال له الجاحظ : أنا من جانبي الأيسر مفلوج (مشلول) فلو قرض بالمقاريض ما علمت ، ومن جانبي الأيمن منقرس (مصاب بالروماتزم) فلو مر بي الذباب لألمت ، وبني حصاة لا ينسرح لي البول معها ، وأشد ما على ست وتسعون سنة ، وأنشد :

أترجو أن تكون وأنت شيخ كما قد كنت أيام الشباب

(١) ١٠٣ : معجم الأدباء

(٢) ١١٣ : المرجع نفسه ، ٣ : ١٤٣ وفيات الأعيان

لقد كذبتك نفسك ليس ثوب دريس كالجديد من الثياب (١)

وقريب من هذه الرواية رواية يموت بن المزرع (٢) : دخل ناس من البصرة من أصدقاء الجاحظ في العلة التي مات فيها ، فسألوه عن حاله ، فقال :

عليل من مكانين من الأسقام والدين

وأنا في هذه العلة المتنافضة التي يتخوف من بعضها الشاف ، وأعظمها نيف وتسعون سنة ، قال يموت : وكان يطلى نصفه الأيمن بالصندل والكافور لشدة حرارته ، والنصف الآخر لو قرص بالمقاريض ما شعر به من خدره وبرده . . وشكا الجاحظ لطبيب علقته فقال : قد اصطلحت الأضداد على جسدى ، إن أكلت بارداً أخذ برجلي ، وإن أكلت حاراً أخذ برأسى (٣) .

وفي رواية لموت أن المتوكل وجه في السنة التي قتل فيها إلى الجاحظ أن يحمل إليه من البصرة ، وقد سأله الفتح بن خاقان ذلك ، فوجده لافضل فيه ، فقال لمن أراد حمله : ما يصنع أمير المؤمنين بأمرىء ليس بطائل ، ذى شق مائل ، ولعاب سائل ، وفرج بائل ، وعقل زائل ، ولون حائل (٤) وهذه

---

(١) يستدل محقق كتساب الحيوان الأستاذ هارون بهذه الرواية على أن الجاحظ ألف الحيوان وهو على هذه الحالة ؛ ولكنها لا تصلح دليلاً لأن الجاحظ حدد تاريخ الرواية بعام ٢٤٦ هـ بتحديد سنة (٩٦ سنة) ؛ ويقول الحصرى (١٦٥ جمع الجواهر) إن الجاحظ ألف «الحيوان» وهو على تلك الحال ، فيتمول محقق الحيوان : يعنى السن العالية والفالج الشديد ، وأرى أن الفالج الذى أصيب به الجاحظ وهو يؤلف «الحيوان» زال ولم يلازمه ، بل عاد إليه بعد ذلك عام ٢٤٦ هـ ، ويتمول الجاحظ (٤ : ٦٩ الحيوان - ساسى) : وقد صادف هذا الكتاب منى حالات تمنع من بلوغ الإرادة فيه ، أول ذلك العلة الشديدة . .

(٢) ١٩٦ : ٤ المسعودى

(٣) ١٦ : ١١٤ مجمع الأدباء

(٤) ١٦ : ١١٣ المرجع

الرواية تصور لنا الجاحظ عام ٢٤٧ هـ مريضا ، أما بدء المرض فكما أرجح كان عام ٢٤٦ هـ .

إن الجاحظ مرض بالفالج عام ٢٣٠ هـ وشفي منه ، وعادوه المرض عام ٢٤٦ هـ بعد نحو ستة عشر عاما ، وفي سبب مرض الجاحظ يذكر ابن أبي أصيبعة ( ٢٦٨ هـ ) في كتابه « عيون الأنباء في طبقات الأطباء » نقلا عن ابن بطلان الطبيب ( ٤٤٤ هـ ) أن الجاحظ ويوحنا بن ماسويه ( ٢٤٣ هـ ) اجتمعا على مائدة اسماعيل بن بلبل (١) ( أحد الكتّاب والوزراء توفي عام ٢٧٨ هـ ) ، فكان في جملة ما قدم على المائدة مضيرة بعد سمك ، فامتنع يوحنا من الجمع بينهما ، فقال له أبو عثمان : أيها الشيخ لا يخلو أن يكون السمك من طبع اللبن أو مضاده ، فإن كان أحدهما ضد الآخر فهو دواء له ، وإن كانا من طبع واحد فلنحسب أننا قد أكلنا من أحدهما إلى أن اكتفينا ، فقال له يوحنا . والله ما لي خبرة بالكلام ( الجدل ) ، ولكن كل يا أبا عثمان وانظر ما يكون في غد ، فأكل نصرة لدعوته ، ففلج في ليلته ، فقال : هذا والله نتيجة القياس المحال .

ويذكر كثير من الباحثين والعلماء أن مرض الجاحظ كان في آخر خلافة المتوكل ، ومن هؤلاء : ابن خلكان ، وصاحب تاريخ بغداد ، وابن العماد في شذرات الذهب (٢) والسندوبي (٣) ، وسواهم .

أصيب الجاحظ إذا للمرة الثانية بالفالج عام ٢٤٦ هـ ، ومع ذلك فقد ظل حافظا لقواه الفكرية والعقلية ، وهرع العلماء والأدباء إليه من كل مكان

---

(١) في سرح العيون ص ١٣٦ مائدة أحمد بن أبي دؤاد ، وكان ابن أبي دؤاد أيضا قد أصيب بالفالج عام ٢٣٣ هـ ( ٤ : ٤٧ مروج الذهب )

(٢) ٢ : ١٢٢ شذرات .

(٣) ص ١٨٧ أدب الجاحظ

يعودونه ، للاطمئنان على رائد الفكر العربي ، أبي عثمان الجاحظ .  
وتوافدوا على البصرة ، وكان الجاحظ . أثناء المرض مثال المؤمن الصابر ،  
يفتح داره كلما أمكن للعائدين ، قال أبو طاهر : صرت إلى الجاحظ .  
ومعى جماعة ، وقد أسن واعتل في آخر عمره ، وهو في منظره له ، وعنده  
ابن خافان جاره ، فقرعنا الباب ، فلم يفتح لنا ، وأشرف من المنظره ،  
وقال : ألا إني قد حوقلت ، فما تصنعون بي ؟ ! سلموا سلام الوداع ، فسلمنا  
وانصرفنا (١) .

وقال بعض البرامكة (٢) لما عزل من السند : ركب البحر وانحدرت إلى  
البصرة ، فخبرت أن الجاحظ بها وأنه عليل بالفالج ، فأجبت أن أراه قبل  
وفاته ، فصرت إليه ، فأفصيت إلى باب دار لطيف فقرعته ، فخرجت إلى  
جارية صفراء ، فقالت : من أنت ؟ فقلت : رجل غريب وأحب أن أسر  
بالنظر إلى الشيخ ، فبلغته الخادمة ما قال ، فسمعتة يقول : قولى له « وما تصنع  
بشق مائل ، ولعاب سائل ، ولون حائل » فقلت : لا بد من الوصل إليه ،  
فلما بلغته قال : هذا رجل قد اجتاز بالبصرة وسمع علتى فقال أحب أن  
أراه قبل موته فأقول قد رأيت الجاحظ .

ثم أذن لى فدخلت وسلمت عليه فردداً جميلاً ، وقال من تكون  
أعزك الله ؟ فانتسبت له ، فقال : رحم الله تعالى أسلافك وآباءك  
السمحاء والأجواد ، فلقد كانت أزمانهم رياض الأزمئة ، ولقد انجبر بهم  
خلق كثير ، فسقيا لهم ورعياً ، فدعوت له ، وسألته أن ينشدنى شيئاً من  
شعره ، فأنشدنى :

---

(١) ١٩٣ أدب الجاحظ

(٢) ١٤٣ : ٣ وفيات الأعيان ، ١ : ٤٧٧ زهر الآداب ( الحلبي ) ،

لئن قدمت قبلي رجال فطالما مشيت على رجلي فكنت المقدما  
ولكن هذا الدهر أتى صروفه فتبرم منقوضا وتنقض مبرما

وقضى الجاحظ من عام ٢٤٦ هـ حياته مريضا ، وإن كان كما يقول باحث :  
لم ينقطع عن الكتابة والتأليف طول مدة مرضه ، مما يدل على أنه كان  
على جانب عظيم من قوة البنية ، وشدة الأسر ، ومتانة الأعصاب ، وحضور  
الذهن ، وقوة العقل ، وظل منلوجا حتى عام ٢٥٥ هـ (١) .

## البَابُ الثَّالِثُ

### شخصية الجاحظ وثقافته

# الفصل الأول

## شخصية الجاحظ

- ١ -

فى نطاق كبير من الذكاء والموهبة والثقافة واتساع المعرفة ؛ ومن العقلية الناضجة ، والذهنية المتفتحة ، والنضوج الفكرى الخلاق ؛ كانت تدور شخصية الجاحظ ، شخصية المعلم العربى الأول ، ورائد الفكر العربى فى الثقافة الإنسانية ..

وكان الجاحظ بشخصيته الجليلة ، ومواهبه الكبيرة ، وذكائه اللامح ، وثقافته الواسعة ، وآثاره الفكرية والأدبية الخالدة ، وبآرائه فى شتى جوانب الدين والأدب والحياة ؛ شعار مدرسة جامعة ، ورمزاً على التبحر فى العلوم ، والتوسع فى الآداب ، والتفوق فى فنون البلاغة ، وصنوف البيان ، حتى قال رجل لأبى العناء ، ليت شعرى أى شىء كان الجاحظ يحسن ؟ فقال : ليت شعرى وأى شىء كان لا يحسن ؟ ملأ الجاحظ طباق الأرض علماً ، وعلا على أمثاله فضلاً وفهماً ، وأدم للغة العربية هذا التراث فى كل فن من ضروب العلم ، ولون من ألوان الآداب ، على كثرته وجليل شأنه .

كان رائداً للفكر العربى الإسلامى فى عصره ، وكان مجده الذائع يعصف بكل مجد ويدوى فى كل أفق ، ويرن صده فى سمع الأجيال ، فهو إمام الكتاب وشيخ البيان ، وعلم من أعلام الأدب والنقد ، ومفكر من مفكرى المعتزلة ؛ عاش الناس فى عصره وبعد عصره عيالا عليه فى الفصاحة والبلاغة ، واللسن والعارضة ، كما يقول ابن العميد : وعدوا التماذة عليه شرفاً لا يعدله شرف ، ومجداً يدينهم من قصور الملوك ، وتعصب له كثير من أعلام الفكر

في مختلف العصور ، فألفوا الكتب في الإشادة به ، كما فعل أبو حيان التوحيدي (٤٠٠ هـ) في كتابه «تقريظ الجاحظ» ، وبالغوا في التنويه به ، حتى حسد ثابت بن قرّة الأمة العربية عليه ، وحتى كان الخلفاء يهشون عند ذكره ، ونهج كبار الكتاب نهجه ، وكان نخر الرجل أن يلقب بلقبه ، وتشفقوا بكتبه ، ورأوها تعلم العقل أولا والأدب ثانيا ، وبلغ من اهتمام رجال الفكر والأدب بها أن كانوا يسألون الناس عن المفقود منها في البيت الحرام وعرفات ، وكان معاصروه يحذرون خصوصته حتى لا يسممهم بميسم الخزي والموان إلى الأبد ، ومن ساء جده منهم فكان هدفا لسخريته اللاذعة ، صار على الأجيال صورة مشوهة ، وإساءة لا يغفرها الزمن ، كأحمد بن عبد الوهاب بطل رسالته الساخرة «التزييع والتدوير» وحسبك أن المأمون كان يقرأ كتبه ويثنى عليها ويستجيدها (١) .

ومجد الجاحظ مجد خالص من شوائب العصبية وتمويه السياسة ، وهو مجد بوأه إياه كفايته وثقافته وآثاره الفكرية والأدبية ؛ فقد عاش الجاحظ ينعم بالشهرة والمجد . لم تبوئه مواهبه مقاعد الوزارة التي كان يصعد إليها في عهده الكتاب ، ولم تله كفايته منزلة في ديوان الرسائل ، ولما صدر فيه أيام المأمون لم يبق فيه غير ثلاثة أيام استقال بعدها منه ، لأنه حورب فيها حربا شديدة من الشعوبيين وغيرهم ، حذرا من أن يأفل به نجم الكتاب ، كما قال سهل بن هارون ؛ وعدم صعود الجاحظ إلى المناصب الكبيرة في دولة الخلافة يجعله بعض الكتاب إخفاقا ويؤاخذ الجاحظ به ، كابن شهيد (٤٢٦ هـ) الأندلسي في رسالته «التوابع والزوابع» ، ويخطيء من أجله من يذهب إلى تقديم الجاحظ على سهل بن هارون (٢) ، ويرد عليه

(١) ٣ : ٢١١ البيان والتبيين نشر السندوبى ط ١٩٢٧

(٢) ١ : ١٩٨ الذخيرة لابن بسام

الدكتور زكي مبارك (١) : لأن تحكيم التوفيق في الحياة في وزن الشخصيات وتقديرها ضلال وغبن .

يقول ابن شهيد : إن حرمان الجاحظ من شرف المنزلة بشرف الصنعة مع تقدم ابن الزيات والصولي إما لأنه كان مقصرا في الكتابة وجميع أدواتها ، أو لأنه كان ساقط الهممة ، أو لأن دمايته وإفراط جحوظ عينيه قعد به عن الغايات المنشودة ؛ ورأى أن نقص أدوات الكتابة عند الجاحظ شيء قد يكون غريبا ، فذهب إلى أن أول أدوات الكتابة العقل وقد نجد عالما غير عاقل .

أما أن الجاحظ ينقصه أداة - أية كانت هذه الأداة - من أدوات الكتابة ، فذلك ما ترده الحقيقة المجردة ، فعقل الجاحظ وفنه الأدبي وطبعه الأصيل أعظم من أن يتطرق إليه فيها شك ، وأما أن الجاحظ كان قريب الأمل غير بعيد الطموح ، لا يتطلع إلى مجد أو جاه أو سلطان فذلك خلاف الواقع وهو بعيد عن شخصية الجاحظ وحياته وروحه الوثاب الطموح ، وأما أن دمامة الجاحظ كان لها أثر فيما سماه ابن شهيد إخفاقا ، فقد نسلم به إلى حد ما .

كان الجاحظ عربيا في دمه وروحه وفكره ، وكان يتعصب للعرب في كل شيء ، حتى في الثقافة والأدب في عصر كان النفوذ فيه للعناصر الأجنبية ، خاصة الفرس والترك ، وكثيرا ما كان ينسى ذوو المواهب من العرب إلا من اتصل منهم بجبل أمير أو وزير ؛ ومع صداقة الجاحظ لابن الزيات وابن أبي دؤاد ، لم يحاول أن يكسب شيئا من وراء هذه الصداقة ، وكان ابن أبي دؤاد يثق بظرف أبي عثمان وأدبه ، لا بولائه وإخلاصه .

على أن المناصب كانت مما عافه الجاحظ وانصرف عنه ، لأنها كانت

بغیضة إلى قلبه ، وكانت قیودها وتقالیدها بما يدع الرجل مكبلاً بأغلال تحول بینة وبين الحرية التي یزیدها ؛ ثم لا ننسى أن مواهب الجاحظ مواهب عالم وأدیب ، لامواهب رجل من رجال السیاسة ، والمجتمع والحیاة العامة ، وقد رفعتة مواهبه العقلية مكاناً ما كان ینتظر أن ترفعه إلیه السیاسة مهما حلق فی أجوائها .

وكان إخلاص الجاحظ للفكر والثقافة أعظم من إخلاصه لأی شیء آخر ، وكان خوضه فی أعماق المعرفة یشغله عن الخوض فی میادین السیاسة والاجتماع ، وكانت لذته فی الدراسة والبحث أكثر من لذته فی السیاسة وسلطانها ، وحیاة الجاحظ هیأته لأن یكون محوراً للثقافة فی عصره ، لا بطلاً من أبطال السیاسة .

ومن ثم تجد شخصية الجاحظ تطالعك فی كتیبه وأدبه من كل جانب وناحية ، وهی شخصية رجل الفكر الواثق بنفسه ، المؤمن بها ، الحریص علی كرامته ، المعتز بقیمته ؛ یخاطب الوزراء والعطاء ، فلا یفنی شخصيته فی شخصیاتهم ، بل یراهم إخوانه ، ویری له علیهم حق الصداقة ، ودالة الأخوة ، ولا یجبن عن توجیه اللوم إلیهم .

وحین نقرأ فی كتیب الجاحظ نشعر كأننا نغیب فی جو تطل علینا منه شخصية الرجل ، بسعة ثقافتها ، وبتوجيهها الساهر لعقل القارئ وفكره وشعوره ، حتی لنكاد ننسى أمامها أنفسنا ، ونحس أننا قد نقلنا إلى میدان آخر تصول فیه روح ساحرة قوية تروعننا بروعة فكرها ، وجدة بیانها وعظمة تأثيرها . . .

هذه صورة صغيرة لمعالم شخصية الجاحظ الخارجیة العجیبة التي كانت ملء سمع الزمان وبصره .

فإذا انتقلنا إلى النطاق الداخلى لشخصية الجاحظ ، وجدنا رجلا مقبلا على الحياة ، محبا لها ، مؤمنا بها ، يحترم العقل ويحمله ويحكمه فى كل شىء ، يميل إلى التفاؤل وينظر إلى الأمور نظرة دقيقة ، لاهى نظرة السوداءوى ، ولا نظرة العصبي ، يبدو عليه السرور وحب الدعاة وخفة الروح ، وتحس أنه من أعماق نفسه مطبوع على الظرف والفكاهة .

واقعى فى كل شىء ، يجرب الحياة والناس تجربة الخبير بالطباع والأخلاق ، يحاسن الكبراء فى غير إسفاف ، ويحتنب مخاشنتهم لأنه بعيد عن جوههم ، يحلم عن الأشرار بطبعه ، ويبتعد عن الحاسدين ويزيدهم حسداً .

لطيف المعشر ، حلو الحديث ، حسن المحاضرة ، سريع النسيئة ، ساخر عميق السخرية<sup>(١)</sup> ، كثير الوفاء لأصحابه ، صقلت شخصيته بمواهب كثيرة جعلت منه رجل العصر ، الذى يعجب به الصغير والكبير ، والجاهل والعالم على السواء .

وهو إلى ذلك كله محب للمو وسماع القيان والمغنين<sup>(٢)</sup> ، يتعشق الحسناوات<sup>(٣)</sup> ، ويحب الجمال ، ويؤمن بالإنسان ، لا يأنف إلا مما يضيع الوقت سدى ، فالوقت عنده أثنى من المال<sup>(٤)</sup> فهو لذلك يحرص عليه أشد الحرص وأبلغه .

لم يكن بالمتزمت ولا المتنسك ، ومع ذلك كان يحب مثل الحياة وقيمها ، ويعتز بالإنسان وبكرامته فى الحياة ، لم يعرف عنه أنه قارف إثما ، أو ارتكب ذنبا .

---

(١) راجع ٢ : ٣٣٣ و ٣٣٤ أمراء البيان .

(٢) ١٩٠ رسائل الجاحظ .

كان ميالا إلى رحابة الخلق ، وسعة الأفق ، وفيه أنانية ، يحب المدارة ، ولا يجامر بالخصومة ؛ ذا قلب كبير ، وشعور حي ، ونفس راضية .

وكان الجاحظ قبيح المنظر ، مشوه الوجه ، ناتئ العينين ، أسود اللون ، مختل القسبات ، ولبشاعة منظره لم يرتضه المتوكل لتأديب أبنائه (١) ، ويكثر في كلامه ذكر الحسد والحساد ، مما يدل على شعوره بحسد الناس له لتفوقه العقلي والعلمي ؛ وقد كره الوظائف وعاش حرا طليقا بعيدا عن قيودها .

كان من أحرار الكتاب ، وكانت حياته من كتبه التي درت عليه في أخريات أيامه المال الكثير ، فضلا عما كان يصله من رواتب ومكافآت وجوائز وعطايا ومنح تنال عليه في مختلف المناسبات ، وهذا ي تقدم إليه من الخلفاء والوزراء والأمراء وأصحاب السلطان وفي مقدمتهم البرامكة والظاهرية وابن الزيات وابن أبي دؤاد والفتح بن خاقان وسواهم . .

وما أكثر ما كانوا يكلفونه بكتابة رسائل معينة ، حيث كانت كتبه ورسائله أشبه بالصحف السيرة اليوم ، وكان أبو عثمان أقرب الناس إلى كتابة الصحف في هذا العصر . . كان طلق العقل ، حاد القلم ، ولم يعرف أديب ، لقيت مؤلفاته من الشهرة والذيع ما لقيته كتب الجاحظ على كثرتها وتنوع المقاصد والأغراض فيها ؛ ولم تخل أيدي الناس من كتبه ، ولا مجالس العلماء ومحافل الأدباء من الثناء عليه ومن الجدل حول آرائه ومعانيه وصنوف بلاغاته ، وبلاغته وهي مضرب الأمثال كانت مدرسة يتخرج فيها ضروب

---

(١) ٣ : ١٤١ وفيات الأعيان تحقيق محمد محي الدين ، ٤ : ١٠٠ و ١٠١

الشباب في ضروب الآداب والجدل والنظر والكلام ؛ وفيها يقول المسعودي (١) : لا يعلم ممن سلف وخلف من المعتزلة أفصح من الجاحظ ، وكان تلميذ النظام ، وعنه أخذ ، ومنه تعلم .

لقد صرف أبو عثمان عمره فيما يرفع من شأن العرب والمسلمين ، قصاره التجديد والبعد عن مزالق التقليد ، والتعرف إلى كل شيء معرفة ثاقبة ، كان يعمل على أن يتقى شر الناس ، ولقد خلق ناقدا وأديبا ، تراه وهو العربي القح تستهويه حكمة العرب وآدابهم أكثر مما تستهويه حكمة اليونان والهند وفارس . . . ولم تورثه شهرته العلمية زهوا أو غرورا أو كبرياء وتعاليا على الناس . . .

## الفصل الثاني

### ثقافة الجاحظ

- ١ -

كانت ثقافة أبي عثمان الجاحظ ثقافة واسعة منوعة ، تحيط بسائر الألوان المعرفة الذائعة في عصره ، فهو عالم من علماء الدين ، ومتكلم من الطراز الأول للمتكلمين ، وبخاتة في اللغة وبيانها وآدابها ، وقد خاض في بحار العلوم والمعارف ؛ ما كان منها عربيا أصيلا ، وما كان مترجما منقولا من الأمم الأخرى ، وكانت عقليته عميقة تغور ، بعيدة المنزع ، أفادت من مناج « النظام » ومن الحكمة والفلسفة اليونانية ، والآداب الفارسية والهندية ؛ كما أفادت من تراث عصر الجاحظ وآدابه ؛ وكان له شغف كبير بالبحث ، وعكوف طويل على الدراسة ، ونشأته بالبصرة ، وتلقيه عن العلماء في حلقاتها الذائعة ، ومجامعها الحافلة ، وعن رواة المسجدين والمريدين ، وعن الأعراب ، وجلوسه إلى أمثال النظام والأصمعي وابن الأعرابي وأبي عبيدة وأبي زيد الأنصاري وقطرب والآخرين ، وسواهم . كل هذه العوامل والمؤثرات ، فضلا عن مواهبه وتجاربه وأثر مشاهدته في رحلاته العديدة ، كان لها أضخم الأثر في ثقافة الجاحظ الواسعة الجوانب ، المتعددة الألوان .

وهذا الاتساع وتنوع ، وكثرة روايته في تأليفه ، جعلت كثيرا من لا يفهمون الجاحظ ، يحسبونه كاتباً لا شخصية له ؛ تطمس شخصيات من يروى لهم ، وينقل عنهم ، كل أثر لشخصيته ، فتقرأ الجاحظ وأنت تقرأ

لسواه ، وتبدو أمام عينك صور مختلفة لرجال لا ترى الجاحظ فيهم ، ولا تلمس آثاره بينهم .

هكذا قالوا ، ومن ذهبوا إلى ذلك أحمد أمين في ضحى الإسلام ، وغيره . . وهذا خطأ واضح ، فإن الجاحظ من الخاصة في فكره وكتابته وأسلوبه ، وفي بحثه وتأليفه ، فإذا فكر فبعقل الخاصة يفكر ، وإذا كتب أو ألف فبأسلوبهم ، ولمن يفكر في مجالهم ، وليس ذلك لأن الجاحظ يتكلف الغموض ليتعب الناس في فهمه ، و « يستمسك بفائدته ويضن بما عنده غيرة على العلم ، وشحا بشمرة الفهم ، ولذلك كان كتابه « البيان والتبيين » موقوفا على أهله ومن كرع في حوضه ، أما الجاهل والمبتدئ فلا تقع له من كتابه ، كما يقول ابن شهيد (١) . . إنما ذلك لأنه - كما أرى - لا يستطيع إلا أن يفكر تفكير الخاصة ، ويكتب بعقلهم وأسلوبهم ، ولأنه رجل يكتب لنفسه قبل كل شيء ، ويرضى شهرته في تدوين عناصر الثقافة الأدبية والعلمية على طريقة كتاب الموسوعات ، كما يرى بعض الباحثين (٢) .

وما دام الجاحظ كذلك فلن يستطيع أن يفهمه إلا رجل مثله في فكره واتجاهاته وثقافته ، ولن يتسنى لكثير أن يفهموا الجاحظ ، وأن يؤمنوا بشخصيته في كتبه ومؤلفاته ، داموا لا يستطيعون مجاراته في نواحي ثقافته العقلية والأدبية . وظهور شخصية أبي عثمان كذلك في أدبه وكتاباته ، مما لا يقبل الريب ، ولا يعيا عن تبينه إلا أولوا الغباء .

والثقافة العربية مصدر أصيل في ثقافة الجاحظ العامة ، ومنبع غزير من منابع علمه وألمعيته وموسوعيته وعبقريته ، ولم تقف معارفه عند حد

(١) ١ : ١٩٨ الذخيرة لابن بسام .

(٢) ٢ : ٤٩ النشر الفني لركي مبارك .

المنقول ، بل تعدته إلى الأخذ من كل معقول ؛ نبغ في الجدل والبحث والكلام والمناظرة وفي الفقه والحديث ، وكذلك نبغ في اللغة والأدب والشعر والنقد والبلاغة وغيرها . فكان « عالما فوق العلماء (١) » ، وإماما من أئمة الأدب ، وكاتباً من أعظم كتّاب العربية ، ومؤلفا ليس له نظير في تاريخها الطويل .

وكان الجاحظ يبتكر ويجدد ويطرق نواحي مجهولة من جوانب الثقافة العربية ، فكتب في الطب والكيمياء والظواهر الجوية والطبيعية والأخلاق وعلم النفس ؛ وألف في المعادن والأصباغ ، كما ألف في التجارة (٢) والاقتصاد وفي النبات والحيوان ، وله معارف بحرية غزيرة (٣) . وكانت هذه الموضوعات جديدة في الثقافة العربية ، وتعتمد الكتابة عليها على مصادر غير عربية وعلى معارف كثيرة عربية ، وقد تمكن الجاحظ بعمق ثقافته من أن يستخدم كل المصادر الأصلية في بحوثه ، وأن يتخذ من الشعر الجاهلي والإسلامي ، ومن أقوال البلغاء ، وحكم الحكماء ، ومن القرآن الكريم والحديث الشريف ، ومن كلام الرواة ، وتجارب العامة ، وخبرة أولى الخبرة ، مواد غزيرة تعينه في التفكير والاستنباط والترجيح والرأي والتجديد ، ففي علم النفس مثلاً نجد للجاحظ كتابات مفرقة ذات أصالة علمية ، ومناهج في الكشف عن أعماق النفس وسر أغوارها ، وهو حين يكتب في ذلك يرجع إلى كل المصادر العربية ، كما أنه « قرأ ما كتبه اليونان في النفس والأخلاق (٤) » ومن أصالته العلمية ، وعقليته العجيبة أن يكتب في الكيمياء رسالة ليست موجودة اليوم ، بل مفقودة ، ولا ندرى ماذا كتب فيها ، ولفيدمان بحث عن الكيمياء القديمة عند الجاحظ (٥) .

(١) ٣٩٠ : ٢ أمراء البيان . (٢) ٤٠٣ : ٢ المرجع .

(٣) راجع ٢٦٢ : ٣ الحيوان . (٤) ١٢٨ : ٣ ضحى الإسلام .

(٥) ١١١ : ٣ بروكلمان

وهكذا ترى أبا عثمان لا يقف في دراساته عند القديم من الثقافة العربية ، بل يطرق أبواب كل جديد من الثقافات ، فيكتب فيه بعمق و غزارة وسعة . ومن كان يظن أن الرجل الذي يكتب في علوم الدين ، والجدل والرد على المخالفين ، وهو في أصله إمام ديني ، وشيخ من أعلام الشريعة ، يؤلف أيضا في الحيوان وفي الزرع وفي الشجر والنخل ، وفي كل ما يعرض له كذلك من موضوعات سياسية واجتماعية وأخلاقية واقتصادية وأدبية من كان يظن أن للجاحظ كتابا في الأمصار ومعائب البلدان رآه المسعودي ، ووصفه بأنه في نهاية الحسن ، وقال : إن الرجل وإن كان لم يساك البحار ، ولا أكثر الأسفار ، ولا تقرى الممالك والأمصار ، إلا أنه قد أجاد ، وهذا القول عجيب ، فإن الجاحظ كما أسلفنا قد طاف بأرض العراق وفارس والشام والجزيرة والروم وبلاد العرب (١) .

وتمتاز ثقافة الجاحظ بالغزارة ، والاستفاضة والموسوعية ، والاستطراد ، وقد حذا حذوه في هذا المجال جميع الأدباء والعلماء في مختلف العصور ، كابن قتيبة (٢١٣ - ٢٧٦ هـ) في كتابه «عيون الأخبار» ، والمبرد (٢١٠ - ٢٨٥ هـ) في كتابه «الكامل» ، وابن طيفور (٢٠٤ - ٢٨٠ هـ) في كتابه «اختيار المنظوم والمنثور» ، وابن عبدربه الأندلسي (٢٤٦ - ٣٢٨ هـ) في كتابه «العقد الفريد» ، والصولي (٣٣٥ هـ) في كتابه «الأوراق» ، والشعابي (٣٥٠ - ٤٢٩ هـ) في كتابه «يتيمة الدهر» ، والبيهقي في القرن الرابع الهجري في كتابه «المحامن والمساوي» ، والعميري (٧٥٠ - ٨٠٨ هـ) في كتابه «حياة الحيوان الكبرى» ، وسراهم من أمثال: ابن الفقيه الجعفي ، والقزويني (٦٨٢ هـ) .

وقد كانت الثقافة العربية الأصلية والمقتبسة ، التي تجلت في كتب الجاحظ .

---

(١) راجع مثلا ٢ : ٤٠٧ أمراء البيان لمحمد كرد علي

دليل عبقرية واضحة ، والمعمية فكرية عميقة ، ومنظماً لثقافة الجاحظ الموسوعية ، التي أثرت في الثقافة العربية تأثيراً كبيراً ، وقربت الفلسفة والعلوم إلى كل ذهن وعقل ، فقد صاغها الجاحظ صياغة أدبية عالية ، مزج فيها كلام أرسطو بأشعار الجاهليين ، وأقوال الفلاسفة بأقوال الأدباء ، وجعل اللغة العربية لغة الحياة المتجددة المتطورة ، التي تنطق بكل علم ، وتعبّر عن كل فكرة ، وتحتفي بكل فن .

وهكذا اتسعت هذه الثقافة الجاحظية لكثير من ضروب المعرفة (١) ، حتى عد أوسع أهل زمانه ثقافة (٢) ، لأنه كان أكثرهم اطلاعاً على أنواع المعارف في عصره ؛ فهو في الأدب مطلع على ألوانه ومذاهبه وأخبار أعلامه وآثار عبقرتهم ، وفي العلوم الدينية متضلّع في كل لون ، متعمق في كل مادة ، فهو مرجع في القرآن والحديث والمذاهب الكلامية ، كما كان في الثقافة اليونانية خبيراً بها ، مطلعاً على دقائقها ؛ وهكذا حوى عقل الجاحظ كل ثقافات عصره ، وقل أن كان له في ذلك نظير ، وهذه الغزارة والموسوعية فاق فيها الجاحظ أقرانه وأساتيده (٣) .

وكان الجاحظ حجة في كثير من العلوم والمعارف ، ومن قراءاته في كتب فلاسفة اليونان ، وحكّاء الهند ، وبلغاء الفرس ، ونظيره في ثمرات قرائتهم ، وفي الجديد مما ابتكرته أذهانهم ، كانت ثقافات الجاحظ الواسعة المحيطة ، التي جعلت منه مفكراً موسوعياً ، ومن كتبه دوائر معارف حية ، فوعى في صدره دقائق المسائل في الدين والعلم والفلسفة والأدب ، حتى ليقول ابن الإخشيد المعتزلي (٥٣٢٦ هـ) : « كان أبو عثمان من أصحاب النظام ، وكان واسع العلم بالكلام ، كثير التبصر فيه ، شديد الضبط لحدوده ، ومن

---

(١) ٣ : ١٢٨ ضحى الإسلام .

(٢) ٣ : ١٣١ المرجع .

أعلم الناس به وبغيره من علوم الدين والدنيا ، وله كتب مشهورة جليلة في  
نصرة الدين ، وفي حكاية المخالفين ، وفي الآداب والأخلاق ، وفي ضروب  
من الجد والهزل ، وقد تداولها الناس وقرأوها وعرفوا فضلها ، وإذا تدبر  
العاقل المميز أمر كتبه علم أنه ليس في تلقيح العقول وشحن الأذهان ، ومعرفة  
أصول الكلام وجواهره ، وإيصال خلاف الإسلام ومذاهب الاعتزال  
إلى القلوب ، كتب تشبهها . والجاحظ عظيم القدر في المعتزلة وغير المعتزلة  
من العلماء الذين يعرفون الرجال ويميزون الأمور ، (١) .

ولم يترجم كتاب إلى العربية إلا قرأه أبو عثمان واستظهره ، فوق  
ما استظهر من مؤلفات عربية ، وكان أبو هفان المهرزي البصري الراوية  
يقول : « لم أرقط ولا سمعت من أحب الكتب والعلوم أكثر من الجاحظ ،  
فإنه لم يقع بيده كتاب قط إلا استوفى قراءته ، كأننا ما كان ، حتى إنه ليكثرى  
دكاكين الوراقين ، ويبيت فيها للنظر ، وكان كثير الحفظ ، واسع الرواية ،  
قوى الحججة ، ناصع البرهان ، وأقرب ما يوصف به أنه كان دائرة معارف  
تبلورت فيها ثقافات عصره (٢) ، وكان أبو هفان يقول : لم أرقط ولا سمعت  
من أحب الكتب والعلوم أكثر من الجاحظ ، والفتح بن خاقان ، واسماعيل  
ابن اسحاق القاضي (٣) .

وكان الجاحظ لا يحرص على ثقافات الملوك من النسب والخبر وجل  
الفقه (٣) وطرائف الأدب بقدر حرصه على ثقافة الشعب ، وعلى كثرة  
ما خاض غماره من العلوم والدراسات لم يكتب في الموضوعات التاريخية ،  
بالمناهج الذي كتب به مؤرخو عصره ، بل كان التاريخ الذي شغل قلبه وقلبه

---

(١) راجع ٤١ أدب الجاحظ

(٢) راجع ١٦ : ١٧٤ معجم الأدباء

(٣) ٣ : ٣٧٤ البيان والتبيين

وصف الناس والمجتمع والشعب ، لم يعن بالملوك وأخبارهم كما عنى بتصوير الحياة الاجتماعية في عصره ، فهو المؤرخ الاجتماعي للعصر الذى عاش فيه ، يورد لك من مشاهداته ورواياته ما يوسع أفق نظرك ، ويفقّمك بالعصر وأهله ، ولم يعن بالتاريخ السياسى لأنه أدب الشعب ، ولم يكن مؤرخ الملوك لأنه رأى التاريخ السياسى ضيق الجوانب فأرخ الأمة ، والكلام فيها واسع المجال (١) .

وكذلك الأمر فى الفلسفة ، قرأ ما ترجم وكتب فى عصره ، فلم يقف مع الفكر الفلسفى مادحا ، بل ناقدا ، فطبق العلوم الاجتماعية والمادية وعلوم الحياة والأحياء على النظر الفلسفى ، واهتم بروح الفلسفة ، مبتعداً عما قد يكون فيها من خيال ومحال ، فقد كانت نزعة الفلسفية نزعة عملية لانظرية ؛ وما تعدى فى الإلهيات حد المنطق المتفق الصحيح ، والمصادر السليمة (٢) .

وكان اتساع أبى عثمان فى اللغة لا يشبهه اتساع اللغويين ، استبطن من أسرارها ما يقل استبطن مثله على غيره ، وعرف طوائف من الألفاظ تصلح فى الأدب ، وأخرى تصلح فى الزراعة ، وغيرها للصناعات وأعمال الحياة ، وغيرها للمسائل الدينية ؛ عدا ما خص بمعرفة من الألفاظ الصالحة لكل شأن ، وكان جد عارف بما يختار وي طرح من كل شيء .

والعجب فى مصادر الجاحظ الثقافية ، أنه لم يقف عند مصدر واحد ، بل رجع إلى كل ما أمكنه الرجوع إليه من مصادر ، فأسانذته ومطالعاته فى المكتب المترجمة وغير المترجمة ، ثم تجاربه ومعايناته ومشاهداته ، ثم مشافهته الأعراب فى جزيرة العرب وفى المربد (٣) ، ثم ما كان يأخذه من

---

(١) ٢ : ٤٠٤ أمراء البيان

(٢) ٢ : ٤٠٥ المرجع

(٣) ١٦ : ٧٥ معجم الأدباء

رواة الأدب واللغة ، ومن أفواه الخبراء وجماهير الناس ، وما كان يتلقفه في مجالس الملوك والأمراء ، وفي حلقات المسجدين والمريدين وفي اجتماعات الناس ، وغير ذلك من كل طريف وجديد .

كل ذلك كان جزءاً من مصادر ثقافته ، ومنابع معارفه الغزيرة وما أكثر ما أخذ الجاحظ من أصدقائه ومن رجال الدولة وأقطابها ، ومن العلماء والأدباء والشعراء والسكرتار ، ومن الأعراب واللغويين ، ومن أرقى طبقات الناس وأدناها ، فهذا صديقه إبراهيم بن السندی مثلاً ، الذي يقول فيه الجاحظ : إنه كان مولى أمير المؤمنين ، وكان عالماً بالدولة ، شديد الحب لأبناء الدعوة ، وكان يحوط مواليه ، ويحفظ أيامهم ، ويدعو الناس إلى طاعتهم ويدرسهم مناقبهم ، فكان نغم المعاني ، نغم الألفاظ ، لو قلت إن لسانه كان أرد على هذا الملك من عشرة آلاف سيف شهير ، وسمان طير ، لكان ذلك قولاً ومذهباً ، ويقول فيه (١) : كان رجلاً لا نظير له ، وكان خطيباً وكان ناسباً ، وكان فقيهاً ، وكان عروضياً ، وحافظاً للحديث راوية للشعر ، شاعراً ، وكان نغم الألفاظ شريف المعاني ، وكان كاتب القلم كاتب العمل ، وكان يتكلم بكلام رؤبة ، ويعمل في الخراج بعمل زاذان فروخ الأعور ، وكان منجماً طبيباً ، وكان من رؤساء المتكلمين ، وعالماً بالدولة ورجال الدعوة ، وكان أحفظ الناس لما سمع ، وأقلهم نوماً ، وأصبرهم على السهر ؛ هذه مكانة إبراهيم ، والجاحظ لا يعني به لأنه من رجال الدولة ، بل يعني بأخباره الثقافية وآرائه في ضروب الآداب فينقل ويروى عنه كثيراً في البيان والتبيين وفي الحيوان .

وهكذا كان الجاحظ مع كل الناس ، يتخذ من كل أحد منهم مصدراً

من مصادره ، ويعرف لكل منهم منزلته ومكانته في العلم والأدب فلا يتجاوز بهم قدرهم ، ولا يقبل منهم شيئاً إلا إذا أيدته العقل وآزره الامتحان والتجربة ...

وإذا كان أساتذة الجاحظ هم جزءاً أصيل من ثقافته ، فإننا لاضير علينا في أن نقف بالجاحظ مع بعض أساتذته وقفات قصارا ، نلبين فيها مدى أثرهم فيه ، ومدى رأيه فيهم ، لنكون على خبرة بالرجل ودراية بمنزلته بين شيوخه وشيوخ عصره ...

### الجاحظ والخليل بن أحمد :

الخليل بن أحمد الأزدي البصري ( ١٠٠ - ١٧٥ هـ ) إمام من أئمة اللغة وشيخ من أكبر شيوخها ، وهو مفخرة للعقل العربي ، وعليه تتلمذ سيبويه ( ١٤٥ - ١٨٠ هـ ) (١) ، وأبو فيد السدوسي ( ٢٠٤ هـ ) صاحب النوادر من اللغة والأنساب (٢) ، والنضر بن شميل ( ٢٠٣ هـ ) (٣) ، وقطرب ( ٢٠٦ هـ ) وكان مؤدباً الأمين ، وهو معتزلي يتبع النظام ، وله كتاب « الأزمئة » (٤) ، والجاحظ ، وكذلك أبو عبيدة ( ١٢٥ - ١٢٠ هـ ) ، وسواهم ..

(١) راجع ١ : ٢٧٨ العبر للذهبي ، ١٣٤ - ١٣٧ : ٢ بروكلمان

(٢) ١ : ٣٤٢ العبر ، ١٣٧ : ٢ بروكلمان

(٣) المرجع السابق

(٤) منه نسخة مكية ، ونسخة مصورة في الجامعة العربية ، وكنت قد قمت بتحقيقه أنا وأحمد عبد الغفور عطار الحقوقي في مكة المكرمة ، وأخذ التحقيق معه ولم يطبع حتى الآن . وكنت حاولت طبعه في القاهرة ولم تظهر منه غير ملزمة واحدة ، وفي ض ١٦ يذكر رواية هذا الكتاب وهو محمد بن الجهم أن قطرباً أملى الكتاب عليه عام ٢١٠ هـ ، وهذا يناقض ما هو معروف من أن قطرباً توفي عام ٢٠٦ هـ ، وقد نشر جزء كبير من كتاب « الأزمئة » في مجلة المجموع العلمي العربي بدمشق عام ١٩٢٠ م

والخليل هو مبتكر علم العروض العربى ، وهو الذى اهتدى إلى قواعد النحو التى دونها سيبويه فى كتابه ، فهو المؤسس الحقيقى لعلم النحو الذى تلقاه سيبويه منه ، وأخذه عنه ، وقد اشتق النحو العربى من المعية الخليل ، ومن مواهبه العقلية العربية المحضنة (١) .

وللخليل فضل وضع أول معجم لغوى عربى ، وعزاعم المشتشرقين - فى أن الخليل اتبع فى ترتيبه لكتاب « العين » ما كان يتبعه علماء النحو فى اللغة السنسكرىتية من البدء بحروف الحلق والانتهاى بحروف الشفة (٢) - مجرد حدس لا دليل لهم عليه . . . وكذلك ابتكر شكل الحروف وعلامات القراءة فى اللغة العربية .

تتلذذ الجاحظ على الخليل ، واقتبس من علمه ، ومع ذلك نقده ، وكان النظام ينقد كذلك الخليل ، ويقول فيه : توحد به العجب فأهلكه ، وصور له الاستبداد صواب رأيه ، فتعاطى ما لا يحسنه ، وفتنفته دوائره التى لا يحتاج إليها غيره (٣) ، وكان النظام إذا ذكر الوهم لم يشك فى جنونه وفى اختلاط عقله (٤) ؛ ويقول الجاحظ فى الخليل : غر الخليل حين أحسن فى النحو والعروض ، فظن أنه يحسن الكلام فى الإيقاع وتأليف اللحون ، فكتب فيهما كتابين ، لا يشير بهما ولا يدل عليهما إلا المرة المحترقة ، ولا يؤدى إلى مثل ذلك إلا خذلان من الله (٥) ، ويقول الجاحظ كذلك : إن الخليل من أجل إحسانه فى النحو والعروض وضع كتابا فى الإيقاع وتراكيب الأصوات

---

(١) ٢ : ١٢٤ بروكلمان .

(٢) دائرة المعارف الإسلامية مادة « الخليل » .

(٣) ٧ : ١٦٥ الحيوان . (٤) ٧ : ١٦٦ الحيوان .

(٥) ١ : ١٥٠ الحيوان ، وللخليل كتاب الإيقاع وكتاب النغم ( ٧٤ و

٧٥ ج ١١ معجم الأدباء لياقوت ) .

وهو لم يعالج وترا قط (١)، ويقول: إن الخليل كتب كتاباً في الكلام ولولا أن أسخف الكتاب وأهجن الرسالة (٢) لحكيت صدر كتابه في التوحيد وبعض ما وضعه في العدل (٣) . .

ويبدو أن هجوم إمامين من أئمة المعتزلة: النظام والجاحظ على الخليل إنما كان بسبب آرائه في كتابه في «الكلام»، والظاهر أن الخليل نقد المعتزلة في هذا الكتاب فنار المعتزلون عليه . . أما موقف الجاحظ من علم العروض فقد ذمه مرة ومدحه أخرى، قال في مدحه: «ميزان الشعر ومعياره، وبه يعرف الصحيح من السقيم، والمعتل من السليم، وبه يسلم من الأود والكسر». وقال في ذمه: «علم مردود، ومذهب مرفوض، وكلام مجمول، يكبد العقول، بمستفعلان ومفعول، من غير فائدة ولا محصول» وهجوم الجاحظ على تأليف الخليل في «الإيقاع» قد يكون لونا من التحامل، فهذا ياقوت يقول في كتابه «معجم الأدباء»: كانت معرفة الخليل بالإيقاع هي التي أحدثت له علم العروض (٤) .

### الجاحظ والأصمعي :

كان الأصمعي (٥) (١٢٢ - ٢١٦ هـ) من أعلام اللغة والأدب والشعر، وهو من أعلام البصرة ومفاخرها، وكان يحفظ ثلث اللغة، وقال الإمام

(١) ٤ : ٣٢٤ مروج الذهب للمسعودي .

(٢) يقصد الجاحظ رسالة «تفضيل صنعة الكلام» وهي الرسالة الهاشمية، وهي إحدى رسائل الجاحظ .

(٣) ٤ : ٣٢٤ المسعودي، وكذلك نقد الجاحظ ابن المقفع بأنه ترك البلاغة والحكمة وإخترع المعاني إلى البحث في الكلام (٢ : ٣٧٢ أمراء البيان)

(٤) ١١ : ٧٤ معجم الأدباء .

(٥) أو ١٢٨ هـ كما ذكر الذهبي (١ : ٣٧٠ العبر) .

الشافعي فيه : ما عبر أحد أحسن من عبارة الأصمعي ، وقال أبو نواس : أنه بلبل يطرب الناس بنغماته ، وتتلذذ على أبي عمرو بن العلاء ( ٧٠ - ١٥٤ هـ ) ، وعلى خلف الأحمر ( ١٨٢ هـ ) ؛ وله كتب كثيرة ، منها كتاب «خولة الشعراء» ونشر بتحقيق لي (١) ، وكان يقول : وصلت بالعلم ونلت بالبح (٢) وهو من أساتذة الجاحظ ، والجاحظ يروى عنه كثيرا في كتبه ويحمله ، وكان الأخفش يقول فيه : لم أدرك أحدا أعلم بالشعر من خلف والأصمعي (٣) .

### الجاحظ وأبو عبيدة :

أبو عبيدة الشيباني الكوفي ( ١٢٥ - ٢١٠ هـ ) (١) ، وهو من أئمة اللغة في عصر الجاحظ ، ومن أساتذته ، وكان الجاحظ يحمله ، وروى عنه الكثير في كتبه ، وقال أبو فراس فيه : إذا أمكنوه قرأ عليهم أخبار الأولين والآخرين ، وقال الجاحظ فيه : طلبت علم الشعر عند الأصمعي فوجدته لا يحسن إلا غريبه ، فرجعت إلى الأخفش فوجدته لا يتقن إلا إعرابه ، فعطفت على أبي عبيدة فوجدته لا ينقل إلا ما اتصل بالأخبار وتعلق بالأيام (٥) . وكان الغريب وأخبار العرب وأيامهم أغلب عليه وكان يرى رأى الخوارج ، ويقول فيه الجاحظ : لم يكن في الأرض خارجي

---

( ١ ) وهو تقييمات كتبها أبو حاتم السجستاني من أجوبة الأصمعي أسأله عن أسئلة سأله إياها .

( ٢ ) ١ : ١٩٩ البيان والتبيين ، ١ : ١٦٠ زهر الآداب .

( ٣ ) ١١ : ٦٧ معجم الأدباء .

( ٤ ) ١ : ٣٥٨ العبر للنهبي ، ويروى ياقوت أنه توفي عام ٢٠٨ هـ ( ١٥٤ : ١٩ معجم الأدباء ) .

( ٥ ) ٢ : ٨٤ العمدة لابن رشيق .

ولا إجماعى أعلم بجميع العلوم منه (١) .

ويقول الجاحظ : إن أبا عبيدة كان يقدم قصيدة في وصف المطر على قصيدة أوس بن حجر المشهورة ، ويستدرك الجاحظ فيقول : وأنا أتعجب من هذا الحكم (٢) . . ولا يرضى الجاحظ بأحكام أبي عبيدة النقدية فيقول في موضع آخر : ولقد رأيت (٣) أبا عبيدة الشيباني يكتب أشعارا من أفواه جلسائه وربما خيل إلى أن أصحابها لا يقولون الشعر ، وقد (٤) بلغ من استجداته للبيتين :

لا تحسبن الموت موت البلى وإنما الموت موت الرجال  
كلاهما موت ولكن ذا أشد من ذاك على كل حال (٥)

ونحن في المسجد يوم الجمعة أن كلف رجلا حتى أحضر دواة وقرطاسا حتى كتبها له ، وأنا أزعم أن صاحب هذين البيتين لا يقول شعراً أبدا ، ولولا أن أدخل في بعض القيل لزعمت أن ابنه لا يقول شعراً أيضا ، ولولا (٦) أن أكون عيايبا وللعلماء خاصة لصورت لك بعض ما سمعت من أبي عبيدة ومن هو أبعد في وهمك من أبي عبيدة (٧) .

---

(١) ١ : ٢٢٤ البيان والتبيين .

(٢) ٦ : ١٣١ الحيوان .

(٣) ٤ : ٢٤ البيان والتبيين نشر الخانجي .

(٤) ٣ : ١٣١ الحيوان .

(٥) هما لمطارف بن عبد الله البصرى (٩٥ هـ) .

(٦) البيان ٤ : ٢٥

(٧) راجع ترجمته في ١٥٤ - ١٦٢ : ١٩ معجم الأدباء . .

### الجاحظ. والأخفش :

الأخفش الأوسط البصري (٢١٥ هـ أو ٢٢١ هـ) أعلم الناس بالنحو وبالكلام ، وأحذقهم بالجدل (١) ، وهو من أصل خوارزمي ، وكان الجاحظ دميم الوجه قبيح التقاطيع ، مختل القسيمات ، نأى العينين .

وكان الأخفش (٢) أجمع (٣) ، وكان الشيخ وتلميذه إذا اجتماعا تألفت منهما صورتان غريبتان ، وكان الجاحظ يألف أستاذه لبعض المشاكلة في الصورة والخلق .

ويقول الجاحظ : قلت لأبي الحسن الأخفش : أنت أعلم الناس بالنحو ، فلم لا تجعل كتبك مفهومة كلها ، وما بالناس نفهم بعضها ولا نفهم أكثرها ، وما بالك تقدم بعض العويص وتؤخر بعض المفهوم ؟ قال : أنا رجل لم أضع كتبى هذه لله ، وليست هى من كتب الدين ، ولو وضعتها هذا الوضع الذى تدعونى إليه قلت حاجتهم إلى فيها ، وإنما قد كسبت فى هذا التدبير إذ كنت إلى التكبس ذهبت ، ولكن ما بال النظام وفلان وفلان يكتبون الكتب لله بزعمهم ، ثم يأخذ مثلى - فى موافقته وحسن نظره وشدة عنايته - ولا يفهم أكثرها (٤) .

وينقل الجاحظ عن أبى الحسن الأخفش الكثير من الروايات فى كتبه ،

---

( ١ ) ١١ : ٢٣٠ معجم الأبناء .

( ٢ ) الأخفش : الصغير العينين من سوء بصره ، وراجع ترجمته فى

٢٢٤ : ١١ معجم الأدباء .

( ٣ ) أى لا تتضمن شفاة على أسنانه .

( ٤ ) ١ : ٩١ و ٩٢ الحيوان .

كما نقل عن محمد بن سلام (٢٣١ هـ) وعن العتبي البصري (٢٢٨ هـ) الأخبارى (١) الذى نقد رواياته (٢) .

هذا هو موقف الجاحظ من الثقافة العربية ومن أسانذته فيها ، وإحاطته بكثير من مسائلها ومشاكلها فى عصره .

- ٣ -

وللثقافة الفارسية نصيبها كذلك من ثقافات الجاحظ ، وقد اتصل أبو عثمان بالثقافة الفارسية من عدة طرق :

( ١ ) مجتمع البصرة الذى تعيش فيه عناصر فارسية كثيرة ، وتذيع فيه كثير من الألفاظ واللهجات الفارسية ، التى أشار إلى بعضها الجاحظ . فى أوائل الجزء الأول من كتابه «البيان والتبيين» ، وكان بعض أدباء البصرة من أصول فارسية ، ومنهم بشار (١٦٧ هـ) ، وأبو نواس (١٩٨ هـ) ، وأبو العتاهية (٢١١ هـ) ، والحسن بن سهل (٢١٥ هـ) ، وكذلك كان سيبويه (١٨٨ هـ) . وكان البرامكة والظاهرية وغيرهم من العناصر الفارسية يعملون على تشجيع ونشر ثقافة أمتهم ، حتى صارت عنصرا من عناصر الثقافة الأدبية الأساسية .

ويذكر الجاحظ موسى بن سيار الأسوارى وأنه كان من أعاجيب الدنيا ، وكانت فصاحته بالفارسية فى وزن فصاحته بالعربية ، وكان يجلس فى مجلسه المشهور به - فى البصرة طبعاً - فيقرأ الآية ويفسرهما للعرب بالعربية ، وللفرس بالفارسية ، فلا يدرى بأى لسان هو أبين . .

(ب) الترجمات العربية للسكتب الفارسية التي نقمها أمثال : ابن المقفع وآل نوبخت ، وموسى ويوسف ابني خالد ، وبهرام بن مردانشاه ، وعلى بن زياد التميمي ، والحسن بن سهل ، وجبله بن سالم ، وإسحاق بن زيد ، ومحمد ابن الجهم البرمكي ، وهشام بن القاسم ، وموسى بن عيسى الكسروي ، ومحمد ابن بهرام الأصفهاني وغيرهم (١) .

ومما ترجم من الفارسية على يدى ابن المقفع : كتيبة ودمنة ، وكتاب التاج في سيرة أنوشروان ، وكتاب خدائنامة وهو كتاب في تاريخ الفرس من أول نشأتهم إلى آخر أيامهم ويعتمد عليه الطبري في تاريخه ، وحمزة الأصفهاني في كتابه « سنى ملوك الأرض والأنبياء » وقد سماه ابن المقفع « تاريخ ملوك الفرس » وكذلك كتاب « آيين نامه » وهو وصف للنظم الفارسية (٢) .

وترجم جبله كتاب رستم واسفنديار في السير (٣) ، وترجموا كذلك كتاب « اليتيمة » و « الأدب الكبير » و « الأدب الصغير » و « أهازار فسانة (٤) » وعمد أردشير ، وتوقيعات كسرى ، وكتاب أدب الحرب ، وأمثال بزرجمهر ، وغيرها ، ويقول الجاحظ : إنها مع كتب ابن المقفع مؤسسة لأدب السكاتب (٥) .

وقد استفاد الجاحظ من عمل بهرام وموسى بن عيسى الكسروي في الترجمة عن الفارسية ، وقد عمد إلى عدة نسخ من كتاب « خدائنامة » فأخرج

---

(١) ٢٤٤ الفهرست لابن النديم

(٢) ١ : ١٨٥ ضحى الاسلام

(٣) ٣٠٥ الفهرست

(٤) معناه ألف خرافة

(٥) ٣ : ١٠٣ بروكلمان

منها نصا محررا على مذهبه في النقد والترجيح ، ولكنه تناول نص الكتاب الأصلي مع ذلك بالتغيير ، وأضاف إليه كثيرا من مصادر فارسية أخرى (١) . ومن ترجم « خدائنامة » أيضا : محمد بن جهم البرمكي وزادويه الأصفهاني (٢) . ومن التراجم علان بن الحسن الوراق الشعوبي ، وكان في خزانة الحكمة في عصر الرشيد والمأمون (٣) .

ويقول الجاحظ في رسائله (٤) مخاطبا أحمد بن عبد الوهاب بطل رسالته « الترييع والتدوير » : جعلت فداك كيف حفظك لكتاب « كاوريد » (٥) ، وقد خبرني بعض المتكلمين أنه رأى بسيراف بجوسيا - فارسيا - يحفظه وهو في ألف جلد بخط مقارب (٥) ويذكر المسعودي في كتابه « التنبيه والأشراف » (٦) ، أنه رأى بمدينة اصطخر من أرض فارس سنة ٣٠٣ هـ عند بعض أهل البيوتات المشرفة من الفرس كتابا عظيما يشتمل على علوم كثيرة من علومهم وأخبار ملوكهم لم أجدها في شيء من كتب الفرس . ويقول عن كتاب « أفسستا » ، إن رجلا بسجستان بعد الثلاثمائة مستظهر بحفظ هذا الكتاب (٧) .

ويقول الجاحظ : من أحب أن يبلغ في صناعة البلاغة فليقرأ كتاب « كاروند » ، ومن احتاج إلى العقل والأدب فليظفر في سير الملوك (٨) ،

(١) ١٠٢ : ٣ بروكلمان (٢) ٣ : ٣٤ و ٣٥ بروكلمان

(٣) ٢٢٩ رسائل الجاحظ نشر السندوبي

(٤) في كتاب البيان والتبيين اسم كتاب « كاروند » (٣ : ١٤)

(٥) يذكر المسعودي أن ابن انقفع ترجم كتابا اسمه « الكيكيكين » من الفارسية الأولى إلى العربية ، وأن هذا الكتاب تعظمه الفرس لما تضمنه من

أخبار ملوكهم (١ : ١٠٩ مروج الذهب) (٦) ص ١٠٦

(٧) ١١٠ : ١ مروج الذهب (٨) ٣ : ١٤ البيان والتبيين

ويقول الجاحظ. عن الخطابة إنها موجودة عند جميع الأمم وأن الفرس  
أخطب الناس (١).

وأثر ثقافة الجاحظ الفارسية واضح في كتبه، وخاصة في كتابه «البيان»  
فهو ينقل فيه كثيرا من النصوص الفارسية في البلاغة والخطابة والبيان (٢).

وكان الجاحظ يعرف الفارسية (٣)، إذ يبدو (٤) أنه كان يتكلم الفارسية  
ويعرف نحوها وأدبها ويترجم منها فنراه يقول (٥) عن الزرافة: لما رأوا  
أن اسمها بالفارسية «اشتركا وبلنك» وتأويل «اشتر» بعير، وتأويل «كاو»  
بقرة، وتأويل «بلنك» الضبع الخ، وفي الحيوان (٦) فصوص من «كلىة  
ودمنة» تختلف عن نصوص ابن المقفع... بل كان الجاحظ يجيد اللغة  
الفارسية (٧).

وفي كتب الجاحظ نصوص فارسية تدل على معرفته بهذه اللغة، وهي  
كثيرة:

١ - يقول الجاحظ: وقع عبد الله بن طاهر (٢٣٠ هـ) «من سعى  
رعى ومن لزم المنام رأى الأحلام»، وهذا المعنى سرقة من توقعات كسرى  
«هرك روز جرد هرك خنبد جواب بيند» (٨).

(١) ١٢ و ١٣: البيان والتبيين

(٢) للدكتور إبراهيم أمين الشواربي بحث نشره في مجلة كلية الآداب (ح ٤  
ض ١٦٩ - ١٨٦) عن نصوص الجاحظ المتعلقة بالفرس وأخبارهم ولغتهم  
وعنوانه «بحث فيما نقله الجاحظ من أخبار الفرس في كتابيه «البيان» والحيوان»

(٣) ٢: ٣١٧ أمراء البيان - محمد كرد علي

(٤) ٢٠٠ التمدد انتهى عن الجاحظ - داود سلوم

(٥) ١: ١٤٢ الحيوان (٦) ٧: ٩٢ الحيوان

(٧) ٣١ أذب الجاحظ للسندوبى (٨) ٨٣ الحسن والأضداد

٢ - في لغتهم - الفرس - اسم للسلامة ، واسم لإرادة الخير وحسن المشورة وحمك بالرأى على الصواب ، فللنصيحة عندهم أسماء مختلفة إذا اجتمعت دلت على ما يدل عليه الاسم الواحد - النصيحة - في لغة العرب (١) .

٣ - وفي البيان ذكر لبعض الألفاظ الفارسية التي شاعت في البصرة (٢) وكذلك في الحيوان والبخلاء .

٤ - ويحكى الجاحظ في البخلاء كلام يحيل من أهل قرو تجاهل رجلا زاره من أهل العراق « لو خرجت من جلدك لم أعرفك » : قال الجاحظ : وترجمة هذا الكلام بالفارسية « اكر از پوست بارون بیائی نشناسم » (٣) .

كل ذلك يدل على أن الجاحظ كان يعرف الفارسية ، فضلا عن إلمامه بالثقافة الفارسية المترجمة . . وعن طريق هذه الثقافة اتصل أبو عثمان بالثقافة الهندية ، وقرأ فيها ، ونقل عنها ، وروى طرائفها في البلاغة والحكمة وغيرهما ، مما نراه ماثلا في كتابه الخالد « البيان والتبيين » .

ولقد اتصل الجاحظ بالثقافة اليونانية المترجمة ، وقرأ علومها من فلسفة وحكمة وطب وغيرها ، وكانت الثقافة اليونانية قد انتشرت في الشرق من عهد الاسكندر المقدوني من عدة طرق :

١ - المدارس والمراكز المبثوثة في الشرق وكانت مواطن لهذه الثقافة ،

---

(١) نص عن الجاحظ ( راجع ٤١ نوادر الجاحظ

(٢) ١ : ١٩ و ٢٠ البيان - نشر الخانجي )

(٣) ١٩ البخلاء طبعة قديمة ، ١٩ الجاحظ لمردم ، ١٨ البخلاء تحقيق

الحاجري ، والنص محذوف من طبعة البخلاء تحقيق الجارم

جنديسابور وحران والإسكندرية ، وآل بجنديشوع كانوا من أطباء جنديسابور ، ومن مدرسة حران خرج ثابت بن قره ( ٢٢١ - ٢٨٨ هـ ) وابن سنان الطبيب ، وكان من مدرسة الإسكندرية في القديم « أفلوطين » ( ٢٠٥ - ٢٦٩ م ) وقد انتشر مذهبه الأفلاطونية الحديثة في الشرق ، ومنها أطباء كثيرين كانوا في عصر الرشيد والمأمون .

٢ - اللغة السريانية ، فقد ترجم بعض النساطرة واليعاقبة النصارى السريان الكثير من كتب اليونان إلى السريانية ، فلما اتصلوا بالعرب كانوا هم البادئين بنقل الكتب اليونانية إلى العربية من لغتهم السريانية .

٣ - الترجمات العربية العديدة لأصول الثقافة اليونانية ، فقد ترجمت في عصر الجاحظ كتب أرسطو في المنطق وغيره ، وكتب المجسطى في الفلك ، والحكم الذهبية لفيثاغورث ، وبعض مؤلفات بقراط وجالينوس ، وكتاب السياسة المدنية لأفلاطون ، وقامت دار الحكمة في عهد الرشيد والمأمون في سبيل ذلك بجهود كثيرة ، وكان من المترجمين عن اليونانية : الحجاج بن يوسف بن مطر الوراق السكوفي ( ٢١٤ هـ ) ، وحنين بن اسحاق ( ١٩٤ - ٢٦٠ هـ ) ، وثابت بن قرد ( ٢٨٨ هـ ) ، ويوحنا بن ماسويه ، وابن البطريق ، وعمر بن القرحان ، وأبو سهل الفضل ، وسواهم .

٤ - المعتزلة ، فقد تعلم بعض المعتزلة اليونانية ، وعكفوا على دراسة كتب الفلسفة والمنطق ، واستمدوا منها القدرة على الجدل والحجاج والدفاع عن الإسلام وعلومه وثقافته ، وعن مذاهبهم في الاعتزال ، والبعض اطلعوا على ما ترجم إلى العربية من كتب اليونان وفلسفاتها ، ومنهم بشر بن المعتمر والنظام ، وأبو الهذيل العلاف ، والجاحظ ، ممن استخدموا الفلسفة اليونانية والمنطق اليوناني في تأييد نزع الاعتزال ، فأقوال كثيرة من أقوال

النظام والجاحظ بعضها نقل بحث من أقوال الفلاسفة اليونان ، وبعضها دخله شيء من التعديل (١) ، وكان تأثر المعتزلة بالفلسفة اليونانية أظهر في مدرسة بغداد منه في مدرسة البصرة (٢) ، وكان أبو الهذيل قد اقتبس مسائل كثيرة من الفلسفة اليونانية (٣) ، ويقول الشهرستاني : أن النظام طالع كثير آ من كتب الفلسفة وخالط كلامهم بكلام المعتزلة ؛ وكان الجاحظ خبيراً بالثقافة اليونانية ، مطلعاً على دقائقها ، فهو عالم بالطبيعيات والإلهيات كما يدل على ذلك كتاب الحيوان (٤) .

٥ — تشجيع بعض الخلفاء كالرشيد والمأمون ومن قبلهما المنصور ، على ترجمة كتب الفلسفة اليونانية ، وخاصة ما كان منها متصلاً بالطب .

٦ — وبت ترجمة الكتب الفارسية إلى العربية تسربت الثقافة اليونانية إلى لغتنا لأنها كانت قد عرفت عند الفرس من قبل .

وهكذا دخلت الثقافة اليونانية إلى العقل العربي ، وتأثر بها ، واصطبغت بسببها طريقة الجدل والبحث والتعبير بالمنطق الأرسطي ، وأصبح الأدباء والبلغاء والشعراء والمتكلمون حريصين على مطالعة الفلسفة والمنطق والإفادة منهما ، ودخلت هذه الثقافة الوافدة إلى الشعر على يدى أبي نواس وأبي تمام وغيرهما ، وحمل عليها ابن قتيبة في مقدمة كتابه أدب الكاتب ، كما حمل عليها البحتري في قوله :

كلفتمونا حدود منطقكم والشعر ، يغنى عن صدقه كذبه  
ولم يكن ذو القروح يلجج بال منطق : مانوعه ، وما سببه

ويقول ابن قتيبة إنه — أى طائفة من الكتاب قد شغفت بالنظر في النجوم والمنطق والفلسفة ، وعرفت الكون وفساد ، والجوهر والعرض ، وأهملوا

النظر في اللغة وما إليها ، فوضع لهم كتابه في ذلك ، والقياس الذي يشغل جزءا كبيرا من منطق أرسطو أصبح ذا دخل كبير في كثير من العلوم فالقياس في الفلسفة وفي اللغة وفي النحو وفي الفقه ، وكان للفلسفة اليونانية أثر كبير في تعاليم المتكلمين ، والأفلاطونية الحديثة بعض الأثر في التصوف ، ويقول أرسطو : إن الزمان والمكان كالوعاء للأشياء ، وهذا أصل تسمية النحويين للمفعول فيه ظرفا أي وعاء<sup>(١)</sup> .

والجاحظ قد تأثر بالثقافة اليونانية تأثرا كبيرا ، وظهرت آثارها في كتبه ، ففي كتابه الحيوان يتخذ كتاب « الحيوان » لأرسطو مصدرا من أهم مصادره ، ينقل عنه كثيرا ، ويستدل به كثيرا ، وينقده كذلك في أحيان كثيرة ، فلم يسلم لأرسطو كل شيء بل ناقضه ونقده ، نقده فيما ذهب إليه من أن إناث العصافير أطول أعمارا وأن ذكورها لا تعيش إلا سنة<sup>(٢)</sup> ، ونقده فيما ذكره من أن حية في بلدة طباقون اليونانية شديدة اللدغ يعالج ألمها بحجر يخرج من بعض قبور قدماء الملك<sup>(٣)</sup> ، وفي أشياء كثيرة أخرى ستأتي في حديثنا عن « منهج الجاحظ العلني » .

وهكذا نرى الجاحظ خبيرا بالثقافة اليونانية ، مطلعا على دقائقها ، فهو عالم بالطبيعيات والإلهيات كما يدل على ذلك كتابه « الحيوان » وهو عالم بماقاله اليونانيون في النفس والأخلاق<sup>(٤)</sup> ، يعرف آراء أرسطو ، وينقل عن أقليمون وجالينوس ، ويذكر أن كتب المنطق وكتب أفليدس لا يفهمها العربي البليغ ، ويبدو<sup>(٥)</sup> أن ثقافته اليونانية اتسعت بمجالسته لكثير من المثقفين بها .

(١) ٨٥ محاضرات جويدي

(٢) ٥ : ٦٧ الحيوان ، ٥ : ٧١ أيضا

(٣) ٤ : ٧٦ الحيوان

(٤) ٣ : ١٢٨ ضحى الإسلام

(٥) ١ : ٤٢٣ و ٤٢٤ المرجع

فقد كان يتحدث إلى سلوويه (١) وابن ماسويه وحنين وإلى شمتون الطبيب ، وكان سلوويه (٢٢٥ هـ) طبيب المعتصم ، وابن ماسويه مات أيام المتوكل ، ويقول الجاحظ : زعم لي سلوويه وابن ماسويه متطبب الخلفاء (٢) ، ويقول : كتاب اقليدس وكتاب جالينوس ومثله المجسطي مما تولاه الحجاج (٣) ، ويذكر الجاحظ كذلك نوادر ديسيμος اليوناني (٤) .

ومن مظاهر الروح الفلسفي عند الجاحظ : ذكره لقدامة حكيم المشرق (٥) ولأعين الطبيب البصري (٦) ، ويقول : ورأيت ناسا من الأطباء وهم فلاسفة المتكلمين ، منهم : معمر ، ومحمد بن الجهم (البرمكي) ، وإبراهيم بن السندی (٧) ، ويذكر المكي وأنه كان طبيبا طيب الحجج ، طريف الحيل ، عجيب العلل (٨) ؛ ويذكر أبا حكيم السكيميائي ومناقشته لثأمة ليقنعه بالاكسير (٩) ، ويذكر حادثة لإعادة الحياة إلى غلام أبي كريمة (١٠) ، وقصة إبراهيم بن هانيء من أصحاب النظام الذي كان لا يقيم شعرا ويدعى أمام النظام أنه عالم بالحساب

(١) راجع ١٤١ القفطي ، ١ : ٣٨٠ الزركلي ، ١ : ٥٤ الحيوان ، ويقول الجاحظ : قال العتي ذات يوم لابن الجهم : ألا تتعجب من فلان ، نزار في كتاب الإقليدس مع جارية سلوويه في يوم واحد وساعة واحدة ، فقد فرغت الجارية من الكتاب وهو بعد لم يحكم مقالة واحدة ، على أنه حر مخير وتلك أمة مقصورة ، وهو أحرص على قراءة الكتاب من سلوويه على تعليم جارية (١ : ٥٤ الحيوان) .

(٢) ١ : ٢٤٦ الحيوان - نشر الحلبي .

(٣) ١ : ٨٠ الحيوان ويقصد الحجاج بن يوسف بن مطر (٢١٤ هـ) المترجم ، لا الحجاج بمعنى الجدل كما فسره محقق الحيوان .

(٤) ١ : ٢٨٩ الحيوان و ٢ : ١٦٥ البيان .

(٥) ٥ : ٩٥ المرجع (٦) ٢ : ٢٢٣ الحيوان

(٧) ٢ : ١٤٠ الحيوان (٨) ٣ : ٣٢٥ الحيوان

(٩) ٣ : ٣٨٥ الحيوان (١٠) ٣ : ٣٥٠ الحيوان

والكلام والهندسة واللحون وأنه يقول الشعر (١)، ويذكر الجاحظ هرمس وأفلاطون وأرسطو وغيرهم من اليونانيين في رسالته «التربيع» (٢)، ويذكر أن جبرائيل بن نوح الأنباري ألف كتابا في «الدلائل والاعتبار»، وألف في معناه أسقف طرسوس كتابه «المتدبر»، ونقله من أخذه عنه من السريانية إلى العربية فأفسده بتأويل الألسنة وسوء العبارة، وألف أسقف فورس كتبه باليونانية ونقل بعده إلى السريانية ثم إلى العربية (٣)، ويصف صاحب المنطق - أرسطو - بأنه كان غير موصوف بالبيان مع علمه بتمييز الكلام (النقد) وتفضيله ومعانيه وبخصائصه (٤)، ويذكر أقسام البيان (٥)، كما عرفها أرسطو .

وقد ثار الجدل حول ما إذا كان الجاحظ قد تأثر بالبلاغة اليونانية وهو يضع أمس البلاغة العربية في كتابه البيان والتبيين، فباحث يذهب إلى أن الجاحظ تأثر بخطابة أرسطو إلى حد بعيد، وأن من المشابهة بينه وبين أصحاب الخطابة في الأسلوب استعماله القياس المضمحل (٦) - المذهب الكلامي عند البديعيين - فهو ولا شك متأثر بخطابة أرسطو كثيرا (٧)؛ ويذهب آخر إلى أن الجاحظ لم يتأثر بخطابة أرسطو وليس له صدى عنده لأن الجاحظ

(١) ١١٠: ٣ الحيوان

(٢) ٢١٠ و ٢٢٨ و ٢٣١ رسائل الجاحظ

(٣) ٢٤٨: ٢ أمراء البيان

(٤) ٢٧: ٣ البيان والتبيين

(٥) ٧١: ١ البيان، ١: ٣٣ و ٤٤ الحيوان

(٦) الرسالة عدد ١٩٦ - حمودة في محاضرة له في أسبوع الجاحظ، ويقول: إنه إذا كان الجاحظ ينسب أن يكون لليونانيين خطابة (٣: ١٥ الميان) فليس ذلك إلا في مقام الرد على الشعوبيين، وقد يكون الجاحظ لم يطلع على نصوص خطابية لليونان .

(٧) الرسالة عدد ١٩٦ ضد ٦٢١

لم ير هذا الكتاب (١) ، وذلك ما يؤيده طه حسين (٢) ، وإن كان يذهب إلى أن أرسطو مشرع للعقل العربي في البلاغة ، كما شرع للعقل اليوناني كذلك (٣) .

والجاحظ في البيان والتبيين يذكر تعاريف البلاغة عند الأمم ومنها اليونان والرومان (٤) ، ويرى أن لليونان فلسفة وصناعة منطق وليس لفلاسفتهم في الخطابة ذكر (٥) ، وأقسام الدلالة عند الجاحظ (٦) هي من تفكير أرسطو ، ويرى أن رسائل اليونان وخطبهم وعلمهم وحكمهم وكتبهم في المنطق لا توازن بما للعرب من بيان وبلاغة وصناعة وخطابة (٧) مع أن كتب اليونان في المنطق جعلتها الحكماء (٧) معيارا للتفكير .

ويذكر الجاحظ في كتابه « البيان » صناعة الكلام ويعنى بها حيناً علم الكلام (٨) ، وحيناً آخر البيان (٩) ، وكذلك يذكر صناعة الخطابة ، وأصحاب الخطابة والبلاغة (١٠) .

على أن الجاحظ فيما ذكره من بعض أصول البلاغة العربية يشترك مع أرسطو في بعض الخصائص ، فدعوته إلى ترك الوحشى والسوق (١١) قريبة

(١) ص ٦٢٢ المرجع السابق (٢) ٣ مقدمة نقد النثر

(٣) راجع مقدمة نقد النثر وراجع في ذلك : البلاغة العربية في دور نشأتها اسيد نوفل ، وخطابة أرسطو لإبراهيم سلامة ، وكتابه الآخر في البلاغة وأثر أرسطو فيها وعنوانه « بلاغة أرسطو بين العرب واليونان » .

(٤) ١ : ٧٥ البيان (٥) ٣ : ١٥ البيان

(٦) ١ : ٦٩ البيان ، ٩ نقد النثر ، ٤٠ الرسالة العذراء

(٧) ٣ : ٧ البيان والتبيين (٨) ١ : ٦٩ البيان .

(٩) ١ : ١٠٨ البيان ٣ ج ٤ زهر الآداب (١٠) ١ : ١٨٣ البيان

(١١) ١ : ١٠٥ و ١١٠ و ١٧٦ البيان

من دعوة أرسطو (١) إلى هجر الألفاظ الخسيسة التي لا يستعملها إلا العامة ،  
وينبغي أن لا تكون الألفاظ سفاسفة ولا مجاوزة الحد في المتانة مبلغ  
الأمر الذي يدل عليه ، فلا تبلغ درجة العامية ولا تنحوج إلى المكلفة المشنوءة ؛  
ودعوة الجاحظ إلى حسن الدلالة ووضوح العبارة (٢) هي دعوة أرسطو إلى  
حسن الدلالة ووضوح العبارة وإلى استكراه الإغراب ، وأنه يجب ألا تمتنع  
في الإغرابات ، بل يجب أن تكون العبارة بحيث يفهمها الأماثل دون  
استقاط الجمهور (٣) ، واللحن وخروجه عند حد "البلاغة موجود عند الجاحظ" (٤)  
وأرسطو (٥) ، واستعمال المبسوط في مواضعه والمقصور (٦) — المحذوف  
الموجز — في مواضعه . والإيجاز يوم الإيجاز والاطناب يوم الاطناب (٧) ،  
نما ذكره أرسطو .

وذلك التشابه ليس دليل تأثر من الجاحظ بأرسطو ، إنما سببه أنها  
أفكار عامة تشترك فيها جميع الأمم ، أو أن سببه نقل الجاحظ عن الذين  
ألموا بثقافة اليونان وكتب أرسطو وعلى الأخص : الخطابة ، والشعر ،  
وكذلك نرى الاستعارة موجودة عند الجاحظ وأرسطو لأحد هذين السببين ؛  
ويؤيد ذلك أن الجاحظ يحل كثيرا من النظريات التي شرحها أرسطو في  
كتابه ، كأنواع البيان ودراسة الاستعارة دراسة تفصيلية ، والرباطات  
(حروف العطف) ، وأنها تجعل الكلام الكثير كالواحد ، والجناس ،  
ونظرية الوصل بتنصيصها (٨) .

(١) الشفاء لابن سينا - الخطابة - مخطوط - مكتبة الأزهر

(٢) ١ : ٦٨ و ١١٠ و ١٧٦ البيان

(٣) ١ : ١٢١ البيان

(٤) ١ : ٥١ البيان ، وكذلك ص ١٤١ و ١٨٠ وغيرها

(٥) ١٢٠ رسائل الجاحظ

(٦) نقد نصيب الشاعر الأموي الكمي في قوله « تسكمل فيها الأنس

والشرب » لأنه باعد في القول (١) ١٣٤ : ١ ، ٣٣٥ : ١ : ٣٣٥ الكامل للمبرد .

إذ لا يشير الجاحظ في « البيان » إلى ذلك ، مما يدعونا إلى ترجيح أن الجاحظ لم يطلع على كتاب الخطابة ، وإن كان أفاد من النظام ومن علوم الفلسفة والمنطق اليونانية ، ونقل عن أطاعوا على خطابة أرسطو .

ومهما كان فإن الجاحظ قد اتصل بثقافة اليونان المترجمة وعن طريق المتكلمين والمجيدين لليونانية وثقافتها من غيرهم من عناصر عربية أو غير عربية (١) ، كما كان متوسعا في الثقافات كلها بما كان يقرؤه من الكتب (٢) .

• • •

وبعد فإن ثقافة الجاحظ العربية الأصيلة والمقتبسة ، تجلت في كتبه دليل عبقرية واضحة ، والمعية فكرية عميقة ، كما كانت مظمرا لثقافة الجاحظ الموسوعية التي أثرت في الثقافة العربية على طول العصور ، وقربت الفلسفة والعلوم إلى كل ذهن وعقل إذ صاغها الجاحظ صياغة أدبية عالية مزج فيها كلام أرسطو بأقوال الأدباء ، وكلام الفلاسفة بأشعار الجاهليين ، وجعل اللغة العربية لغة الحياة التي تنطق بكل علم ، وتعبّر عن كل فكرة وتحتفي بكل فن كما كان الجاحظ تنسج ثقافته للكثير من ضروب المعرفة (٣) حتى عد أوسع أهل زمانه ثقافة (٤) .

---

(٢) ١ : ٣٨٧ المرجع

(٤) ٣ : ١٣١ المرجع

(١) ١ : ٤٠١ ضحى الإسلام

(٣) ٣ : ١٢٨ المرجع

البَابُ الرَّابِعُ  
الجَا حِظُ السِّيَاسِي

# الفصل الأول

## مواهب الجاحظ السياسية

كان الجاحظ سياسيا ، كما كان أديبا وناقدا وكاتبا وعالما ومؤلفا ؛ كان ينظر إلى الأمور نظر الرجل الخبير المحرب ، ويخلق السياسى النظيف ومواهبه العالية عاش طول حياته مناضلا مكافحا ، مدافعا عن فكرته ورأيه .

والسياسى لابد أن يجمع بين التجربة ، والخبرة والعقل الحصيف والذكاء النادر والشجاعة الفائقة ، والصراحة الواضحة ، والعقيدة الثابتة الصامدة ؛ وقد يحاول بعض السياسيين المران على الكذب ، لأن السياسة عندهم هى فن الكذب ، ولكن ذلك لم يكن من طبيعة السياسيين العرب ولا خلقا فيهم ؛ قد ينادى بعضهم بالتقية ، ولكن الجاحظ لم يكن مؤمنا بها ، ويقول ابن خلدون : النظر الفكري ، والغوص على المعاني ، وانتزاعها من المحسوسات ، وتجريدها فى الذهن ، أمور كلية عامة ليحكم عليها بأمر العموم ، لا بخصوص مادة ولا شخص ولا جيل ولا أمة ولا صنف من الناس .

وهكذا كان الجاحظ ، كان طودا راسخا فى الأحداث ، وكان ملاذا للناس كلما أملت بهم الأعياب السياسة وأحداثها ، عاش ينظر إلى علاقات الشعب بالدولة وعلاقات الدولة بالشعب نظر الحكيم الداهية ، يهتم بالأمور الكبرى ، ويقصر وكده عليها ، لا يحب أن يدخل فى تفاصيل السياسة ، العباسية ؛ ومن ثم نجا من مكر السياسة وخداعها ؛ لم يدخل فى أعماق السياسة ولا فى محيطها اللججى ، ولو أن أبا عثمان دخل فيها إلى أذقانه لكثير غلطه عند إرادة إفراغ السياسة فى قالب تفكيره ، ونوع استدلاله — من تعميم الأحكام وقياس الأمور ببعضها على بعض . .

كتب في جميع جوانب السياسة ، كتب في الفرق بين هاشم وعبد شمس ،  
والرسائل الهاشميات ، والعباسية ، والعثمانية ، وألف في وجوب الإمامة ،  
والدلالة على أنها فرض ، وفي مناقب الترك . . وهذه الكتب كلها تشهد  
بإسهامه في العمل السياسي العلمي .

واتصل بالخلفاء والأمراء ووزرائهم وعمالهم ، فأجوده وأكرموه  
واستعانوا به ، وحرصوا على أن يختص بهم الجاحظ ، وأن يخدم دولهم  
ويعمل من أجلهم ، والذين شغفوا بصحبته للانتفاع بعلمه وفضله ، والاستمتاع  
بحديثه ، لا بد أن يحاولوا حمله على معاونتهم فيما هم بسبيله من مشكلاتهم  
العامة والخاصة على السواء . .

وكان الجاحظ - كالمعتزلة - ينزل الصحابة والتابعين منزلة الناس ، ويضعهم  
موضع النقد ، فهم يخطئون ويصيبون ، وكان كالمعتزلة يرى أنه لا بد للمسلمين  
من إمام ينفذ أحكامهم ، ويقم حدودهم ، ويحكي بيضتهم ، ويحرس حوزتهم ؛  
وهم بخلاف بعض الخوارج وعدد قليل من المعتزلة الذين ذهبوا إلى أن  
الإمامة غير واجبة في الشرع .

وكان الجاحظ وأكثر المعتزلة يذهبون إلى أن الإمامة اختيار من الأمة ،  
ولهذا كان الخلفاء يحرصون على البيعة لأنفسهم ولولاء عهودهم تمثيلاً لجانب  
الاختيار ، فإذا جمعوا إلى ذلك أنهم من قریش ، كان ذلك أوفر وأكمل  
وأعلى ، واعتبروا بيعة أبي بكر شرعية صحيحة ، ولم تكن عن نص بل  
عن اختيار ، وجعلوا أبا بكر أفضل من علي ، كما جعلوا ترتيب الأربعة في  
الفضل كترتيبهم في الخلافة ، وفضل بعض المعتزلة علياً ، وبعضهم  
كأبي الهذيل ذهبوا إلى التوقف (١) .

وكان كذلك يأخذ على عثمان أموراً أحدثها بعد السنين الست الأولى من خلافته (١) ، ويتوقف في الحرب بين علي وخصومه ؛ أما في الحرب بين علي ومعاوية فهو مع علي ، ويتبرأ من معاوية وعمر وبن العاص ومن كان في شقمهما ، وأجاز لعن معاوية ، وكان يكره الأموية (٢) ، إذ كان الأمويون يكرهون القول بحرية الإرادة ، ولم يحب الجاحظ من خلفاء بني أمية إلا يزيد الناقص ، لأنه كان يذهب إلى قول المعتزلة ومذهبهم (٣) .

وجاءت الدولة العباسية ، فكان الجاحظ والمعتزلة لا يرون الخروج عليها ، وكرهوا الثورة بالسيف ، وكان الرشيد يكره الاعتزال والمعتزلة ، فطلب العتابي الشاعر ، فكان يذهب مذهب المعتزلة ، فهرب إلى اليمن ؛ وأيد الجاحظ المأمون والمعتصم والوائق بكل ما يملك من قوة ، لأنهم أيدوا الاعتزال وفرضوه فرضاً ، وحملوا الناس عليه ، أما المتوكل فقد أमत ما أحياه سلفه من الاعتزال وإقامة سوق الجدل (٤) .

هذه هي آراء الجاحظ في سياسة المسلمين ، وهي واضحة في كتبه ورسائله كل الوضوح . . ويمتاز في كل ما يكتب بالصدق والحق وحرارة العقيدة وتوهج العاطفة ؛ ومع تأييده للخلافة العباسية ، ومناهضته للأموية ، فقد سجل مفاخر الأمويين وذكر مآثر دولتهم في رسالته « فضل هاشم على عبد شمس » .

وكان الجاحظ يرى أن الحاكم لا يستطيع العمل إلا إذا كان الرأي العام

---

(١) ٢٩٢ رسائل الجاحظ - رسالته في بني أمية

(٢) ٢٩٤ المرجع نفسه

(٣) ١٥٠ : ٢ مروج الذهب

(٤) ٢٨١ : ١ زهر الآداب - نشر الحلبي

معه ، نلبس ذلك مما ذكره عن انتشار مذهب زرادشت ونقده لرأى من ذهب إلى أنه إنما انتشر لأن الملك كان معه (١) .

ولعل الجاحظ كان أكثر كتاب عصره ترديدا لكلمة الحرية في أدبه ، يقول : « أقول شيئا ليس يخرج منه إلا الشكر والحرية » (٢) ، ويقول : « ولولا أن زرادشت صادف دهرا في غاية الفساد ، وأمة في غاية البعد من الحرية ومن الغيرة والأنفة ، لما تم له هذا الأمر » (٣) .

---

(١) ٣٢٥ : ٥ و ٣٢٦ الحيوان

(٢) ٣٩٣ : ٥ المرجع نفسه

(٣) ٣٢٥ : ٥ الحيوان - وكان أبو عمرو بن العلاء يقول : مما يدل على حرية الرجل ، وكرم غريزته ، حنينه إلى أوطانه ( ٢ : ٦٨١ زهر الآداب - ط الحلبي ) ، ويقول بعض الحكماء : عليك بحسن السمائل فإنها تدل على الحرية ( ١ : ٣٨٤ زهر الآداب ) : وفي هذه النصوص ربما يمتزج المدلول السياسي مع المدلول النفسى .

## الفصل الثاني

### في سبيل الدولة والخلافة

- ١ -

عاش الجاحظ طول حياته على صلة وثيقة بالخلافة العباسية ، بينه وبينها علاقات مودة وحُب واحترام ، اشترك في الدفاع عن كيان الدولة ، وقصر وكده على الأمور الكبرى في سياسة العباسيين ؛ وكان لأبي عثمان يد عند السلطان ، فقد اتخذ بالطريقة التي سلكها في بعض تآليفه يداً عند الخلفاء ورجال الدولة ، فأصبحوا له قوة وسندا ، وبسطوا له جناح رحمة ، وصار في أمن من العامة ومن آراء أصحاب المذاهب والنحل المختلفة ؛ وكان الجاحظ يهون من شأن الغوغاء لأن آراءهم دائماً لا تستند على أساس من منطق أو مصلحة عامة ، أو مثل عالية .

كتب الجاحظ كتبه في الإمامة ، وفي العباسية بتكليف من المأمون ، ورفعها إليه فقرأها وأثنى عليها وأذاعها في الناس . ولما زادت الخصومة بين العنصرين الفارسي والتركي في جيش الخلافة ، كلفه الفتح بن خافان وزير المتوكل ، وكان من أصل تركي ، أن يكتب رسالة يلطف بها من حدة هذا التوتر ، فكتب رسالته المشهورة « مناقب الترك وعامة جند الخلافة » حيث أشرك غير الأتراك معهم ، فأرضى الجميع ، وخدم دولته ، بأن هدا الأفكار المثارة ، إذ لكلام الجاحظ سحره وتأثيره الشديد في الناس .

ووقف الجاحظ نفسه بشعوره العربي المتدفق ، وبجبه للدولة وتأيده لها ، على حرب الشعوبية ، والتهوين من شأنهم ، ورفع قدر العرب عليهم

خدمة للدعوة العباسية ، وتأيداً لها ، حارب الشعوية في كتابه « البيان . . »  
وفي كتابه « الموالي والعرب » ، وفي رسالته « النابتة » وفي مواضع أخرى .  
وحارب عصبية الموالي لسكرايته للعصبية التي هلك بها عالم بعد عالم ، وبغضه  
للحمية التي لا تبقى ديناً إلا أفسدته ، ولا دنياً إلا أهلكتها ؛ ومن ثم عني  
الجاحظ برد مطاعن الشعوية ، كرده على مطاعنهم في اتخاذ العرب العصا (١)  
وغير ذلك .

ويقول الجاحظ : وأعلم أنك لم ترقوما أشقى من هؤلاء الشعوية ،  
ولا أشد استهلاكا لعرضه ، ولا أطول نصبا ، ولا أقل غنا من أهل هذه  
النحلة ، وكان الجاحظ يدرك بشعوره وأصله العربي أن الفرس عامتهم  
وخاصتهم من دعاة الشعوية وكراهية العنصر العربي ، أما ابن قتيبة فلأنه  
ليس من عنصر عربي كان يزعم أن الشعوية إنما توجد في العامة من الفرس ،  
أما أشراف العجم وذوو الأخطار منهم وأهل الديانة فيعرفون ما لهم  
وما عليهم ، ويرون الشرف نسباً ثابتاً .

والجاحظ مضرب الأمثال في مشاعره العربية ، وإيمانه بقومية العرب ،  
واعترازه بهم ، وحبهم لهم ، وجعله سائر الأمم دونهم في المنزلة والجنس ،  
وذهابه إلى أن نساء العرب في الجملة أعقل من رجال العجم ، فما ظنك بالمرأة  
منهم إذا كانت مقدمة فيهم : وفي اعتقاده الثابت أنه لم يكن لعبد المطلب في  
قريش نظير ، كما أنه ليس للعرب في الناس نظير (٢) ، ويقول إن سادات  
قريش فوق كسرى وآل كسرى (٣) .

هو يعظم من أمر بني هاشم ، ويرى أنهم السنام والرأس والعقل

(١) ١٢ : ٣ وما بعدها - البيان والتمييز

(٢) ٢ : ٢٤٥ الحيوان

(٣) ٥ : ٣٢٨ الحيوان

والروح ، وأن شرفهم متصل كابر عن كابر (١) .

وكان الجاحظ يذهب كل فرصة ليقدم الدعوة الهاشمية ، وينوه برجالها ، ولم يترك مجالاً إلا خاض فيه بمدح قريش ، ويخص بني هاشم بالثناء (٢) ، فالعرب كما يقول هم : « كالبدن وقريش روحها ، وهاشم سرها ولبابها ، وموضع غاية الدين والدنيا منها » ، ورسالته في فضل هاشم على عبد شمس مشهورة .

وكان الجاحظ يترك نقد العباسيين في سياستهم العامة في معاملة الرعية ، استصلاً حالهم ، أو اضطراباً لمجاملتهم ، فهو يوجه نقده إلى السكينة الغامرة من الأمة ، عسى أن يكون بصلاً لها صلاح الدولة ، ومع ذلك فإنه لم يتجن على الحقائق ، فقد ذكر أن أصحابنا - أي العباسيين - هدموا بناء مدن شامات لبني مروان (٣) ، ونوه بخطباء بني أمية وبلاغاتهم في رسالته « فضل هاشم على عبد شمس » (٤) . . لم يكن أبو عثمان يصانع رجال الخلافة العباسية ، وإن كان لا ينقدهم ، وهو أبا مع بني هاشم (٥) ، يرى أن الناس لا يصلحهم إلا رئيس واحد منهم ، يجمع شملهم ويكفيهم ويحميهم من عدوهم .

وقد جعل الدعوة للعباسيين مذهباً سياسياً وفكرياً ، فكتب رسالته المشهورة « العباسية » (٦) ، وهكذا كان لساناً من ألسنة الدعوة والدولة ، وجيشاً لجبا في مقدمة جيوشها المسكفة من أجل مجدها وعظمتها .

( ١ ) ٧٤ رسائل الجاحظ

( ٢ ) راجع فصلاً للجاحظ في ذكر قريش وهاشم ( ١ : ٥٨ زهر الآداب )

( ٣ ) ١ : ٧٣ الحيوان

( ٤ ) ٩٥ - ٩٧ رسائل الجاحظ ، وكذلك البيان والتميين

( ٥ ) يذكر في كتاب « البيان والتميين » ، بلاغات بني العباس ( ٣ : ٣٦٦ - ٣٧٨ )

( ٦ ) راجع بعض فقرات منها في ص ٣٠٠ - ٣٠٣ رسائل الجاحظ

وفى رسالة الجاحظ ، فضل هاشم على عبد شمس (١) ، التى ألفها عام ٢٢٦ هـ (٢) فى خلافة المعتصم يستقصى الجاحظ فضل هاشم ، وينفى أن يكون لعبد شمس نصيب من هذه المآثر ، ويبلغ فى الحجاج والاحتجاج غاية ما يمكن أن يبلغه إنسان سواه ، وبنو هاشم فرعان : فرع على ، وفرع العباس (٣) ، وقد قامت الراوندوية فى خراسان شيعة للعباسيين ، وفى كتابه « إمامة ولد العباس » يحتج الجاحظ لهذا المذهب ، ولم يستقص فيه الحجاج للراوندية .

ويقول المسعودى : إنها لم تكن مذهبه ، وإنما فعل ذلك نظرفاً (٤) ، وفى الحجاج مع عبد شمس يثبت الجاحظ مآثر الجاهلية لبنى هاشم ، وازدادوا مجداً وشرفاً بعبد المطلب ثم برسول الله صلوات الله عليه ، وفيهم البلاغة والحلم والنسك والفقه والعلم والشجاعة ونبل الرأى والجود والسماح .

ويتناول الجاحظ فى رسالته « استحقاق الإمامة » الحجاج مع شيعة على بن أبى طالب ، فيفيض فى الجدل معها ، ويقسمهم إلى زيدية ورافضة (٥) ، ويذكر مذهب الزيدية فى الإمامة وهو يتفق مع رأى المعتزلة فى أن الأمة يتولى الإمامة فيها أعظمها قدماً فى الإسلام وزهداً وفقهاً وجهاداً فى سبيل الله ، ولكنه لم يتناول « الإمامية » من فرق الشيعة إلا من الجانب السياسى فقط

---

(١) ٦٧ رسائل الجاحظ

(٢) ٧٧ رسائل الجاحظ

(٣) ٣ : ٢٨٠ و ٢٨١ ضحى الإسلام

(٤) ٢ : ١٥٧ مروج الذهب

(٥) ٢٤١ رسائل الجاحظ

لأن «الإمامية» يذهبون في كثير من مسائل الدين إلى ما يذهب إليه المعتزلة ، فذهبوا إلى أن صفات الله عين ذاته ، وأن القرآن مخلوق ، وإلى إنكار الكلام النفسى ، وإنكار رؤية الله بالبصر ، وفي القول بالحسن والقبح العقليين ، وبقدرة العبد واختياره ، وأنه تعالى لا يصدر عنه قبيح ، وأن أفعاله معللة بالعلل والأغراض ؛ ولا يخالفونهم إلا في إمامة على وإمامة الأحد عشر إماما بعده (١) .

وكان بعض المعتزلة يتشيع ومنهم هشام بن الحكم وشيطان الطاق (٢) ؛ أما الزيدية فأقرب إلى أهل السنة (٣) .. وكان المأمون العباسى يخالف مذهب جمهور المعتزلة والعباسيين ، فذهب إلى تفضيل على بن أبى بكر وعمر وإلى أحقيته للخلافة دونهما ، وكان كثير العطف على العلويين وأراد نقل الخلافة إليهم ولكن لم يقدر لعمله هذا النجاح (٤) ؛ وعلى الجملة فإن الجاحظ يناقش آراء الشيعة في رسائله وكتبه ويرد عليها رداً بليغاً .

أما الرافضة ، وهم غلاة الشيعة ، فقد كان سوط عذاب لهم ، وكان قلبه البليغ معول هدم لدعوتهم ، وقد بين في كتابه «فضيلة المعتزلة» أنهم يقتطعون آل أبى طالب عن العلم والعمل جميعاً ، ويوهمونهم أن المعاصى لا تضرهم ، وأن الواحد منهم يشفع فيمن أراد أن يشفع لهم ، وأن أصحاب رسول الله من المهاجرين والأنصار لم يسلموا من عداوتهم وشتمهم ، ولم يسلم من تولوه من آل على من تثبیطهم عن العلم ، وتزهدهم في العمل الصالح فلم ينبج منهم ولى ولا عدو (٥) .

(١) ٣ : ٢٦٧ ضحى الإسلام

(٢) ٣ : ٢٦٨ المرجع

(٣) ٣ : ٢٧١ - ٢٧٧ ضحى الإسلام

(٤) ٣ : ٢٩٤ ضحى الإسلام

(٥) ٢ : ٣٥٩ أمراء البيان

ويقول الجاحظ إن الرافضة ليست منا بسبيل ، ولا نحن منها ولا هي (١) منا ، ولم يتزيد الجاحظ على الرافضة حرفاً واحداً . .

وفي رسالة « العثمانية » (٢) يرد أبو عثمان على من زعم تفضيل على أبي بكر ، ويقيم حجاجاً بين مؤيديه وبين العثمانية الذين يذهبون إلى تقديم أبي بكر وتفضيله ، ويجهر بأن أفضل الأمة وأولاها بالإمامة أبو بكر ، ويدعم ذلك بأدلة كثيرة قوية ، وقد نقد الإسكافي ( ٢٤١ هـ ) وغيره آراء الجاحظ في هذا الكتاب ، ونقد المسعودي كذلك الجاحظ فيه .

وقد ندد الجاحظ بالأمويين لما صنعوه ببني هاشم من القتل والتشريد ، ويذكر ماضيهم في الشرك ، وما صنعوه في دولتهم من هدم للكعبة ، وسبي للمسلمات ، ولعن لعلى ، إلى خلاف ذلك ؛ وذلك في رسالته « فضل هاشم على عبد شمس » ، وفي رسالته في « بني أمية » يذكر أن عام الجماعة ( ٤١ هـ ) ما كان عام جماعة بل عام فرقة وقهر وجبرية وغلبة والعام الذي تحولت فيه الإمامة ملكاً كسروياً ، والخلافة منصبا قيصرياً (٣) ، ويعدد مساوئ بني أمية ، ويذكر استحقاقهم للعن ، ويتهكم بمن يقول إن سب ولادة السوء فتنة ، ويصف بني أمية بأنهم كانوا في طريق التمرد على الله ، والاستخفاف بالدين ، والتهاون بالمسلمين ، والابتذال لأهل الحق (٤) .

وكان الجاحظ يذكر أن الخوارج مع مروقهم من الدين ، وخروجهم عنه ، وجهلهم به ، أحسن اقتصاداً من الرافضة ، ولهذا اتهم المسعودي الجاحظ

(١) ٢ : ٣٧٣ المرجع - ومن الرافضة المشبهة وعلى رأسهم مقاتل بن سليمان ( ١٥٠ هـ ) ويشبهون صفات الله بصفات المخلوقين

(٢) ١ - ١٢ رسائل الجاحظ

(٣) ٢٩٤ رسائل الجاحظ

(٤) وفي رسالته « النابتة » إقذاع في الحديث عن الأمويين ، ولذلك يرجع محمد كرد على أن تكون نسبتها إليه غير صحيحة ( ٢ : ٤٤٠ أمراء البيمان )

بأن كتبه تدعو إلى النصب وأهل النصب، يتدينون ببغض على، فإنهم نصبوا له، وعادوه، ومنهم الخوارج، والجاحظ يذكر في كتابه «البيان» بلاغة الخوارج وبلغاهم.

وهكذا انتصر الجاحظ لدعوة العباسية، وجادل كل خصومها، وناقشهم، ووقف منهم موقف القاضى العادل، فناقش الشيعة والرافضة والعثمانية والأموية والخوارج، وأدلى بحججهم، وعاد إليها نذرة ضمها، وبين خطأها وخطأهم فيها، وكتب في القحطانية والعدنانية ودافع عن العدنانية ورد على القحطانية.. وعلى الجملة فقد كان من أكبر قوى الدولة، ومن المناضلين عنها والمدافعين لخصومها وأعدائها.

وموقفه من عصيات الموالي والشعويين معروف، فقد نقد الزبائنة، الذين يزعمون أن المولى بولائه قد صار عربيا لقول الرسول صلى الله عليه وسلم: مول القوم منهم، ويقول الجاحظ: إنه لو لا قول النبي صلى الله عليه وسلم إن إسماعيل كان عربيا ما كان عندنا إلا أعجميا، لأن الأعجمي لا يصير عربيا، كما أن العربي لا يصير أعجميا<sup>(١)</sup>.

وقد كتب أبو عثمان الجاحظ كتباً رد فيها الموالي إلى مكانهم في الفضل والنقص، وإلى قدر ما جعل الله لهم بالعرب من الشرف<sup>(٢)</sup>.

وبعد فإن صفحات الجاحظ السياسية صفحات مشرفة، وفيها نزعة عربية أصيلة، تليها نزعة عباسية ظاهرة، وقف عندها أبو عثمان طول حياته لا يوافق ولا يوارى ولا يدارى، ولا يقول غير الحق الذى يعتقده، وغير ما فى نفسه من رأى ومذهب.. وهى كلها جذيرة بأن تجعل الجاحظ فى مصاف الدعاة السياسيين الكبار، وفى عداد زعماء العالم الإسلامى القديم.

## البَابُ الْخَامِسُ

الْجَاهِظُ الْمُعْتَزِلُ

# الفصل الأول

## المعتزلة والاعتزال<sup>(١)</sup>

— ١ —

تطورت الحركات الفكرية في الإسلام بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم تطورا كبيرا ؛ فقد شهد العقل العربي نزعة محافظة كل المحافظة ، متبعة أشد الاتباع ، مقلدة أبعد حدود التقليد ، في فهم الإسلام ونصوص القرآن الكريم المقدسة ، تعتمد على النص والرواية ، وترجع إلى النقل الوارد عن الرسول ، ولا تترك للعقل شيئا في فهم النصوص .

وافترق المسلمون في آخر خلافة علي إلى شيعة وخوارج ومرجئة ، ولكل منهم رأيه في الخلافة والسياسة ، ومجاله في فهم النصوص التي تتعلق بهما وفي تأويلها .

ثم ظهر الحسن البصري ( ١١٠ هـ ) ، وغيلان الدمشقي ، والجعدي بن درهم ( ١٢٧ هـ ) ، وجهم بن صفوان ( ٢٨ هـ ) ، فأثاروا حركة جديدة شهدت البصرة ، وتتصل بفهم العقيدة وأصولها ، وثار مسألة مرتكب الكبيرة ، واختلف الناس في البصرة فيها ، وتددت آراء الفرق المختلفة ؛ فالأزارقة من الخوارج يقولون : كل مرتكب لذنوب صغير أو كبير مشرك بالله ، وأطفالهم مثلهم ،

---

(١) راجع : ٢١ - ٢٠٧ : ٣ ضحى الإسلام ، وللجاحظ كتاب « فضيلة المعتزلة » ، وللقاضى عبد الجبار كتاب « طبقات المعتزلة » ، ولأبى الحسين الخياط ( ٣٥٠ هـ ) كتاب « الانتصار » الذى يرد فيه على ابن الراوندى في كتابه « فضيحة المعتزلة » وراجع كتاب « المعتزلة » لزهدي حسن جاد الله .

ووافقتهم « الصفرية » من الخوارج أيضا إلا أنهم خالفوهم في الأطفال (١) ؛  
وذهب الحسن البصرى إلى أن مرتكب الكبيرة مؤمن عاص ، وذهب  
الجمهور إلى أنه مؤمن فاسق .

وخالف واصل بن عطاء ( ٨٠ - ١٣١ هـ ) أستاذه الحسن البصرى ،  
وذهب إلى أنه فى منزلة بين المنزلتين ، أى بين الإيمان والكفر ؛ وانضم إليه  
عمرو بن عبيد ( ٨٠ - ١٤٤ هـ ) (٢) ، واعتزلوا هما وأتباعهما مذهب  
أستاذهم ، فسموا معتزلة (٣) ، وأخذوا فى تقرير مذهبهم لأنصارهم ، وفى  
نشره وإرسال الدعاة له إلى كل مكان (٤) .

وأصول مذهب المعتزلة خمسة : العدل - التوحيد - القول بالوعد  
والوعيد - القول بالمنزلة بين المنزلتين - الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ؛  
يقول أبو الحسين الخطيب ( ٣٠٠ هـ ) فى كتابه « الانتصار (٥) » : « وليس  
يستحق أحد منهم اسم الاعتزال حتى يجمع القول بالأصول الخمسة » ..

---

( ١ ) وكان النظام يذهب إلى أنهم فى الجنة ٣ : ٣٩٤ الحيوان

( ٢ ) ٣ : ١٣٠ - ١٣٢ وفيات الأعيان

( ٣ ) تخاف المرجئة المعتزلة والخوارج ، إذ ذهبوا إلى أن مرتكب الكبيرة  
غير مخلد فى النار ، من حيث قالوا بخلوده فيها .. وتسمى المعتزلة قدرية ، وأهل  
العدل والتوحيد أيضا .

( ٤ ) اصفوان الأنصارى قصيدة فى واصل وأصحابه ودعوتهم وفى بثهم للدعاة  
لمذهبهم فى كل مكان ( ١ : ٢٥ و ٢٦ البيان - نشر الخانجي ) ، وكان واصل قد بث  
الدعاة إلى كل جهة ( ٣ : ٩٢ ضحى الإسلام ) ، وكانوا يسمون الواصلية ، وكان  
عدهم فى تاهرت نحو ثلاثين ألف بيت ( معجم البلدان - مادة تاهرت ) .

( ٥ ) ص ١٢٦ الانتصار

وكان الجاحظ وكثير من المعتزلة البصريين يفضلون أبا بكر على علي ، ويجعلون ترتيب الخلفاء الراشدين الأربعة في الفضل كترتيبهم في الخلافة (١) ، وذهب البغداديون من المعتزلة إلى تفضيل علي على أبي بكر ، وذهب غيرهم إلى التوقف فيهما ، وهو قول واصل وأبي الهذيل العلاف (٢) ، وكان المعتزلة يؤيدون وجهة نظر علي في الحرب بينه وبين معاوية ، ويتبرأون من معاوية وعمر وبن العاص ومن ذهب مذهبهما (٣) ، وكان أبو زيد البلخي (٤٢٢هـ) المعتزلي يرميهما بالإلحاد (٤) .

ولهذا هم المأمون بلعن معاوية على المنبر بتأثير ثمامة بن الأشرس (٥) ، وكذلك لم يرض المعتزلة عن أبي موسى الأشعري لموقفه في التحكيم وعدوه من أرباب الكبراء (٦) .

وموقف المعتزلة من الدولة الأموية الكراهية ، وإن لم يشوروا عليهم ثورة الخوارج (٧) ، ولم يكونوا يميلون إلى عمر بن عبد العزيز لأنه ناقشهم

---

(١) راجع رسالة العثمانية للجاحظ (١ - ١٢ رسائل الجاحظ)

(٢) ١ : ٣ ابن أبي الحديد (شرح نهج البلاغة) ، ٣ : ٧٧ ضحى الإسلام

(٣) ٩٧ و ٩٨ الانتصار

(٤) ٣ : ٨٠ ضحى الإسلام

(٥) تاريخ بغداد لطيفور

(٦) ٣ : ٣٨٨ ابن أبي الحديد ، وللجاحظ رسالة في أمر الحكام وتصويب

رأى علي ، وهي مهداة إلى أبي حسان ، ورسالة أخرى في إثبات إمامة علي ، وقد تكونان رسالة واحدة .

(٧) بسط الجاحظ رأيه في بني أمية في رسالته عن بني أمية (٢٩٢ -

٣٠٠ رسائل الجاحظ) .

وهم بقتل بعضهم ، بل إن الجاحظ كان يفسقه ويستهزئ به ويكفره (١) ؛ ونقموا على الوليد بن يزيد بن عبد الملك لاستهتاره ، وكانوا من العاملين على قتله عام ١٢٦ هـ وإحلال يزيد بن الوليد محله الذى كان يذهب إلى رأى المعتزلة ومذهبهم (٢) ، وكانوا يفضلونه على عمر بن عبد العزيز (٣) ، وقد دعا الناس إلى القدر ومعلمهم عليه وقرب أصحاب غيلان الدمشقي (٤) ولذلك سموه السكامل (٥) .

والمعتزلة مع الحكم الجمهورى إذ الإمامة عندهم اختيار من الأمة سواء كان الإمام من قريش أم من غيرها ؛ ومن ثم كان عمرو بن عبيد لا يميل إلى العباسية وينقد المنصور نقدا شديدا (٦) ، وكان لا يرى اللجوء إلى السيف (٧) .. ومات واصل (٨) ثم عمرو بن عبيد قبل أن تضيع فى الناس كتب الحكمة والمنطق والفلسفة المترجمة ، فلما ذاعت هذه العلوم فى أوائل الدولة العباسية ، أقبلوا عليها ، وأخذوا يؤيدون مذهبهم بها ، فكانوا أول من استعانوا بالفلسفة اليونانية فى تأييد زعاتهم ، وأصبح المعتزلة من أشد المؤمنين بسطان

( ١ ) ٤ : ٤٦١ ابن أبى الحديد

( ٢ ) ٢ : ١٥٠ مروج الذهب

( ٣ ) ٢ : ١٥٢ المرجع

( ٤ ) ٩٨ تاريخ الخلفاء

( ٥ ) راجع رأى عمرو بن عبيد فيه ص ٩٦ و ٩٧ رسائل الجاحظ من رسالته فى فضل هاشم على عبد شمس .

( ٦ ) ٢ : ٣٣٧ عيون الأخبار

( ٧ ) ١٢ : ١٦٩ تاريخ بغداد

( ٨ ) ١ : ١٤ - ١٧ ، ٢٢ - ٣٤ البيان ، ٦ : ٢١٤ لسان الميزان ، وسمى

الغزال لكثرة جلوسه فى سوق الغزالين ( ١ : ٣٣ البيان ) .

العقل وتحكيمه في كل الأمور ، وعنوا بالأدب والشعر رواية وحفظا وكان  
بشر بن المعتمر أرواهم للشعر (١) .

وبعد موت عمرو بن عبيد انقسم المعتزلة إلى مدارس :

مدرسة البصرة :

ومن أشهر أعلامها بعد موت واصل (١٣١ هـ) وعمرو بن عبيد (٢)  
(١٤٤ هـ) :

١ — أبو الهذيل العلاف (١٢٤ - ٢٢٦ هـ) (٣) ، يقول فيه صاحب  
كتاب « الانتصار » : نسيج وحده ، وواحد دهره في البيان ، ومعرفة جيد  
الكلام (٤) ، ويقول المبرد : ما رأيت أفصح من أبي الهذيل والجاحظ (٥) ،  
اتصل بالفلسفة اليونانية وقرأها مترجمة حتى يقول النظام « خيل إلى أنه لم  
يكن متشاعلا قط إلا بها (٦) » ، وكان مقربا إلى المأمون ، وعده الجاحظ أبجل  
المعتزلة (٧) . ويقول فيه : كان أسلم الناس صدرا وأوسعهم خلقا وأسلمهم  
سهولة (٨) ، ويقول فيه بشر بن المعتمر يصوره بصورة المحب للظهور : « لأن  
يكون لا يعلم وهو عند الناس يعلم أحب إليه من أن يعلم وهو عند الناس لا يعلم » .

---

(١) ٦ : ٤٠٥ الحيوان

(٢) كان المنصور وهو شاب يختلف إلى مجاسه (١٢ : ١٦٩ تاريخ بغداد)

(٣) كتاب « أبو الهذيل العلاف » لعلي الغرابي (المتوفى في فبراير ١٩٦٤) ،

٣ : ١٩٦ و ١٩٧ وفيات الأعيان .

(٥) ٣٦ المنية والأمل للمرتضى

(٤) ٦٧ الانتصار

(٧) ١ : ١١٩ البخلاء

(٦) ٢٦ المرجع

(٨) ٢ : ٦٣ المرجع



٢ - النظام (١٨٠ - ٢٢١ هـ)

كان أبو اسحاق ابراهيم بن سيار البصرى من أئمة المعتزلة بالبصرة ، تبهر في الفلسفة واطلع على ما ترجم منها ، ويقول فيه الجاحظ : إنه مارأى أحدا أعلم بالفقه والكلام منه ، ووصفه بقوة الحججة (١) ، وبجودة القياس والاستنباط ، وقال : إنه لا يتحرى الدقة فيما يقيس عليه (٢) ،

ولا يؤمن بالطيرة (٣) ، يحل العقل ويحترمه ، لا ينسكرك المسخ على سبيل المعجزة (٤) ، وله مذهب في السكون (٥) شرحه الجاحظ وزاد عليه ، وكان يذهب إلى أن الله لا يوصف بالقدرة على الشر . وإلى أن إعجاز القرآن سببه الصرفة ، أى أن الله تعالى صرف العرب على الإتيان بمثله مع قدرتهم على ذلك (٦) .

ويقول الجاحظ فيه : الأوائل يقولون « في كل ألف سنة رجل لانظير له ، فإن كان ذلك صحيحا فالنظام من أولئك (٧) » .

ويقول الجاحظ : أخبرني النظام وكنا لانرتاب بحديثه إذا حكى عن

(١) ٧٧ : البيان والتبيين

(٢) ٢ : ٢٢٩ و ٢٣٠ ، ٣ : ٨٣ الحيوان

(٣) ٣ : ٥١ : الحيوان (٤) ٧٣ : الحيوان

(٥) ٥ : ١ - ٣١ : الحيوان ، ويرد على ضرارة بن عمرو في إنكاره القول

بالسكون (٥ : ١٠ : الحيوان) .

(٦) ٢٢٥ مقالات الإسلاميين ، ٢٧ الانتصار ، ٣٩ الملل والنحل

طبعة أوربا .

(٧) ٢٩ المنية والأمل

سماع أو عيان (١) ، ويصفه بأنه كان أضيق الناس صدرأ بجمل سر (٢) ، وكان أبو الهذيل يهرب من مناظرته (٣) .

وروى الجاحظ في البخلاء قصة النظام مع جار له مروي بخيل ، وقصة أخرى للجاحظ والنظام ومعهما وليد القرشي وفيها يذكر الجاحظ أنه مضى هو والنظام إلى الصحراء يريد الحديث والمناظرة في شيء من الكلام (٤) ، وينقده الجاحظ فيقول : كان رئيس من المتكلمين وأحد الجلة المتقدمين يقول في النفس قولاً بليغاً لولا شنعته لأظهرت اسمه (٥) ، ويذكر جدله مع المنانية (٦) ، وردده على الديصانية (٧) ونقده لبعض الفلاسفة (٨) ، وردده على أرسطو (٩) ، وكان النظام ينفي ما ترويه العرب عن سماعهم لصوت الجن (١٠) وكان النظام يقول : لاتسترسلوا إلى كثير من المفسرين وإن نصبوا أنفسهم للعامة (١١) ، وكان له صهر يدين بالنجوم ولا يقر بشيء من الحوادث إلا بما يجرى على الطباع (١٢) .

وكان النظام مطبوعاً على البحث عن أصل كل شيء وعلمته ، ولا يقتصر على الانقياد والمحاكاة ، ويعتبر الشك أساساً للبحث ، ويستخدم المنطق في بحثه عن الحقائق ، ويحارب أوهام العامة وخرافاتهم ، وكان واسع الحرية في التفكير .

ويقول فيه الجاحظ : لولا مكان المعتزلة لهلكت العوام من جميع النحل ، ولولا أصحاب إبراهيم وإبراهيم (النظام) لهلكت العوام من المعتزلة ، فقد

---

|                           |                            |
|---------------------------|----------------------------|
| (١) ١٠٦ : ٤ و ٣٢٠ الحيوان | (٢) ٦٤ : ٥ و ١٨٧ الحيوان   |
| (٣) ٨٢ : ٢ الحيوان        | (٤) ٧٤ : ١ البخلاء         |
| (٥) ١١١ : ٥ الحيوان       | (٦) ٤٤١ : ٤ الحيوان        |
| (٧) ٥ : ٤ الحيوان         | (٨) ٤٧ : ٥ الحيوان         |
| (٩) ٥٣ : ٥ الحيوان        | (١٠) ٢٤٨ : ٦ و ٢٤٩ الحيوان |
| (١١) ٣٤٣ : ١ الحيوان      | (١٢) ١٤٨ : ١ الحيوان       |

أنهج لهم سبلا ، وفتق لهم أموراً (١) ، ويقول فيه الشهرستاني : إنه طالع كثير أ من كتب الفلاسفة ، وخلط كلامهم بكلام المعتزلة ، ويرميه ابن قتيبة بالافراط في السكر (٢) ، ويذكر الجاحظ أنه هو والنظام وقطرب اجتماعاً على مائدة صديق لهم بخيل (٣) وهذه القصة لا بد أنها حدثت قبل وفاة قطرب عام ٢٠٦ هـ ، وكان ذكاء النظام يضرب به المثل (٤) ، ويقولون إن الخليل شهد له بالعبقرية والذكاء (٥) ، مع أن الخليل توفي عام ١٧٥ قبل مولد النظام بخمس سنوات ، وكان النظام أديباً أريباً وصف عبد الوهاب الثقفي البصري ( ١٩٤ هـ ) فقال : هو أحلى من أمن بعد خوف وبرء بعد سقم ومن خصب بعد جذب وغنى بعد فقر ، وله شعر كثير (٦) ، مع بصر بجودة الكلام وحذق في نقده ، وكان النظام يقيم أحكامه على التجربة (٧) . وقد تبجر في الفلسفة ؛ واطلع على ما ترجم منها وانفرد بمذهب خاص من مذاهب المعتزلة سمي النظامية ، وعليه تتلمذ الجاحظ وبه تأثر . وكان له نظر بوجوه التصرف (٨) ؛ وللجاحظ كتاب في الرد على أستاذة النظام ، ورد عليه أيضاً مذهبه في أن نظم القرآن ليس معجزاً (٩) .

#### مدرسة بغداد :

كان تأثرها بالفلسفة اليونانية أقوى من تأثر مدرسة البصرة بها لقوة حركة الترجمة في بغداد (١٠) .. ومن أشهر أعلامها :

- |                           |                                      |
|---------------------------|--------------------------------------|
| (١) ٤ : ٢٠٦ و ٦٩ الحيوان  | (٢) ٢١ تأويل مختلف الحديث لابن قتيبة |
| (٣) ١ : ١٠١ البخلاء       | (٤) ١٨ : ١٨٨ الأغاني                 |
| (٥) سرح العيون لابن نباتة | (٦) ٣ : ١٠٨ - ١١٠ ضحى الإسلام        |
| (٧) ٢ : ٢٢٨ - ٢٣٠ الحيوان | (٨) ١ : ٥١٤ زهر الآداب - ط الحلبي    |
| (٩) ١٤٨ رسائل الجاحظ      | (١٠) ٣ : ١٦٠ ضحى الإسلام             |

١ - بشر بن المعتمر (٢١٠ هـ) وهو صاحب الصحيفة المشهورة (١) في البلاغة ، التي يعده البعض من أجملها المؤسس الأول لعلم البلاغة العربية (٢) ، ويقول الجاحظ فيه : لم أر أحدا أقوى على الخمس والمزدوج مما قوى عليه بشر وقد كان في ذلك أقدر من أبان (٢٠٠ هـ) ، وله قصيدتان طويلتان في الحيوان وعجائب صنع الله في خلقه (٣) ، وأشهر تلاميذه : ابن أبي دؤاد وثمامة وأبو موسى المردار ، ولبشر قصيدة في أربعين ألف بيت في الرد على جميع المخالفين (٤) ، وكان أروى المعتزلة للشعر (٥) .

٢ - ثمامة بن الأشرس (٢١٣ هـ) ، وهو أحد شيوخ الجاحظ ويقول فيه « وما علمت أنه كان في زمانه قروى ولا بلدى بلغ من حسن الإفهام مع قلة عدد الحروف ولا من سهولة المخرج مع السلامة من التكلف ما كان بلغه (٦) » .

وكان ثمامة واحد دهره في العلم والأدب كما يقول المرتضى ، حبسه الرشيد ثم عفا عنه ، وعلا شأنه أيام المأمون ، وكان مستشاره المؤمن (٧) ، قدم تلميذه يحيى بن أكرم إلى المأمون فاستوزره ، وكان ثمامة يريد حمل المأمون على رأى في الاعتزال وهو لعن معاوية على المنبر فأبى عليه المأمون ذلك (٨) ، وهو صاحب مذهب في المعتزلة يسمى « الثمامية » ، وهو الذى نشر الاعتزال بين الناس (٩) .

(١) ١ : ١٢٦ البيان (٢) ٣ : ١٤١ و ١٤٣ ضحى الإسلام

(٣) ٦ : ٢٨٤ الحيوان وما بعدها (٤) ٣ : ١٤٤ ضحى الإسلام

(٥) ٦ : ٤٠٥ الحيوان - وراجع في ترجمته ١ : ٨١ اسان الميزان ، ٢ : ٣٣ مفاتيح العلوم ، ١٤٧ الزركلى .

(٦) ٢ : ٤٢٢ أمراء البيان نقلًا عن البيان (١ : ٨٩) (٧) ٢١٥ طيفور

(٨) ٨٠ و ١٥٢ : ٣ ضحى الإسلام (٩) ٣ : ١٥٠ الحيوان

ويذكر الجاحظ حريق دار له (١) ، ويصفه بالكرم (٢) وبالجدل (٣) ، ويصف بلاغته (٤) وعنايته بأسلوبه (٥) ، وكان كثير أ ميسير في حاجات الناس من المعتزلة والشيعة (٦) ، وبغض المعتزلة للشيعة معروف ، ويضرب الجاحظ المثل بكراهية المعتزلة للشيعة من كلام رواه على لسان الكندى (٧) ، ويروى أبو عثمان عن ثمامة في « الحيوان » و « البيان » كثيرا .

### ٣ - أحمد بن أبي دؤاد (٢٤٠ هـ) :

قربه يحيى بن أكرم من المأمون فعلت مكانته عنده ، وأصبح مرموقا من الناس ومن الشعراء والأدباء ، واتصل به الجاحظ بعد أن نكب صديقه محمد عبد الملك بن الزيات عام ٢٣٣ هـ ، وقد كان مزورا عن ابن أبي دؤاد ، مقربا إلى ابن الزيات ، وأهداه الجاحظ كتابه « البيان » فأجازه عليه بخمسة آلاف دينار ، وللجاحظ شعر فيه ، وكان له نفوذه وتأثيره في سياسة الخلافة في عهد المأمون والمعتصم والوائق وهو الذي نصر بهم الاعتزال وحمل المأمون على القول بخلق القرآن عام ٢١٢ هـ (٨) ، وعلى امتحان العلماء به ، وظلت هذه المسألة مسألة الدولة والشعب من عام ٢١٢ هـ حتى عام ٢٣٤ هـ ، وكان ممن ذهب إلى القول بخلق القرآن : الجعد بن درهم (١٢٧ هـ) ، وجهم بن صفوان (١٢٨ هـ) ، ويزيد بن هارون (٢٠٦ هـ) ، وبشر المريسي (٢١٨ هـ) المتكلم (٩) ، ويحيى بن معين (٢٣٣ هـ) .

(١) ٢ : ٣١٧ البيان ، ١ : ٦١ البخلاء

(٢) ٢ : ١٥٦ - ١٥٨ البخلاء (٣) ٢ : ١٧١ البخلاء

(٤) ١ : ١١١ البيان (٥) ٢ : ٧٣ البخلاء

(٦) ١٦٤ و ١٦٥ رسائل الجاحظ (٧) ١ : ١٦٣ البخلاء

(٨) ١٤٩ رسائل الجاحظ

(٩) ١ : ٣٧٣ العبر للنهي ، ٧ : ٦٧ تاريخ بغداد للخطيب

وَمَنْ امْتَحَنُوا بِالْقَوْلِ يُخْلِقِ الْقُرْآنَ أَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ (٢٤٠ هـ) ، وذلك عام ٢١٩ هـ على يَدَيِ الْمُعْتَصِمِ (١) ، وبسبب هذه المسألة كره الناس الاعتزال والمعتزلة . وكان ابن أبي دؤاد عالماً بضروب العلم والأدب ، منصرفاً إلى صناعة الكلام على مذهب الاعتزال .

هذا هو الاعتزال ، وهؤلاء هم المعتزلة ، وأشهر أئمتهم إلى عصر المتوكل ..

ولما جاء المتوكل أبطل القول بخالق القرآن ، وقرب المحدثين إليه عام ٢٣٤ هـ ، وبذلك بدأ نجم المعتزلة في الأفول ، ومع ذلك فقد حمل دعوته طبقة بعد طبقة ، وظل نفوذ المذهب الفكري سائداً بين المسلمين ، وكان دفاع المعتزلة عن الإسلام شيئاً يستحق التقدير .

وللمعتزلة الفضل في وضع الأسس الأولى للبلاغة والكلام والجدل والمناظرة ، وكان المتكلمون من المعتزلة من أكثر الناس حفظاً للشعر ، وكان بشر بن المعتمر أرواهم للشعر (٢) ..

وقد تركت دعوة المعتزلة حركة فكرية قوية في الإسلام استمر صداها حتى اليوم ..

---

(١) ١ : ٢٧٦ العبر ، ١٤٩ - ١٥٢ رسائل الجاحظ

(٢) ٦ : ٤٠٥ الحيوان

## الفصل الثاني

### الجاحظ ومذهبه في الاعتزال

- ١ -

كان الجاحظ إماماً من أئمة المعتزلة ، وشيخاً من كبار شيوخهم ، وعلماء من أشهر أعلامهم . . . ويعد من الطبقة السابعة في المعتزلة (١) .

درس الاعتزال في البصرة ، وكانت هي المدينة التي ظهر فيها المذهب ، وغلب عليها سلطان المعتزلة الفسكري ، وكان من شيوخه في المذهب أبو اسحاق النظام ( ١٨٠ - ٢٢١ هـ ) ، فعنه أخذ ، ومنه تعلم ؛ ولا يعلم بمن سلف وخلف أفصح من الجاحظ (٢) ؛ وكذلك أخذ عن ثمامة ، وبشر بن المعتمر ، ولقي أحمد بن أبي دؤاد ؛ وعاصر حركة المعتزلة الفكرية في البصرة وبغداد ، حتى أصبح حجة في المذهب ، وقطباً من أكبر أقطابه .

وانفرد الجاحظ من بين المعتزلة بآراء خاصة به ، تابعه عليها لفيف من الناس ، وكان لها أنصارها ومريدوها وتلاميذها ؛ وسموا « الجاحظية » ؛ فكان شيخ مذهب منهم ، ورأس فرقة من بينهم ؛ وللجاحظ كتب كثيرة في الاعتزال ، وضاعت كلها ؛ ومن بينها :

١ - فضيلة المعتزلة ، رد عليه ابن الراوندي بكتابه « فضيحة المعتزلة » ودافع عنه الخياط في كتابه « الانتصار » .

---

( ١ ) ٢ : ٣٢٢ أمراء البيان

( ٢ ) ٤ : ١٩٦ مروج الذهب

٢ — الاعتزال وفضله على الفضيلة ، وقد يكون هو عين الأول .

٣ — فضيلة الكلام ، وللرازي ( ٣٢٠ هـ ) كتاب في الرد عليه عنوانه : مناقضة الجاحظ في كتابه « فضيلة الكلام » .

٤ — خلق القرآن .

وذلك عدا كتب أخرى في الاستطاعة ، وخلق الأفعال وغيرها ، وقد فقدت مؤلفات الجاحظ الاعتزالية وبقيت بعض كتبه الأدبية والموسوعية .

ومن كلام : ابن الراوندي ، والبغدادى ( ٤٢٩ هـ ) صاحب كتاب « الفرق بين الفرق » ، وابن حزم ( ٤٥٦ هـ ) ، والشهرستاني ( ٤٤٩ - ٥٤٨ هـ ) في كتابه الملل والنحل ، نعرف أن الجاحظ كان يذهب إلى آراء كثيرة ، وكان صاحب مذهب اعتزالي واضح . .

وخلاصة مذهب الجاحظ الاعتزالي هو مايلي :

أولا - الصدق والكذب :

جمهور علماء الكلام يرى أن الخبر ينقسم إلى صادق وكاذب ثم اختلفوا بعد ذلك فقال :

١ — أكثر الجمهور إن صدق الخبر مطابقة حكمه للواقع ، وكذبه عدمها ، وهذا هو المشهور والراجح بين الأكثرين .

٢ — وقال غيرهم إن صدق الخبر مطابقة حكمه لاعتقاد المخبر صوابا كان أو خطأ ، وكذبه عدم مطابقة حكمه له ، وهذا هو مذهب النظام .

أما الجاحظ فقد أنكر انحصار الخبر في الصدق والكذب ، وزعم أن الخبر ثلاثة أقسام : صادق - كاذب - غير صادق ولا كاذب ؛ لأن الحكم إما مطابق للواقع مع اعتقاد المخبر له أو عدمه ، وإما غير مطابق مع الاعتقاد أو عدمه .

فالأول - وهو المطابق مع الاعتقاد - هو الصادق ، فصدق الخبر عند الجاحظ هو مطابقة الخبر للواقع مع اعتقاد المخبر بالخبر أنه مطابق له .

والثاني - غير المطابق مع الاعتقاد - هو الكاذب ، فكذب الخبر هو عدم مطابقته للواقع مع اعتقاد المخبر أنه غير مطابق له .

والثالث - المطابق مع عدم الاعتقاد أصلاً أرمع عدم اعتقاد المطابقة - وكذلك الرابع - غير المطابق مع عدم الاعتقاد أصلاً أرمع اعتقاد المطابقة - ليس كل منهما بصادق ولا كاذب .

فالصدق في الخبر عند الجاحظ مطابقة الحكم للواقع مع اعتقاده ، والكذب عدم مطابقته مع اعتقاده .

وغيرهما ضربان : مطابقته مع عدم اعتقاده ، وعدم مطابقته مع عدم اعتقاده ؛ فكل من الصدق والكذب بتفسير الجاحظ أخص منه تفسير غيره ، لأنه اعتبر في الصدق مطابقة الواقع والاعتقاد جميعاً ، وفي الكذب عدم مطابقتهما جميعاً ، أما الجمهور فاقصروا على الواقع ، والنظام اقتصر على الاعتقاد .

ومذهب الجاحظ جدير بالتأمل ، ويترتب عليه نتائج كثيرة ، لاداعي لتفصيل الكلام عليها هنا (١) .

---

(١) راجع مذهب الجاحظ في ذلك في جميع كتب البلاغة القديمة ، ومن بينها ( ١ : ٧٩ - ٨٢ ) للإيضاح للقرطبي - شرح مؤلف هذا الكتاب .

ثانيا : مذهب المعرفة عند الجاحظ <sup>(١)</sup> :

جرى الجدل حول أمر المعرفة بين علماء الكلام وخاصة المعتزلة في عصر الجاحظ وبعده ، واختلفوا حول ما إذا كانت المعارف ضرورية أو نظرية ، فذهب الجاحظ إلى أن المعارف كلها ضرورية ، إذ رأى أن المعرفة تستتبع العمل ، فالمعرفة لا بد أن يتبعها العمل ، أو لا بد لها من عمل كما يقول الجاحظ نفسه <sup>(٢)</sup> ، فالمعارف كلها ضرورية طباع ، وليس شيء منها من أفعال العباد ، وإنما وقعت منهم طباعا ، وليس لهم فيها اختيار على الحقيقة ، وإنما تنسب إليهم على أنها وجبت بإرادتهم ، فإنه ليس للعبد كسب سوى الإرادة <sup>(٣)</sup> .

وكان الفخر الرازي (٦٠٦ هـ) يذهب مذهب الجاحظ في المعرفة ويرى أنها ضرورية ، من حيث رأى غير الجاحظ أن المعارف نظرية ؛ وكان ثمة يقول إن « المعارف متولدة من النظر » <sup>(٤)</sup> ، ونحا هذا المنحى إمام الحرمين الجويني وكذلك الغزالي وغيرهما . .

و خلاصة رأى الجاحظ في المعرفة أنها ليست من فعل الإنسان ، لأنها متولدة إما من اتجاه الحواس أو من اتجاه النظر <sup>(٥)</sup> ، ولذلك قال الجاحظ : إن الإنسان في تحصيل معارفه ليس له إلا توجيه الإرادة ، وما يحدث بعد ذلك فاضطرار وطبيعة <sup>(٦)</sup> .

(١) راجع ١٣١ وما بعدها ج ٣ ضحى الإسلام

(٢) ٩٧ : ٢ الحيوان

(٣) راجع ٥٢ الملل والنحل للشهرستاني - ط أوروبا ، ٣ : ١٣١ ضحى الإسلام

(٤) ١٥٥ : ٣ ضحى الإسلام

(٥) ١٣٢ : ٣ المرجع

(٦) ١٣٣ : ٣ المرجع

ويذكر الأشعري أن الجاحظ كان يقول : إن ما للإنسان من الإرادة فهو للإنسان بطبعه ، وليس باختيار له ، وليس يقع منه فعل باختيار سوى الإرادة (١) .

وهكذا كان يرى الجاحظ أن معارف الإنسان معارف بطبعه ، فهو يلتمس اثبات بطبعه ، ويألم ويضطرب بطبعه ، وهو يقبل ما صح لديه من برهان ويرفض ما سواه ؛ وتوسع الجاحظ في هذا الباب قد أدى به إلى تضيق دائرة الكافرين الذين يعاقبون على كفرهم ، فعنده أن من لم تبلغه الدعوة وكذلك من بلغته ولم يؤده النظر إلى الإيمان بها ، ليسا بآثمين ، إنما آثم من قام لديه البرهان على صحة الدعوة ومع ذلك فقد أصر على العناد .

وفي ذلك يقول الغزالي : ذهب الجاحظ إلى أن مخالف ملة الإسلام من اليهود والنصارى والدةرية إن كان معاندا على خلاف اعتقاده فهو آثم ، وإن نظر فعجز عن درك الحق ، فهو معذور غير آثم ، وإن لم ينظر من حيث لم يعرف وجوب النظر فهو أيضا معذور ، وإنما الآثم هو المعاند فقط ، لأن الله لا يكلف نفسا إلا وسعها ؛ وقد عجزوا عن درك الحق ، ولزموا عقائدهم خوفا من الله تعالى إذ سد عليهم طرق المعرفة (٢) .

ويرد الغزالي على ذلك بأن هذا الرأي ليس بمحال عقلا ، ولو ورد به الشرع لكان جائزا ، ولكن اشرع أتى بعقاب قوم لم ينظروا ، وفي كتاب «فصل التفرقة للغزالي» يذهب مؤلفه إلى مذهب قريب من مذهب الجاحظ .

وقد دفع المعتزلة إلى بحث مسألة المعرفة أمران ، هما : هل الإنسان يخلق أفعال نفسه أو يخلقها الله تعالى فيه ، ثم الأفعال المتولدة من فعل هل تنسب

---

(١) ٤٠٧ مقالات الإسلاميين الأشعري

(٢) ٢ : ٣٥٩ المستصفى للغزالي

إلى الفاعل أو لا تنسب إليه . . على أنه ليس هناك تناقض بين قول الجاحظ  
بضرورة المعرفة وقول المعتزلة بأن الإنسان يخلق أفعال نفسه .

هذا وللجاحظ كتب في المعرفة ، وله كتاب بعنوان « أفعال الطبايع » .

ثالثا : آراء أخرى للجاحظ :

وذهب الجاحظ إلى آراء أخرى كثيرة منها :

١ — أن الخلق كلمهم من العقلاء عاؤون بأن الله تعالى خالقهم ، وعارفون  
بأهم محتاجون إلى النبي . وهم عجوجون بمعرفتهم ، ثم هم صنفان : عالم  
بالتوحيد ، وجاهل به ، فالجاهل معذور والعالم مخجوج .

٢ -- الكفار بين معاندين وبين عارف قد استغفرت حبه لمذهبه ، فهو  
لا يشكر بما عنده من المعرفة بخالقه . وبصدق رسوله . .

٣ — ليس بجائر أن يبلغ أحد ولا يعرف الله تعالى

٤ -- إن من دان بالإسلام وجب عليه أن يعتقد أن الله تعالى ليس  
بحسم ، ولا صورة ، ولا يرى بالأبصار ، وأنه عدل لا يجر ، وأنه لا يريد  
المعاصي ، فإن أقر بذلك كله بعد الاعتقاد والتبيين فهو مسلم حقا ، وإن عرف  
ذلك كله ثم جحد وأنكره ، أو دان بالتشبيه والجبر ، فهو شرك كافر حقا ،  
وإن لم ينظر في شيء من ذلك ، واعتقد أن الله تعالى ربه وأن محمداً رسوله  
فهو مؤمن ، لا لوم عليه . ولا تكليف له بغير ذلك .

٥ — ليس للإرادة أصل ولكنها جنس من الأعراض ، إذا انتفى  
السهو عن الفاعل ، وكان عالما بما يفعله فهو المرید على التحقيق ، وأما الإرادة  
المتعلقة بفعل الغير فهو ميل النفس إليه .

٦ — جائز أن يوصف الله تعالى بأنه مرید ، بمعنى أنه لا يصع في حقه

السمو في أفعاله ، ولا الجمل بها ، ولا يجوز أن يغلب أو يقهر .

٧ - لا يدخل الله النار أحدا ، ولا سكن النار هي التي تجذب أهلها إليها بطبيعتها ، ثم تمسكهم فيها على الخلود ، وليس معنى الخلود أن يصلوا فيها عذابا أبدا ، وإنما هم يصيرون إلى طبيعتها .

٨ - إن القدر خير وشره من العبد ؛ وكان اختلاف الناس في القدر على أن طائفة تقول : كل شيء بقضاء وقدر ، وتقول طائفة أخرى : كل شيء بقضاء وقدر إلا المعاصي ، ويندد الجاحظ بمن ذهب إلى أن الإيمان والكفر مخلوقان في الإنسان مثل العمى والبصر ، وأن الله يعذب الأبناء ليغيظ الآباء (١) .

٩ - الأجسام طبائع وأفعال مخصوصة بها ، فالجاحظ يثبت الطبائع الأجسام كما قال الطبيعيون من الفلاسفة (١) .

١٠ - محال أن يعدم الله الأجسام بعد وجودها ، وإن أوجدها بعد عدمها ، ولا يمكن ألبيته إفتاؤها إلا أن يرققها ، ويفرق أجزاءها فقط ، فالأعراض تتبدل ، والجواهر يستحيل عليها الفناء ، والقول ببقاء المسادة وعدم تلاشيها مذهب علمي معروف ، وهو - وإن كان العصر الحاضر ينسبه لعلماء الغرب - مذهب قديم سبق إليه الجاحظ كما رأينا .

١١ - ومذهب الجاحظ مذهب الفلاسفة في نفي الصفات . . . وفي إثبات القدر خير وشره من العبد يذهب فيه مذهب المعتزلة (٢) .

---

( ١ ) ٢٩٧ رسائل الجاحظ

( ٢ ) ٥٢ الملل والنحل للشهرستاني

( ٣ ) ٢ : ٣٢٢ أمراء البيان

وزعم ابن الراوندى فى كتابه « فضيحة المعتزلة » أن الجاحظ كان يقول : ومتى استحال أن يعدم الجسم بعد وجوده استحال أيضا وجوده بعد عدمه .

ورد عليه الخياط فى كتابه « الانتصار » ، فقال : وهذا كذب عظيم على الجاحظ ، فمل وجد هذا القول فى كتاب من كتبه فإن كتبه مشمورة ، أو هل حكاه عنه أحد من أصحابه ، فإذا كان الرجل ميتا فكيفه وأصحابه يخبران بخلاف ما قرف به ، وبعد فنقرأ كتاب الجاحظ فى الرد على المشبهة ، وكتابه فى الأخبار وإثبات النبوة وكتابه فى نظم القرآن . علم أن له فى الإسلام غناء عظيما . . .

وروى المقرئى ( ٧٦٩ - ٨٤٠ هـ ) نقلا عن الشهرستانى نقلا عن ابن الراوندى أن الجاحظ كان يذهب إلى أن القرآن المنزل من قبيل الأجساد . . وهذا أيضا لم يثبت عن الجاحظ ولا جاء فى كتبه ولا نقله عنه تلاميذه ، ولم يذكره الخياط فيما ذكر من مطاعن ابن الراوندى ( ٢٩٨ هـ ) فى المعتزلة عامة وفى الجاحظ من بينهم (١) خاصة ، ولم يذكره كذلك الأشعرى فى كتابه « مقالات الإسلاميين » الذى ذكر فيه آراء المعتزلة ومذاهبهم ، ولم يذكره خصوم المعتزلة الآخرون من أمثال ابن قتيبة ( ٢٧٦ هـ ) والبغدادى ( ٤٢٩ هـ ) وابن حزم وسواهم .

ويذهب الجاحظ إلى عدم إمكان رؤية الجن ، وتأول أحاديث ورد فيها رؤيتهم ، واستهزأ بمن يعتقدونها على ظاهرها (١) ، وهو رأى النظام (٢) ، وأنكر انشقاق القمر وقال إنه لم يتواتر الخبر به (٣) ، وهو صدق لرأى النظام أيضا (٤) ، الذى ذهب إلى أنه سيقع يوم القيامة .

وقد نفى الجاحظ العصمة عن الأنبياء ، وخالف بذلك أكثر المعتزلة الذين يقولون « إن ذنوب الأنبياء خطأ من جهة التأول والاجتهاد أو السهو ، ولا يجوز لهم أن يفعلوا قصدا ما علموا أنه ذنب (٥) .

---

(١) ١ : ١٤٥ الحيوان

(٢) ٦ : ٧٧ الحيوان ، وكذلك أنكر الجاحظ استراق الشياطين للسمع (٦ : ٤٩٦ الحيوان) .

(٣) ٢ : ٤١٥ أمراء البيان

(٤) ٣ : ٨٦ ضحى الإسلام

(٥) ١٤٥ المعتزلة لرحمى جلاله

## الفصل الثالث

### مكانة الجاحظ بين المعتزلة

- ١ -

تأثر الجاحظ بأستاذه النظام ، فكان نتاجاً له ، وصورة من صورة في  
البلاغة والمنطق ، وفي منهج البحث ، وفي سعة الاطلاع ، وفي تحرير العقل ،  
وفي الإيمان بمبدأى الشك والتجربة قبل اليقين والاعتقاد ؛ وقد يكون  
الجاحظ لا يعادل بالنظام في حدة الذهن ولا في الجرأة ، ولكن ربما فاقه في  
اطلاعه على الكتب المترجمة إلى العربية من الفارسية واليونانية ، بحكم  
تقدم الزمن ، وازدهار حركة الترجمة والتأليف ؛ رجع ذلك فقد كان لتحرره  
الفكرى يعارض النظام ، وألف كتاباً في الرد عليه . . ومات النظام شاباً ،  
وعمر الجاحظ طويلاً ، وعلا مجده ، وزاد نفوذه ؛ ورزقت كتبه الشهرة  
والذيوع ، بما أضفى عليها من فكره المتوهج الذكي ، وأسلوبه البليغ  
الفضفاض .

وعاش لساناً للمعتزلة ، مدافعاً عنها ، مناصراً لها ، يوضح مشكلات  
مذاهبها الفكرية والروحية ، ويقف في وجه من يتعرض للمذهب ورجاله ،  
ويدافع عن نظرية الحسن والقبح ، والتعديل والتجوير ، وخلق القرآن ،  
وألف كتابه « خلق القرآن » . ونوه بالخلفاء العباسيين ، الذين حملوا فكرة

---

(١) راجع ص ١٤٩ و ٢٩٧ و ٢٩٨ رسائل الجاحظ ، من رسالته في  
بنى أمية . حيث يذكر الجاحظ توضيحاً المفكرة « خلق القرآن » .

الاعتزال ، ودافعوا عنها ، ونشروها بنفوذهم وساططهم ، كالمؤمن والمعتصم والواثق ، فيقول في رسالته في بنى أمية : « وقد كانت هذه الأمة لا تتجاوز معاصيها الإثم والضلal ، حتى نجمت هذه النوابت ، وتابعتها هذه العوام ، فصار الغالب على هذا القرن الكفر وهو التشبيه والجبر ؛ وكانوا شركاء من كفر منهم بتوليهم وترك إكفارهم ؛ وأرجو أن يكون الله قد أغاث المحقين ورحمهم ، وقوى ضعفهم ، حتى صار ولادة أمورنا في هذا الدهر الصعب أشد استبصارا في التشبيه من علينا » (١) .

ويشرح الجاحظ تحدى الله بالقرآن ، ويرد على النظام في نفي الإعجاز البياني عنه (٢) ، ويتحدث عن خلق القرآن (٣) ، وعن امتحان أحمد بن حنبل وما حدث له في هذا الامتحان أمام المعتصم من تعذيب ، وما دار معه من جدل (٤) .

وهكذا تجد الجاحظ قد ربي ونشأ في الاعتزال ، وحضر مجالسه واستمع إلى المناقشات حوله ، واشترك في جدال خصومه ، فعليه نشأ ، وعنه ناضل ، وله ألف ، وإن خالف أئمة المذهب في مسائل تبعته فيها فرقة سميت « الجاحظية » .

وكان (٥) الجاحظ لا يرى طريق النجاة للناس إلا إذا فهموا الإسلام

(١) ٢٩٩ رسائل الجاحظ

(٢) ١٤٣ - ١٤٥ المرجع ، إلا أن الجاحظ يذكر في الحيوان صرف الله نفوس العرب عن مبارضة القرآن وكأنه مذهب له ( ٤ : ٨٩ الحيوان )

(٣) ١٤٩ المرجع (٤) ١٥٠ - ١٥٢ المرجع

(٥) ٢ : ٢٥٣ أمراء البيان

على حقيقته ، وكانوا مع المذهب الاعتزالي في جملته وتفصيله ، وفي قوته وزياده عن الدين . . وكان حربا عوانا على المخالفين والملحدن والكافرين ، وعلى الفرق الضالة من رافضة ومشبهة ومجسمة وغيرها ؛ فرد على المشبهة وعلى الجهمية ، وعلى الرافضة ؛ وكذلك رد على الرنادقة والمأنوية والمرتدة ، وعلى الشعوبية (١) ، وغيرهم ، وردده على من ألحد في كتاب الله ، وردده على بصيرة غنام المرتد ، معروفان ، وهكذا لم يقصر أبو عثمان في واجب الدفاع عن الدين ، ونضال أعدائه ؛ ومن عجب أن ينكر خصوم المعتزلة والجاحظ من بينهم فضله (٢) ، ويرموه بالإلحاد والزندقة ؛ وقد ترفع الجاحظ عن مجادلتهم وحجاجهم .

إن ظهور الجاحظ في عصر انثالت فيه الفرق والمذاهب والآراء على العالم الإسلامي ، كان فضلا من الله وخيرا كثيرا ، فقد دافع عن الإسلام ، وجاهد في الله حق جهاده ، وخاصم آراء الفرق الضالة ، وجادل أهل الكتاب بالحسنى ، من يهود ونصارى (٣) ، منوها بالنصارى ذاكر أن فيهم أطباء ومنجمين وأهل صناعات ومتكلمين وفلاسفة حكماء وكتابا وتجارا ، ومزريا باليهود وكسالمهم وحقارتهم وجملهم .

جادل الجاحظ كما رأينا كل الفرق المنحرفة ، وأطال في حجاج الزنادقة (٤) ؛

(١) راجع ٣ : ٦ البيان

(٢) يعرض الجاحظ في صدر كتاب « الحيوان » لآراء خصومه ، بمن حشروه مع الناصبة والضرارية وغيرهما من الفرق الضالة ( ١ : ١١ الحيوان ) .  
(٣) وله كتاب « الرد على النصارى » وكتاب « حجج النصارى على المسلمين » وقد ألف الكتاب الأول استجابة لرغبة الوزير الفتح بن خاقان .

(٤) في الحيوان ( ٤ : ٤٧ ) يذكر جماعات من الزنادقة ، ومنهم حماد عجرد ( ١٦١ هـ ) ، ويونس بن هارون الذي كتب كتابا بالك الروم في =

ونفى أن يكون عندهم إمام بفلسفة أو حكمة غريبة أو صنعة أدب أو تعريف بصناعة (١)، وجل ما في كتبهم ذكر النور والظلمة، كما أطال في الجدل مع الدهريين ممن «ينفى الرب، ويحيل الأمر والنهى، وينكر جوانب الرسالة، ويجعل الطينة قديمة، ويحدد الثواب والعقاب، ولا يعرف الحلال والحرام»؛ وكذلك كان موقفه مع المانويين أتباع ماني، الذين قالوا بمبدأين في العالم، مبدأ الخير ومبدأ الشر، ومع المجوسيين (٢) ممن جعلوا أصل العالم النور والظلمة وقالوا إن النور أزلى والظلمة محدثة.

ورأى الجاحظ معاملة العابثين بالأديان بالصرامة والقسوة فقال : «من لم يعمل بإقامة جزاء السيئة والحسنة، وقتل في مواضع القتل، وأحيا في مواضع الأحياء، وعاقب في موضع العقوبة، خالف الرب في تديره، وظن أن رحمته فوق رحمة ربه».

وهكذا شرع الجاحظ المعتزلى يراعه البليغ في الرد على خصوم الدين، وأصحاب الآراء الضارة، وكل مذهب هدام... بل لقد كان يرد على كل قول لا يحالفه الصواب والحكمة، ولو صدر من مسلم، سمع من شيخ من شيوخ البصريين أن الله تعالى جعل نبيه أميا لا يكتب، لينفرد بتعليمه الفقه وأحكام الشريعة، وبقصره على معرفة مصالح الدين، وليجعله نبيا ويتولى أمر تعليمه بما هو أذكى وأنى، فإنما نقصه ليزيده، ومنعه ليعطيه؛

---

= مثالب العرب (٤ : ٤٨) حيوان أيضا (ومن قتل بتهمة الزندقة بشار وصالح ابن عبد القدوس (١٦٧ هـ)).

(١) ٥٦ : ١ «الحيوان»، والزنادقة هم فرقة الديسانية نسبة إلى السرياني بارديسانص، وكان يرى الجاحظ قتلهم، فقد أجمعوا على أن قتل البعض إحياء للجميع كما يقول الجاحظ.

(٢) راجع ٩٨ : ٥ حيوان

ولم يرض الجاحظ بهذا القول فقال : وقد أخطأ هذا الشيخ ، ولم يرد إلا الخير ، وقال بمبلغ عليه ، ومنتهى رأيه ؛ ولو زعم أن أداة الحساب والكتابة وأداة قرض الشعر كانت فيه تامة وافرة ، مجتمعة كاملة ، ولكنه صلى الله عليه وسلم صرف تلك القوى وتلك الاستطاعة إلى ما هو أركى بالنبوة ، وأشبه بمرتبة الرسالة ، لما كان ذلك مانعا من وجوب تصديقه (١) .

وهكذا كان الجاحظ قوة متدفقة قوية في الدفاع عن الدين ، وفي دفع خصومه عن حياضه ، وفي رد الآراء الخاطئة ، وتصحيح الأفهام في كل ما يتصل بالإسلام ، حتى لقد ندد بتقصير السلف في جمع سيرة الرسول وعلاماته وبرهانه ودلالته وآياته وصنوف بدائعه وأنواع عجائبه في مقامه وظعنه (٢) .

— ٣ —

وكان الجاحظ يميل إلى استخدام العقل والاعتماد عليه في تفسير كتاب الله (٣) ، ويخاصم من يفسر كلام الله على ظاهر مناه ، فالعقل الصحيح عنده أساس من أسس التشريع ، ووضعه في شكل غير الشكل الذي يوضع عادة وهو القياس المقيد في عرف الفقهاء (٤) ، وكان ينقد المفسرين ، لأنهم يميلون إلى الغريب من الألفاظ والأخبار والروايات من غير تمحيص ، ولذلك دعا إلى تحكيم العقل في الروايات فيما يعرض له من التفسير وكذلك الحديث ، ويقف لتفهم العلل ، ويرجع إلى المعقول وطبائع الأشياء ؛ وقد هاجم رجال الحديث ، ورماهم بالقصور ، ووصفهم بأنهم

---

(١) البيان الجزء الثالث ص ٢٢٤

(٢) ٢ : ٣٥٣ أمراء البيان ، ورسالة الجاحظ حجج النبوة من مجموعة رسائل الجاحظ .

(٣) ٢ : ١٤٨ ضحى الإسلام

(٤) ٣ : ١٣٩ المرجع

بما عرّن لا يعملون عقولهم فيما يروون (١) ، وكذلك كان النظام الذى هاجم المحدثين ، وحكم العقل فى الحديث (٢) ، ويقول : « العجب من ترك الفقهاء تمييز الآثار ، وترك المتكلمين القول فى تصحيح الأخبار ؛ والحجة حجتان : عيان ظاهر ، وخبر قاهر ، فإذا تكلمنا عن العيان وما يفرع منه ، فلا بد من التعارف فى أصله والتعارف فى فرعه ، فالعقل هو المستدل ، والعيان والخبر هما علة الاستدلال وأصله ، ومحال كون الفرع مع عدم الأصل . . والعقل نوع واحد ، والدليل نوعان : شاهد عيان يدل على غائب ، ومجيب خبر يدل على صدق (٣) .

والمعتزلة يتشددون فى الحديث وروايته وأويله ، ويردون كثيرا بما لم يثبت من طرق موثوق بصحتها ، ويسمون المكثرين منه على علته « الحشوية » ، ومن ثم لم يقبل الجاحظ أن يكون كحاطب ليل فما كان من الأحاديث مرضى الإسناد (٤) صحيح المخرج قبله ، وما كان مسخرط الإسناد فاسد المخرج نبذه ، وهذا أثر من آثار مذهب المعتزلة الذين لا يقبلون كل ما يروى ، وكان الزهرى من قبل وكذلك مالك بن أنس ينقدان الإكثار من الحديث ؛ وكان أحمد بن حنبل يشك فى روايات المفسرين ، ويرى أنها كالملاحم والمغازى - ليس لها أصل .

وقد كانت البصرة تحفل بكثير من المحدثين فى عصر الجاحظ ، وفى مقدمتهم : حماد بن زيد بن زيد بن درهم الأزدي إمام أهل البصرة (١٧٩ هـ) ، وعوانة بن الحكم (١٥٨ هـ) ، وابن أبي ذئب (٨٠ - ١٥٩ هـ) ، وشعبة

(١) ١ : ١٦٦ الحيوان

(٢) ٣ : ١٦٦ ضحى الإسلام

(٣) ١١٧ رسائل الجاحظ من رسالته « حجج النبوة »

(٤) وذلك ينفى ماورد عن أبي العيناء من أنه هو الجاحظ وضع حديث

فدك (٥ : ٣٤٤ اسان الميزان) .

شيخ البصرة (١٦٠ هـ) ، وحماد بن سلمة (١٦٧ هـ) ، ومعتمر بن سليمان (١٨٧ هـ) وسواهم من أعلام الحديث في عصره ، في البصرة وغير البصرة ؛ ممن أخذ الجاحظ عنهم ، وفي تاريخ بغداد أن الجاحظ حدث ابن أبي داود بأحاديث (١) .

ومذهب الجاحظ في تكريم العقل هو مذهب المعتزلة ، الذين مجدوا العقل ، وبالغوا في تمجيده ، ومن ثم كان في تفسيره للقرآن يعتمد على المعقول أكثر مما يعتمد على المنقول ، وقد نقد القصاص والمحدثين ، والمفسرين والفقهاء والعلماء والإخباريين ، ونقد الرواية الأدبية والتاريخية ، ونقد الشعر والشعراء ، وأبدى آراءه في البيان والبلاغة وفي الكثير من المشاكل والمسائل ، وحكم في كل ذلك ذوقه العلمي ، وعقله المنطقي ، واستشار فيه فكره ، ورجع إلى حكم عقله ؛ بل لقد نقد المتكلمين والفلاسفة ، فنقد « النظام » وألف كتابا في الرد عليه ، وقال فيه مرة : لا رحم الله النظام ولا من قال بقوله ؛ ونقد السكندى الفيلسوف في بعض آرائه ، ونقد الكثير من المذاهب والفرق والآراء ، ونقد أرسطو في كتابه « الحيوان » ، حيث كان ينقل آراءه ؛ ويعلق على بعضها بقوله : « هذا غريب » ، أو بقوله « ولم أفهم هذا » ، ولم كان ذلك (٢) ، ١٩

وهكذا نقد بعقله كل ما لا يستساغ من رواية أو رأى أو حكم ، وزاه يتهم بقول ابن حائط وأناس من جهال الصوفية « إن في النحل أنبياء لقوله تعالى : وأوحى ربك إلى النحل » (٣) . . . ولقد نقل الجاحظ وإخوانه

(١) راجع الجزء الثاني عشر ترجمة الجاحظ ، ٢٤ أدب الجاحظ للسندوبي .

(٢) راجع ٣ : ١٦٢ ، ٤ : ١١ و ٧٦ الحيوان

(٣) ٥ : ٤٢٤ الحيوان

المعتزليون العلوم الإسلامية إلى مجموعة من القضايا العقلية ، والبراهين المنطقية .

وقال الجاحظ كذلك بحرية الإرادة ، وغلا فيها أمام قوم سلبوا الإنسان إرادته ، وجعلوه كالريشة في مهب الريح .

ويهزأ الجاحظ بقول بعض المفسرين : إن السنور خلق من عطسة الأسد ، وإن الخنزير خلق من سلحة الفيل (١) ، وبتفسيرهم لرهوس الشياطين في قوله تعالى : « طلعها كأنه رهوس الشياطين » - بأنها ثمر شجرة تكون ببلاد اليمن ، ويرى أن المتكلمين لا يعرفون هذا التفسير وأن الله عز وجل ما عني إلا شياطين معروفين بهذا الاسم من فسقة الجن ومردتهم لأن مخرج الكلام يدل على التخويف بتلك الصورة (٢) .

وينكر الجاحظ الأوهام الشائعة من أن عند الجن والشياطين شيئاً من علم الغيب (٣) ، إنكاره لإمكان رؤيتهم أو سماع صوتهم (٤) ، ويتهكم بخرافة الحوت الذى يحمل الأرض (٥) .

ومن نقد الجاحظ التاريخي تحقيقه لرواية في السيرة ، رد فيها نسب الرسول صلى الله عليه وسلم إلى الصواب ، حيث أثبت عدم صحة زواج كنانة بزواج أبيه النضر ، وكان شرع الجاهليين يحيز ذلك ، أى زواج الابن بزواج أبيه إذا كان الابن ليس منها .

(١) ٣٤٧ : ٥ الحيوان .

(٢) ٤٠ : ٤ و ٢١١ : ٦ الحيوان

(٣) ٩٢ : ٤ المرجع .

(٤) ٤٨ : ٦ المرجع .

(٥) ١٠٩ : ٧ و ١١٠ المرجع

و قد استهزأ الجاحظ بما روى من أن الحجر الأسود كان أبيض فسوده  
المشركون ، فقال : كان يجب أن يبيضه المسلمون حين أسلموا (١) .

وكان - بكيفية المعتزلة - ينقدون الصحابة والتابعين بحرية تامة (٢) .

وهكذا نجد الجاحظ يتبع آثار العقل وحكمه ، ويقف من القصاص  
في التفسير والرواية في الحديث موقف الناقد المنصف ، والمتثبت الحصيف .

إن الجاحظ في جملة الأمر كان أبلغ لسان في المعتزلة ، وشيخا من  
شيوخهم ، وإماما من أئمتهم ، وهو فيهم واسطة العقد ، وسوف يظل اسمه  
فيهم خالدا ، ومكانته بينهم رفيعة جليلة . .

#### - ٤ -

وثقافة الجاحظ الاعتزالية ظهر أثرها في كتبه وآرائه ، فهو من جانب  
يحكي آراء المعتزلة ومذاهبهم ، وهو من جانب آخر يذكر أعلامهم ،  
ويروى لهم ، وينقل عنهم ، ويعتد بأحكامهم على الأمور والأشياء .

وقد غلب على الجاحظ أمران : الكلام على طريقة المعتزلة ، والأدب  
ممزوجا بالفلسفة والفكاهة (٣) .

ومن أجل ذلك كان للجاحظ على الأدب والفلسفة فضل يعتد به . ففي  
الأدب أغزر معانيه ، وجعل له موضوعا بعد أن كان ليس ذا موضوع ،  
ورسائله ناصعة الأسلوب ، غزيرة المعاني ، لها موضوع ولها شكل ، واحدة  
في المعليين ، وأخرى في التجار ، وثالثة في القيان ، ورابعة في الغناء ، وخامسة

(١) ٧٢ تأويل مختلف الحديث لابن قتيبة .

(٢) ٨٨ : ٣ ضحى الإسلام .

(٣) ٤٢٢ : ١ عصر المأمون .

فى الفكاهة والسخرية اتخذهما موضوعا علميا لرسائلته « الترييع والتدوير » ،  
التي تضمنت الكثير من المسائل العلمية والعقلية والفلسفية والأدبية ، مما  
كان يشغل أذهان الناس فى عصر الجاحظ ؛ وهكذا أغنى الأدب من حيث  
المعانى ، وقوة العقل ، وسعة الذهن ، وتوليد الأفكار العقلية ، والنظر إلى  
الكون والطبيعة ، وإجراء التجارب عليها وتبين دلائل القدرة فيها .

وقد غاص أبو عثمان فى المعانى غوصا ، ونقل الأدب من لفظ رشيق  
إلى معنى عميق ، ومن عبارات مجملة منمقة إلى موضوعات واسعة مسمبة ،  
وبعد أن كان الأدب ضحل الثقافة أصبح مظهر الثقافة معقدة عميقة ؛ بل لقد  
وجه الذهن إلى وجهات لم تكن قبله ، كان النثر قبله خطاباً ترصف فيها الجمل  
رصفاً ، أو جملاً حكيمياً ، أو أمثالا سائرة ، ولكنه جعل الأدب كتباً ، كل  
كتاب يدور حول موضوع اجتماعى أو أدبى ، أو رسائل ، كل رسالة لها  
نواة تدور حولها ؛ وفى الفلسفة جمد الجاحظ فى صياغتها صياغة أدبية قريبة  
إلى الأذهان ، لا كما كان يفعل حنين وبختيشوع ، بل عمد إلى مزج كلام  
أرسطو بكلام البلغاء ، وأقوال الفلاسفة بأشعار الشعراء وأدب الأدباء .

كان من الأعلام القليلين الذين لهم أثر كبير فى الدين وفى الكلام وفى  
الأدب ؛ ورزق الخطوة فى أسلوبه ، فكان سملاً عذبا رصينا فكها ، يتشبع  
المعنى ويقلبه على مختلف وجوهه ، ولا يزال يولده ، حتى لا يترك فيه قولا  
لقائل ؛ فلما استعمل أسلوبه هذا فى الاعتزال وفى المسائل الدينية قربها إلى  
عقول الناس وأذهانهم ، من حيث كانت قبله مركزة غامضة ، لا يدركها  
إلا الخاصة ، فجلى بأسلوبه غامضها ، وأوسع ضيقها ، وقربها إلى كل ذهن ،  
فاتسعت دائرة المعارف ، ووصلت به إلى عقول لم تكن تسيغ أقوال  
الفلاسفة والمتكلمين ، وأقنع أفهام قوم لم يكن يقنعهم القول الموجز  
والتعبير المجمل .

وعلى الجملة فإن أبا عثمان كان مظهر المعتزلة ، المحيط بأدبهم ، الناشر لأرائهم ، المجلى لأفكارهم ، مع أنه زاد عليها من أفكاره ، وجلاها بروائع أعماله .

ولقد احتل منزلة كبيرة بين أئمة المعتزلة ، وأورثه الاعتزال قوة في الحجاج ، وسعة وتنوعا في الثقافة ، وأكسب أدبه العمق والقوة ، وفلسفته الذبوع والانتشار .

إن الجاحظ فريد في هذا الباب ، بل هو نسيج وحده . وكتبه تدل عليه ، وآراؤه ترشد إليه ، وما بالك بسيف هذا أثره ، وبجحر هذا شرره ؟

---

البَابُ السَّادِسُ

الْجَا حِظُّ الْعَالَمِ

## الفصل الأول

### المعلم الأول للعقل العربي

- ١ -

كان الحاحظ من الجانب العلمى رفيع المنزلة بين علماء عصره ، عظيم المسكاة بين المفكرين العلميين فى زمنه ؛ وقد أعلى مكانته فى الفكر العلمى فى القرن الثالث الهجرى سعة ثقافته وتنوعها وإحاطته بثقافات الأمم المترجمة حتى كان أوسع أهل زمانه ثقافة (١) ، ولم تقف معارفه عند المنقول ، بل تعدتها إلى الأخذ من كل معقول . هذا مع تأثره بالمعتزلة عامة وبالنظام خاصة مع طول سنه وكثرة تجاربه ، ورحلاته فى البلاد ، وكثرة ملاقائه للعلماء ، ومحدثته للخبراء وذوى التجربة .. مع ازدهار الثقافة فى عصره ، وتشجيع الخلفاء وكبار رجال الخلافة له ، فكان عالما فوق العلماء ونظاراً محققاً يدرس الأشياء ويقتلها بحثاً ودراسة وتنقيباً .

كان منهاجه فى العلم واسعاً ، وهو فى كل ماخاض عبابه إخصائى ماهر ومتعمق بارع ، يتناول كل مايقع عليه الحس ، وتنظره العين ، وتشوف إليه النفس ؛ ولم يكن نظره فى كل ماكان يعاينه النظر المجرد ، بل نظر الفلسفة التى صححتها التجربة ، وأبرزها الامتحان ، وكشف عن قناعها البرهان ؛ لا تراه وهو يفكر فى جيد التفكير ، ويبحث فى كشف عن الحقائق ، لإداعيا إلى استعمال العقل ، وتجويد الفكر ، لأنه مع عدم الفكرة يكون عدم الحكمة وفى التفكير شحذ الأذهان ، وتنبيه لذوى الفعلة ، وتحليل لعقدة البلاد ، وسبب لاعتیاد الروية ، كما يقول الجاحظ .

وكان الجاحظ كما يقول عن بعض أهل العلم :

ولعل الجاحظ كان يعنى بذلك نفسه «حدثني بعض أهل العلم ، ممن طال  
ثراؤه في أرض الجزيرة ، وكان صاحب أخبار وتجربة ، وكان كلفا بحب  
التبيين ، معترضا الأمور ، يحب أن يفضى إلى حقائقها وتثبت أعيانها بعلمها  
وتمييز أجناسها ، وتعرف مقادير قواها ، وتصرف أعمالها ، وتنقل حالاتها  
وكان يعرف للعلم قدره ، (١) .

وكان يجرى على أسلوب الفلاسفة والمنطقيين والعلماء والمتكلمين في قياسه  
يقول : وينظروا في العلة التي اضطرتنا إلى هذا القول ، فإن كانت صحيحة  
فالصحيح لا يوجب إلا هذا الصحيح (٢) .

ولم يقتصر الجاحظ على ذكر البراهين النظرية ، بل استعان بالشعر  
والتاريخ ، وبما يعرف من أحداث ، وما جرب هو نفسه من تجارب ، ومزج  
ما تعلم بما قرأ بما سمع بما شاهد بما جرب ، كما مزج الشعر بعلم أرسطو بطب  
جالينوس ، ومزج أقوال البلغاء بأراء الطبيعيين والدهريين بالنصرانية  
واليهودية والمساويين والزرادشتيين ، وهذا كله مزاج عسير الهضم ، لولا  
ما خطر فيه من أسلوب سمح فضفاض ، ونفس مرحة (٣) .

وكان عقل الجاحظ قويا قل أن يقبل الأوهام ، بل يهزأ بمن يقبلها ،  
يعتمد على التجربة وينبئ على ضوئها أحكامه ، ويشك ويدعو إلى الشك حتى  
تثبت النظرية ، ويستغرب الإنسان اليوم من صحة منطقة ، وسبقه إلى نظرات  
في منهج البحث لم تعرف إلا في العصر الحديث ؛ كما أنه سبق إلى اتجاهات  
قيمة في سيكولوجية الحيوان ، فهو يراقب نداء الديك بالليل ، ويبحث :

هل إذا كان في قرية وحده يصبح أولا ، ليعلم هل تصبح الديكة بالتجاوب أو بطبعها ، ويراقب الدجاج : هل تكثر أفرأخها إذا كثر عديدها أو تقل ويلاحظ المكلب ملاحظة دقيقة ليعلم مقدار ذكائه ، ووجوه تنبئه ، والفروق الدقيقة بين أصنافها ؛ إلى كثير من أشباه ذلك (١) .

- ٢ -

وأساس البحث العلمي هو سلطان العقل ، وقد استفاد الجاحظ من المعتزلة والنظام القول بسلطان العقل (٢) ، يقول (٣) : « أكثر الناس سماعا أكثرهم خواطر ، وأكثرهم خواطرا أكثرهم تفكرا ، وأكثرهم تفكرا أكثرهم علما ، وأكثرهم علما أرجحهم عملا ، كما أن أكثر البصراء رؤية للأعاجيب أكثرهم تجارب » .

واعتراف الجاحظ بمجودة العقل والمعرفة ؛ ومن ثم حذر من اغترار الإنسان بما ألف ، وبما يمرض لقلبه بادیء الرأي ورأى الناس يحتاجون إلى طبيعة ثم إلى معرفة ، ثم إلى إنصاف بأن لا يعطى نفسه فوق حقها ، وأن لا يضعها دون مكانها ، وأن يتحفظ من شينين ، فإن نجاة لا تتم إلا بالتحفظ منهما : أحدهما تهمة الإلف ، والآخر تهمة السابق إلى القلب . .

وبهذا ينادى الجاحظ إلى وجوب تحرر العالم من المألوف ومن المعرفة الأولى أثناء بحثه ومحاويلته الوصول إلى الحقائق ؛ ويقول الجاحظ : إذا سمعت الرجل يقول « ماترك الأول للآخر شيئا فاعلم أنه ما يريد أن يفلح (٤) » وهو بهذا يفتح باب التجديد واسعا على مصراعيه أمام أى باحث وعالم ؛

(١) ١ : ٤٢٠ المرجع (٢) ٣ : ١٢٩ المرجع

(٣) ٢ : ٣٩٠ أمراء البيان

(٤) ٢ : ٩ البيان ، ويقول الجاحظ كذلك ، ومن أضر ذلك قولهم « لم يدع الأول للآخر شيئا ، فلو أن كل علماء كل عصر مذجرات هذه الكلمة في أسماعهم تركوا الاستنباط لما لم ينته إلهيم عن قبيلهم لرأيت العلم مختلا .

ويقول في ترك الاعتماد على أحكام الحواس وحدها دون محاولة الإفادة من حكم العقل ، فيقول : « لعمري إن العيون لتخطيء ، تذهب إلى ما تريك العين ، واذهب إلى ما يريك العقل ؛ والأمور حكمان : حكم ظاهر للحواس ، وحكم باطن للعقول ، والعقل هو الحجة (١) ؛ ويقول في ذلك أيضا : لعمري إن العيون لتخطيء وإن الحواس لتكذب ، وما الحكم القاطع إلا للذهن ، وما الاستبانة الصحيحة إلا للعقل ، إذ كان زماما على الأعضاء ، وعيارا على الحواس .

ودعا الجاحظ إلى التفكير ، وإلى الملاحظة قائلا : « لاتشفيني إلا الملاحظة » ، وكرر الدعوة إلى عدم الاعتراض بما أفتته النفس وسمعته ، وألا تهوى الغرائب إلا بامتحانها والنظر فيها ، كما دعا إلى محبة التكشيف والتنقيب .

وحذر من ترك التمييز اغترارا بالظهور بمظهر التجديد ، تحذيره من تخريف المحترفين من العوام ، والمضللين ممن كان بسيلهم من الخواص ، لأن في الخواص دجالين أيضا ، من « لا يدينون بالحقيقة ، ولا يحمدون إلا ظاهر الحيلة » ، ورأى في بعض الخواص أضر على سير العقل من العوام . ولطالما حزت بلاهة الخواص في قلبه ، وهو لا يبرح يهزأ بهم ، ويبين خفايا الضعيف والمتحول من رواياتهم ، وعلل التخريف في الناس بحكم التقليد والعادة ، داعيا إلى ترك سبيل المقلدين ، وإلى النظر بالعقل وللتثبت من الأخبار (٢) .

وعقل الجاحظ العلمي لم يكن يستسيغ الأساطير والخرافات ، فقرأ بالشائع من الخرافات في عصره (٣) ، وبروايات العرب عن السعالى وأولاد

---

(١) ١ : ٢٠٧ الحيوان

(٢) ٢ : ٣٩٥ أمراء البيان

(٣) ١ : ٨٧ الحيوان

السعالى من البشر ، وبما روى من الشعر فى رؤية الجن وأحاديثهم ، وينقد العلماء من مثل أبى زيد الأنصارى فى أنه يروى هذه الأمور (١) ولا ينقدها ؛ ويقول إنه أمين ثقة ، ولكن ينقصه النقد لمثل هذه الأخبار (٢) ، والجاحظ يذهب فى ذلك مذهب أستاذه النظام الذى أنكر ما روى فى الشعر من أحاديث عن الجن وعن سماع أصواتهم ، وعلل له تعليلا سيكولوجيا فلسفيا دقيقا (٣) وهذا كله دعم لرأى المعتزلة الذين ذهبوا إلى عدم رؤية الجن ، وقرروا أن طبيعتهم لا تمكن الإنس من رؤيتهم (٤) .

وذلك أن المعتزلة ينكرون قدرة الناس على رؤية الجن بدليل قوله تعالى : ( إنه يراكم هو و قبيلة من حيث لا ترونهم ) (٥) ، وقد تأول الجاحظ أحاديث ورد فيها رؤية الشياطين ، واستهزأ بن اعتقدها على ظاهرها (٦) ، وقال : « ليس من الناس من رأى شيطانا قط على صورته » .

ومع اعتقاد الجاحظ بما يكشفه العقل من حقائق الكون ، لم يتجاوز إلى أكثر مما كتب له إدراكه ، قال (٧) : « ولو وقفت على جناح بعوضة وقفة معتبر ، وتأملتة تأمل متفكر ، بعد أن تكون ثاقب النظر ، سليم الآلة ، غواصا على المعاني لا يعتريك من الخواطر إلا على حسب عقلك ... » والإنسان وإن أضيف إلى المكال ، وعرف بالبلاغة وناش العلماء فإنه لا يكمل أن يحيط علمه بكل مافى جناح بعوضة أيام الدنيا ، ولو استمد بكل نظار عظيم ، واستعان بكل بحث داع وكل نقاب فى البلاد ، ودراسة للكتب ... » (٨) ، ويقول الجاحظ : إن الخطأ كثير غامر ومستول غالب ، والصواب قليل خاص ومقموع مستخف .

(١) وذلك فى مقدمة كتابه « جمهرة أشعار العرب »

(٣) ٦ : ٧٧ الحيوان

(٢) ١ : ٨٦ الحيوان

(٥) راجع ٣ : ٨٧ المرجع

(٤) ٣ : ١١٦ ضحى الاسلام

(٧) ١ : ٢٠٨ الحيوان

(٦) ١ : ١٤٥ الحيوان

(٨) ٢ : ٣٩٢ أمراء البيان

## الفصل الثاني

### مذهب الجاحظ العلمي

- ١ -

يقوم المذهب العلمي الحديث على أسس مقررّة هي :

١ - الإقبال على البحث بروح علمي نزيه محايد مستعد لقبول الحق واعتقاده .

٢ - الشك في الموضوع حتى تثبت صحته .

٣ - التجربة التي تبدأ بالملاحظة ثم الاستقراء ، ثم الموازنة والترتيب ثم الاستنباط ، القائم على المقدمات للوصول إلى النتيجة .

وهذا هو المنهج العلمي الذي ادعى ليكون أنه من ابتكاره ، وفي الواقع أنه كان فيه تلميذاً لعلماء المسلمين ، وخاصة النظام ، والجاحظ في هذا المجال ، ولنتبع آراءهما في هذا الميدان . . . لنرى كيف اهتدى علماؤنا إلى أحدث المناهج العلمية التي تسير عليها الجامعات اليوم في الغرب والشرق .

- ٢ -

الشك والحياد الفكري بدء الحركة في العمل العلمي وكان النظام يقول :  
« الشاك أقرب إليك من الجاحد ، ولم يكن يقين قط حتى صار فيه شك ،  
ولم ينتقل أحد من اعتقاد إلى اعتقاد غيره حتى يكون بينهما حال شك (١) ؛

وعلى ضوء هذه المفكرة سار الجاحظ الذى قال : « اعرف مواضع الشك وحالاتها الموجبة له ، لتعرف بها مواضع اليقين والحالات الموجبة له ، وتعلم الشك فى المشكوك فيه تعلما ، فلو لم يكن فى ذلك إلا تعرف التوقف ثم التثبت لقد كان ذلك مما يحتاج إليه ، ثم اعلم أن الشك فى طبقات عند جميعهم ، ولم يجمعوا على أن اليقين طبقات فى القوة والضعف ، ولما قال أبو الجهم للمسكى : أنا لا أكاد أشك ، قال المسكى : وأنا لا أكاد أوقن ، ففخر عليه المسكى بالشك فى مواضع الشك ، كما فخر عليه أبو الجهم باليقين فى مواضع اليقين (١) ، وقال النظام : نازعت من الملمحين الشاك والجاحد ، فوجدت الشاك أبصر بجوهر الكلام من أصحاب الجحود ، والشاك أقرب إليك من الجاحد ، والعوام أقل شكوكا من الخواص (٢) .

وقد شك الجاحظ فى كل خبر تناقض واستحال (٣) ، وفيما امتنع على الطبيعة وخرج من طاقة الحلقة (٤) ؛ وقرر أنه إذا خرج الخبر من هذين البابين ، وجرى عليه حكم الجواز ، فالتدبير فى ذلك التثبت ، وأن يكون الحق فى ذلك ضالتك ؛ والصدق هو بغيتك ، كائنا ما كان ، وقع منك بالموافقة أم وقع منك بالمسكروه (٥) ؛ وكذلك شك فى كثير مما ليس يمتنع فى القدرة أو الطبيعة (٦) ، وقال : كل قول يكذبه العيان فهو أفش

( ١ ) ٦ : ٣٥ الحيوان .

( ٢ ) ٦ : ٣٦ الحيوان .

( ٣ ) ٣ : ٢٣٨ و ٢٣٩ الحيوان .

( ٤ ) ٦ : ٣٤ المرجع ، وأوجب معرفة الفرق بين المحال والممتنع وما يستحيل كونه من الله وما يستحيل كونه من الخلق ( ٣ : ٢٧٤ الحيوان ) .

( ٥ ) ٣ : ٢٣٩ المرجع .

( ٦ ) ٣ : ٣٦١ ، ٧ : ١٢٥ الحيوان .

خطأ (١) ، والجاحظ لا يميل إلى الظن والحدس ، بل يميل إلى أن يكون ظنه أقرب إلى الحقيقة بل هو الحقيقة (٢) .

وقد تابع العلماء المسلمون النظام والجاحظ في هذه السبيل ، كابن رشد والغزالي وغيرهما ، فالغزالي مثلاً في كتاب « المنقذ من الضلال » يقرر أنه لم يقتنع بالدين التقليدي ، واتجه إلى العلم بحقائق الأمور ، وبناء دينه على يقين ، ولذلك بدأ بالشك في كل ذلك ، حتى يقوم البرهان على صحته ، وقال : كل ما أعلمه على هذا الوجه ولا أتقنه هذا النوع من اليقين فهو علم لائقة به ولا أمان معه ، وكل علم لا أمان معه فليس بعلم يقيني ، ومذهب ديكارت معروف لا داعي لتفصيل الكلام فيه .

وإذا كان النظام يعتبر الشك أساماً للبحث ، ويعتمد إلى التجربة واستخدام المنطق في البحث عن الحقائق ، فإن الجاحظ كان يجعل الشك سبيلاً إلى اليقين ، وهو يضيف إلى الشك النقد العلمي ، فهو مغرم بالتنبيه - كما ذكرنا سابقاً - على الخرافات ، والنيل من أصحابها ، فقال ينقد السكندري أستاذه النظام (٢٢١ هـ) ، كما نال من أرسطو من قبل (٢٢٢ ق م) وأخذ عليه أنه لم يعتمد في تحقيقه على العيان والسماع والامتحان ، أي التجربة ، وأنه إذا تسكلم في بعض الأحيان على حيوان لا يستوفى عجائبه (٣) .

(١) ٣ : ٣٦١ المرجع .

(٢) راجع ١٥٢ - ١٥٨ النقد المنهجي عند العرب لداود سلوم .

(٣) وقد سبق أن أشرنا - في ثقافة الجاحظ وما أخذه عن اليونانية - إلى بعض مما نقد فيه الجاحظ أرسطو . ومنه نقده لأرسطو فيما زعمه من أن ولد الفيل يخرج من بطن أمه نابت الأسنان لطول مسكته في بطنها ، ويقول الجاحظ في هذا إن قلبي ليس يقبله واست أثبت بإنكاره ، ونقده كذلك فيما ذكره من أن ثوراً وثب بعد أن خصى على بقرة فأحبها (٥ : ٥٠٢ ، ٥٠٣ الحيوان) -

وأما التجربة أو الامتحان - كما يعبر الجاحظ أحيانا - فقد استخدمها الجاحظ استخداما بارعا عجيبا ، وكذلك كان أستاذه النظام (١) ، فهو يسقى الخنزير للحيوانات ليرصد نتائج ذلك ، ويجرى تجارب على ذكر النعام ليعرف كيف يبتلع الحجر والحجارة المحماة والحديد والزجاج والمسامير وغيرها . وكان الجاحظ يستند أبدا على التجربة والملاحظة ، وأن يرى الأمور مع علمها وبرهاناتها ، يلاحظ ويحس ويتدبر ؛ لا يمتن شيئا في السكون ، وإن كان ضئيلا (٢) .

كان الجاحظ يريد الناس أبدا أن يجربوا (٣) بأنفسهم ، فهو يذكر آراء العلماء في أن عرق الخال أنزع من عرق العم وأن نصيب الأمهات في الأولاد أكثر ، فيقول : إن أكثر ما تلد الأمهات الإناث ، فإذا أردت أن تعرف حق ذلك من باطله فأحص سكان عشر دور من يمينك ، وعشر من شمالك ، وعشر من خلفك وعشر من أمامك ، فأنظر أيهما أكثر : رجالهم أم نساؤهم .

وكان الجاحظ يعتمد في التجربة إلى طرق مختلفة ، ويجمع إلى معونة

---

= وينقده كذلك فيما ذهب إليه من عقوق العقاب وجفائها بأولادها قائلا : « فأما أشعار العرب فهي تدل على خلاف ذلك (٧ : ٣٧ الحيوان) وينقده أيضا فيما زعمه من تولد كلاب من ثعالب وكلاب (١ : ١٨٤ و ١٨٥ و ١٩٠ الحيوان) .

(١) راجع ٢ : ٨٣ و ٣ : ١٣٩ و ٤ : ١٠٦ و ٦ : ١١ الحيوان .

(٢) يقول الجاحظ : « أوصيك ألا تحقر شيئا أبدا لصغر جثته ، واعلم أن الجبل ليس بأدل على الله من الحصاة ... » (٣ : ٢٩٩ الحيوان) .

(٣) ١٥١ و ١٥٢ النقد المنهجي عند الجاحظ لداود سلوم .

الحس معونة العقل ؛ فيعتمد الحواس والعقل في درك الأمور . فالعنصر الأول من عناصر تحقيقه التجريبي هو المعاينة . يصم إليها التجربة والفرض والمقابلة والتصنيف .

وللجاحظ الملاحظات الدقيقة ، والتوجيهات اللطيفة : حتى في أدق الأمور ، فهو يتساءل : لم يناعى الطفل المصباح ، وهل تلك المناغاة نافعة له (١) ، ويبحث في الألوان : هل أصلها السواد أو البياض ؟ وتختلف الألوان بقدر المزاج أولا ، وفي العلاقة بين البياض والضياء (٢) ، ويبحث عن سبب اختلاف ألوان النيران وألوان السحب (٣) ، وعن لغة الحيوان (٤) ؛ وعن العين وتأثيرها (٥) ؛ ويذكر آثار معركة بين جردوسنور (٦) ، ويصف برنية زجاج وضع فيها عشرون عقربا وعشرون فأرا ، وما فعات العقارب فيها بالفيران (٧) .

ويقول : إن الناس تزعم أن الأفاعى تكبره ريح السذاب والشيخ ، وجرب الجاحظ ذلك بنفسه وقال : أما أنا فإني ألقيت على رأسها وأنفها من السذاب ما غمرها فلم أجد على ما قالوا دليلا (٨) .

---

( ١ ) ٥ : ٤١ الحيوان .

( ٢ ) راجع ٢٣٢ رسائل الجاحظ ، ٥ : ٦٠ الحيوان .

( ٣ ) ٥ : ٢١ الحيوان .

( ٤ ) ٥ : ٨٩ الحيوان .

( ٥ ) ٢ : ٤٧ الحيوان .

( ٦ ) ٥ : ٧٧ الحيوان .

( ٧ ) ٥ : ٢٤٨ الحيوان .

( ٨ ) ٥ : ٣٦٥ و ١٣٣ : ٦ الحيوان ، وراجع ٣ : ١٠٨ بروكلمان .

ومن استقراءاته قوله : إنهم أحصوا أصناف نخل البصرة أيام المعتصم وإذا بها ثلاثمائة وستون ضرباً :

ويقول إن السمندل (١) لا تحترق له ريشة إذا أدخل أتون النار ويعلل ذلك بأن في طباعه وطباع ريشه مزاجاً من طلاء النفاطين (٢) ويقول : وكنت رأيت عوداً يؤتى به من ناحية كرمان لا يحترق ، وكان عندنا نصراني في عنقه صليب منه ، وكان يقول لضعفاء الناس : هذا العود من الخشبة التي صلب عليها المسيح والنار لا تعمل فيه ، فكان يكذب بذلك حتى فطن له . وعرض بهذا العود (٣) ، ويذكر عن ثمامة والمأمون أن الطحلب إذا جفف في الظل وأحرق فإنه لا يحترق (٤) .

والجاحظ ينظر إلى الحيوان في تولده ونشأته وموطنه وخصائصه وتربية صغاره وزقماً وإطعامها من لبن أو لعاب أو غير ذلك ؛ ويعرف تأثيره بالحر والبرد والشمس والظل ، وحذره من الآدميين ، إلى غير ذلك . وكان يتوفر على تربية بعض الأشجار والنبات ؛ توفره على تربية بعض الدواجن والحيوانات الأخرى ليصدر آراءه عن خبرة ، وحبه للطير ووصفه له موضع العجب والغرابة (٥) .

وقد روى الجاحظ تجارب كثيرة لغيره من معاصريه كالنظام ومحمد بن الجهم الذي أنجز تجربة على الذباب لمعرفة ما إذا كان يأكل البعوض أم لا (٦) .

(١) طائر كالفراشة يطير حول المصباح

(٢) ٥ : ٣٠٩ و ٦ : ٤٣٤ الحيوان

(٣) ٥ : ٣١٠ الحيوان

(٤) ٥ : ٣١٠ و ٦ : ٤٣٤ الحيوان

(٥) مجلة دعوة الحق - فبراير ١٩٦٤ - د ، زكي المحاسني - مقال

(٦) ٣ : ٣٢٠ و ٣٢١ الحيوان

وكان الجاحظ ينقد الآراء الشائعة بعقله العلمى ، فهو لا يؤمن بقول الناس إن فى حمص طلسم يمنع العقارب من أن تعيش فيها ، ويعلل ذلك باحتمال وجود حيوان مضاد للعقرب يمنعها من أن تعيش فى هذا البلد ، ويهزأ بوجود طلسم يمنع البعوضة إذا عضت أن تكون لها حرقة ، ويكذب ذلك بأثر التجربة (١) ، وهكذا كان يذهب إلى التجربة فى الإنسان والحيوان والنبات ، ويفضلها على كل نقل . . . ويأخذ نتائج تجارب الناس والخبراء ؛ فهو يسأل الجزارين ويصحح منهم أخبارا كاذبة شاعت عند الناس (٢) ، ويسأل الحوائين (٣) ويتهمهم بقول من زعم أن الضبع تكون عاما ذكرا وعاما أنثى (٤) .

ويقول أناس من أهل البصرة : إن خاقان بن الأهمم استوفى فى بطن أمه ثلاثة عشر شهرا فيرد عليهم الجاحظ بأن هذا ليس بالمستنكر وإن كنت لم أرقط قابلة تقر بشيء من هذا الباب (٥) ؛ وكان الجاحظ — على غزير علمه وتوسعه فى البحث — يسأل جميع الناس عما يهمهم ، وما يريد أن يتفهمه ، فهو يسترشد بآراء الحراس وأرباب الصناعات ، وقد يأخذ بآراء البحريين إذا رويوا له غرائب يقبلها عقله ، وأخذ كذلك من الكتب المترجمة ما وافق عليه عقله ، ورد منها ما لم يقبله ، وكل ما وصفه من أنواع الحيوان فقد نظر إليه بعين ثاقبة ، ووصفه وصفا دقيقا ، حتى لكأنه رآه المرة بعد المرة ، بل أجرى تجاربه عليه ، ودقق فيه ، ونظر ما قاله فيه من قبله (٦) .

(١) ١٢٠ : ٥ الحيوان

(٢) ١٤٩ : ٦ الحيوان

(٣) ٨٠ : ٥ الحيوان

(٤) ١٦٨ : ٧ الحيوان

(٥) ١٢٥ : ٧ الحيوان

(٦) ٤٠٩ : ٢ أمراء اليمان

ويذكر الجاحظ خرافة العامة بالبصرة من أن تسافد الغربان هو تطاعمها بالمناقير ، وأن لقاحها إنما يكون من ذلك الوجه ، ويقول : ولم أر العلماء يعرفون هذا (١) .

ويذكر رأى العامة من أن «الجلل إذا نحر ومات فالتسوا خصيته وشقشقتها لم يجدوها ، ويتشكك في ذلك ، ثم استوثق بنفسه من أن ذلك من الخرافات (٢) .

وذكر الجاحظ الكثير من الأوهام الشائعة ، وصححها ووجهها ورد الناس فيها إلى العقل وإلى الصواب .

ومن استقرانه العلوي ملاحظه في البصرة من أن يبادر القتر لاترى على شيء منها ذبابة لاليل ولا نهارا ، ولا في البرد ولا في الحر ، من حيث يكثر الذباب خارج البصرة ويقع على كل شيء (٣) .

وقد وصف الجاحظ الأهواز وهواها وتأثيره في الطباع والأجسام ، وكذلك وصف تأثير الهواء في الإنسان والحيوان في حرة بنى سليم في عالية نجد ، وقال بتأثير البيئة في الكائنات الحية ، قال عن الأهواز إن كل من نزلها من بنى هاشم قد قلبتهم في طباعهم وشمائلهم ، ولا بد أن يكون لوجه الهاشمي وشمائله طبائع يبين بها من جميع قريش وجميع العرب ، فقد كانت البلدة تنقل ذلك ، فتبدله ، ولقد تحيفه وتدخل الضنى عليه ، فما ظنك بصنيعها بسائر الأجناس ؟ ولم أر بها وجنة حمراء لصبي ولا صبية ، ولا دما ظاهرا ، ولا قريبا من ذلك ، وهى قتالة للغرباء ، وحماتها ليست للغريب بأسرع منها إلى القريب (٤) .

(١) ١٧٧ : ٣ الحيوان

(٢) ١٤٩ : ٦ الحيوان ، ١٠٨ : ٣ بروكلمان

(٣) ٢٠٤ : ٥ الحيوان (٤) ١٤٠ : ٤ الحيوان

وقال في حرة بنى سليم : إنهم ليتخذون الممالك للرعى والسفر والمهنة والخدمة من الروميين والصقالبة مع نسائهم فما يتوالدون ثلاثة أبطن حتى تقلبهم الحرة إلى ألوان بنى سليم ، ولقد بلغ من أمر هذه الحرة أن طباءها ونعامها وذئابها وثعالبها وحميرها وخيلها وإبلها كلها سود ، والسواد والبياض هما من قبل خلقة البلدة وما طبع الله عليه الماء والتربة ، ومن قبل قرب الشمس وبعدها ، وشدة حرها ولينها ، وليس ذلك من قبل مسح ولا عقوبة (١) .

وبهذا ذهب الجاحظ إلى تطور الأحياء حسب البيئة وتعاقب الأيام ، ويعلل ذلك تعليلا مقبولا ؛ كما يعلل عذوبة المطر والثلج وملوحة مياه البحر بعلل معقولة .

إنه كان يذهب في العلم وفي الدين وفي كل شيء مذهب العقل وصدق الحس لا يحكم غيرهما ولا يحكم بسواهما ، فتراه يشرح الصاعقة ويعلل لها تعليلا عقليا (٢) ، وتراه يجرى بنفسه تجارب في شتى فنون العلم وخاصة مباحث الطبيعة والأحياء ، ولا يقتصر على مصادره العلية وحدها .

ومما اهتدى إليه الجاحظ بعقله العلى الحاد أن النمل تأخذ من الحب الذى تدخره للشتاء جزء الإنبات والتناسل لئلا يفسد ويتعفن ، وقد أعجب الباحثون بذلك ومنهم برادن (٣) ، وكان « بليزوس » قد اهتدى إلى ذلك من قبل ، ولكن أبا عثمان انما اهتدى إليها بتجربته الخاصة ، لا بالنقل من غيره .

(١) ٤ : ٧٠ و ٧١ ، ٥ : ٣٧٠ الحيوان : ويقول الجاحظ : كل من أقام بقصبة « تبث » اعتراه سرور لا يدري ماسبه (٧ : ٢٣٠ الحيوان)

(٢) ٥ : ٨٧ الحيوان

(٣) راجع ٣ : ١٠٧ بروكلمان

وقد ظلت آراء الجاحظ في التجربة منهاجا علميا للباحثين المسلمين بعد عصره ، فذهب ابن رشد إلى أن كل ما أدى إليه البرهان والعقل وخالفه ظاهر الشرع يقبل التأويل ، وقال الإمام الشافعي : « إن هذا العلم دين ، فانظروا عمن تأخذون منه ، وذهب ابن حزم إلى حرمة التقليد ، وعندهم أخذ سيكون ، وإليهم رجوع ، فمن الخطأ أن تنسب هذه الطريقة التجريبية إلى الغرب ، ولا تنسب إلى مصدرها الأصيل ، وهم العلماء المسلمون أولا ، وفي مقدمتهم أبو عثمان الجاحظ .

- ٤ -

ولقد كان الجاحظ يدعو إلى الجمع بين التخصص العلمي والثقافة العامة ، وكان على سعة صدره لا يقبل التخليط من أحد ، ولا يغتفر الخطأ من عالم ، ومن رؤية أن الرجل لا يكتب إلا فيما يتقنه ، فلا يتناول إلى ما لا يعلم ، ومن ثم نقد الجاحظ الخليل وابن المقفع لأنهما كتبوا في علم لا يحسنانه ، فكتب الخليل في الإيقاع واللحن ، وكتب ابن المقفع في الكلام .

والجاحظ في ذلك صورة لآراء أستاذه النظام الذي كان يذهب إلى أن المتعلم يجب أن يكون ملما بالثقافة العامة إلى ثقافة أخرى متخصصة (١) ، وكان يعتقد بموهبة العالم ويرى أن الإنسان بدونها لا يمكن أن يصير عالما (٢) فأخذ كل ذلك الجاحظ عن أستاذه ، ونادى بثقافة عامة (٣) بجانب الثقافة الخاصة (٤) .

والجاحظ لم يكتب ما كتب إلا بعد الدرس الطويل ، والخبرة الواسعة ،

(١) ٣٠ : ١ الحيوان

(٢) ١١٨ : ٣ ضحى الاسلام

(٣) ٢٦١ رسائل الجاحظ

(٤) ١١٧ : ٣ ضحى الاسلام

وبعد أن عانى من الأبحاث ما عانى، ومارأيك في رجل أحاط بأكثر ما كان في أيدي عصره من ثقافات ومعارف، وعرف ما كان في زمنه في الأرض من أعاجيب، ولم يحتقر شيئاً يدخل في باب العلم والثقافة، ولم يستنكف أن يأخذ من صغار الناس كما كان يأخذ من كبارهم، وكشف كل غامض، واستقرأ كل باب، واستنبط العديد من مجاهيل العلم؛ كل ذلك في عصر كان الناس فيه يؤثرون السماع من الأسانيد الأخذ عن الرواة، ويفضلون ذلك على مطالعة الأسفار، وقراءة دواوين العلم؛ لا يخفون بالتقيد والتسجيل كثيراً، ويرون على الدوام الأخذ من الأفواه، فوجه أفكار أمته وجهة أخرى ورغبها في الكتاب، ليكون للناظرين فيه كل ساعة مورداً يستقون من معينه، فصح لقومه أن يشمروا في اقتناء الكتب، ويتباروا في جمع كل وسائل المعرفة من كتاب وأستاذ ورحلة ومشافهة ومناظرة وجدل ورواية، ويضمنوا تأليفهم خلاصة ما جمعه، وأحاطوا به من آراء ومذاهب.

وكرر في الناس أن الكتاب يمنح صاحبه تعظيم الجماهير، وصداقة الملوك، والثراء العريض، ومن ثم أولع أبو عثمان الجاحظ بالكتاب وبالتأليف، ومن دلالة الحوادث أن مات وكتبه تنهال عليه وتدفنه بينها.

---

# البَابُ السَّابِعُ

الجاحظ الأديب

# الفصل الأول

## شخصية الأديب

- ١ -

ما الأدب ؟

سؤال غامض ، نستطيع أن نسأله ، ولا نستطيع أن نجيب عنه ، كما يقول « سانت أوغسطين » : « إنى أعرف إذا لم أسأل فإذا سئلت لم أعرف » .

وإذا قلنا إن الأدب يشمل الشعر والنثر الفنى والرسائل والخطب والأمثال السائرة والمقامات عند العرب القدماء ، وإنه قد اتسع مجال نشاطه الفنى ، فأصبح عند المعاصرين ، كما كان عند الغربيين ، شاملا للفن القصصى والمسرحى وللشعر بكل أنواعها ، وللمقالة والترجمة والنقد كذلك ؛ وإن النثر الأدبى اتسع عندهم كما اتسع عند الغربيين ، فشمل الكثير من الكتابات الفلسفية والتاريخية والاجتماعية ، كما شمل النادرة والخطرة .

كنا بمنابذة من يحدد معالم الطريق وهو يريد أن يتعرف إلى طبيعة أجناس الأدب وألوانه المختلفة .

وكان القدماء من الأدباء يقولون أن الأدب هو الأخذ من كل فن بطرف (١) ، وهو هذه الثقافة الواسعة التى تعد ضرورية فى بناء الأدب وتكوين الأديب . وأدب الجاحظ أصدق مثل لهذه النظرية التى قررها النقاد القدماء ، ومن بينهم ابن خلدون ( ٨٠٨ هـ ) فى مقدمته المشهورة ،

---

(١) ٨٨ : المقدمة لابن خلدون .

ويقول الجاحظ من رسالته في «صناعات القواد» التي كتبها للمعتصم (١):  
«فخض يا أمير المؤمنين أولادك بأن يتعلموا من كل الأدب، فإنك إن  
أفردتهم بشيء واحد، ثم سئلوا عن غيره لم يحسنوه».

ولقد كتب الجاحظ في كل شيء، وأخذ من كل فن بطرف، كتب في  
الحيوان والنبات، في الشعر والنثر والخطب والرسالة، كتب في الفكاكة  
والسخرية، وفي القصة والتأدرة، وفي الجدل والحوار، وفي المعلمين والفتيان،  
وفي شتى الموضوعات، من الفتيان إلى بني هاشم، ومن اللصوص إلى الذئاب  
ومن القيان إلى الكلام في صفات الله تعالى، ومن أمهات الأولاد إلى الولاة  
والقضاة، ومن الحور والعور إلى الإمامة (٢)؛ فأدبه موسوعي وكتبه  
دائرة معارف لزمه، وفيها فلسفة المتكلمين وطبقات الناس، والكلام على  
طبائع الحيوان ونمو النبات، وفيها الكثير من البحوث عن الأخلاق  
والسياسة والتاريخ. وقد مزج أبو عثمان فيما كان يكتبه العلم بالأدب،  
والرواية بالتجربة، والشعر المحدث بالإسلامي والجاهلي. بفلسفة أرسطو  
وطب جالينوس، بالقرآن والحديث وكلام البلغاء وحكم الحكماء؛ بآراء  
الطبيين والدهريين، والمانويين، والزرادشتيين، باليهودية والنصرانية،  
بأحكام العقل والتجربة - الامتحان والمشاهدة - بكل الثقافات في عصره،  
أصيلة أو دخيلة، فارسية أو هندية أو يونانية (٣)، فمثل امتزاج الثقافات في  
عصره خير تمثيل، حتى لنراه في «البيان» يعرض أدب العرب وأدب الفرس  
وحكم الهند وبلاغة اليونان، ونصائح المسيحية؛ وينقل عن فرس تعربوا من  
أمثال: الأسواري، وابن المقفع، وسهل بن هارون، وعن عرب أصلاء،  
من أعراب ورواة للأدب والأخبار، وقصاص وزهاد ووعاظ، ونقاد  
ولغويين ونحويين. وكذلك نجد كتابه «الحيوان» معرضا لكل الثقافات

---

(١) ٢٦١ رسائل الجاحظ.

(٢) راجع ١: ٤١٠ ضحى الإسلام.

(٣) راجع ١: ٤١١ ضحى الإسلام.

الدينية ، من دهرية وزرادشتية ، وما نوية ويهودية ومسيحية (١) .

وهكذا أحاط أدبه بكل لون من ألوان المعرفة ، وأخذ من كل فن من فنون الثقافة والأدب بطرف ، واتسع لكل نظرة وفلسفة ، وكان الأدب عنده هو ما أحاط بتلك الثقافات كلها ، وشملت معارفه كل المعارف ، كما أن العالم عنده من يحسن من كلام الدين بقدر ما يحسن من الفلسفة ، والمصيب والمحقق منهم عنده هو الذى يجمع بين تحقيق التوحيد وإعطاء الطبائع حقها من الأعمال (٢) ، ويقول الصفدى : « من وقف على كتاب الحيوان ، وغالب تصانيفه ورأى فيها الاستطرادات التى استطردها ، علم ما يلزم الأديب وما يتعين عليه من مشاركة المعارف .

وفد وقف العلماء بعد الجاحظ ينادون بما نادى به من موسوعية الثقافة وشمول الأدب ، كما يمثلون أنواعا مختلفة من الامتزاج بين الثقافات (٣) ، ومن بينهم : ابن قتيبة (٢١٣ - ٢٧٦ هـ) ، وأبو حنيفة الدينورى (٢٢٠ - ٢٨٢ هـ) وابن أبى الدنيا (٢٠٨ - ٢٨١ هـ) .. وكان ابن قتيبة ينقد الجاحظ لاعتزاليته ، وكان الجاحظ معتزليا وابن قتيبة من أهل السنة (٤) ، واتبع منهج الجاحظ فى التأليف فى كتابه «عيون الأخبار» .. أما أبو حنيفة الدينورى (٥) فكان يقرن بالجاحظ فى بلاغته ، واختلف الناس أيهما أبلغ ، فقال أبو سعيد السيرافى (٣٦٨ هـ) : أبو حنيفة أكثر حلاوة ، ومعانى أبى عثمان لائطة بالقلب ، سهلة فى السمع ، ولفظ أبى حنيفة أعذب وأعرب وأدخل فى أساليب العرب (٥) .

(١) راجع ١ : ٤٢٤ المرجع

(٢) راجع ٢ : ٤٨ الحيوان

(٣) ١ : ٤٢٥ ضحى الاسلام

(٤) راجع ٢ : ٢٣٠ بروكلمان

(٥) ١ : ١٢٤ معجم الأدباء (مرجليوث)

وبعدده أبو حيان التوحيدى (٥٤١٣) أحد ثلاثة لو اجتمع الثقلان على تقريرهم ومدحهم ونشر فضائلهم في أخلاقهم وعلمهم ومصنفاتهم ، ما بلغوا آخر ما يستحقه كل منهم: الجاحظ والدينورى وأبو زيد البلخى (٥٣٢٢)، ويصفه بأنه من نواذر الرجال ، جمع بين حكمة الفلاسفة وبيان العرب ، له في كل فن ساق وقدم ، ورداء وحكم . ويقول أحمد امين: إن ثقافته اليونانية والهندية كانت أوسع منها عند الجاحظ وابن قتيبة ، وإن علمه الرياضى يكمل نقصهما، يدل على ذلك تأليفه في الفلك والحساب والجبر والمقابلة وغيرها (١)، وكان ابن أبى الدنيا كذلك غزير الثقافة متنوع التأليف (٢) .

وبأى تعريف عرفنا الأدب ، وسواء : أقلنا إنه فن الكلمة ، أم إنه كل الآثار اللغوية التى تثير فىنا بفضل خصائص صياغتها انفعالات عاطفية أو إحساسات جمالية ، أو قلنا إنه الصياغة الفنية لتجربة بشرية شخصية أو تاريخية أو أسطورية أو اجتماعية أو خيالية ، أو قلنا إنه نقد الحياة ، وسواء أجعلناه أدب جمال أم أدب حياة ، وأدب عاطفة وانفعال أم ادب عقل وتفكير ، وسواء أجعلناه رسالة خلقية أم جمالية ، وسواء أقلنا إنه أدب حياد أو أدب رأى والتزام .

فإن الجاحظ ، على كل لون من ألوان الأدب ، وكل مذهب من مذاهبه ، أديب بكل معنى هذه الكلمة، بل عملاق فى الأدب العربى والآداب الإنسانية على مر الأجيال، وروائعه الفكرية والأدبية تضعه فى صف أعظم الأدباء فى العالم ، وقد ترجمت بعض كتبه إلى اللغات الأجنبية ، وقرئت فى الغرب بلهفة وشوق كما يقرأ أعظم الكتاب فى الغرب والشرق على السواء ، وهنا نذكر رأيا لبروكلمان فيه ، يقول : إن غرض الجاحظ من الكتابة والتصنيف كان هو

---

(١) ١ : ٤٣٠ ضحى الاسلام

(٢) ٣ : ١٢٩ - ١٣٣ بروكلمان

التسلية والمسامرة أكثر من الإفادة والتعليم ، وكان يعرض كتبه في أحسن صورة ، حتى لا يستثقل الناس قراءتها ، وقد صرح الجاحظ بذلك في الحيوان (١) .

ويعيننا هنا ما ذكره من أن غرض الجاحظ من الكتابة كان هو التسلية والمسامرة أكثر من الإفادة والتعليم والتوجيه ، ونحن لانجد ظلما للجاحظ ، وغبناله ، وسوء فهم لأدبه ، من أن يقال فيه ذلك ، فإن أبا عثمان لم يكتب ما كتب إلا لإفادة عصره ، وتوجيه أهل زمنه ، وثقيف أمته والأجيال التي تأتي بعدها ، ويقول كرد علي : إنه كتب ما أراد وما أريد منه ، وكأنه المفتي الحجة يستفتى في علوم الدنيا والآخرة فلا يلحق غباره أحد (٢) ، ويقول : ما ألف الجاحظ إلا عن باعث وأنه كان في الأكثر يتقدم فيعرض ماحمله على التأليف (٣) .

وبحق كان الجاحظ المعلم الأول للعقل العربي في عصره ، ولا يعقل أن يترك المعلم الأول رسالته من التثقيف والتوجيه إلى المسامرة والتسلية .

ولقد تمثلت شخصية الأديب حق التمثيل في الجاحظ ، فهي واضحة في كل ما أجرى به قلبه ونضحت به قريحته ، فإذا تناولت له أى كتاب أو آية رسالة ، لا تلبث أن ترى هذه الشخصية القوية مطلة عليك من خلال السطور ومن بين حروف الكلمات ؛ فلا تزال معها في سمر مطرب ، وحديث معجب ، حتى تضع الكتاب من يدك ، يملك عليك نفسك ذلك الطابع الخاص ،

---

(١) راجع ٣ : ١٠٧ بروكلمان ، ٥ : ٥١ الحيوان

(٢) ٢ : ٤١٩ أمراء البيان

(٣) راجع ٤٢٣ - ٤٤٠ : ٢ المرجع نفسه

الذى استأثر بكل كلمة من كلماته ، وشاع في كل جملة من جملة ، وعبارة من عباراته ، فتراه يبسط لك العبارة ، ويرفق من حواشيها ، حتى لتظن أنه قد أسف بها ، وأنه هبط عن مستوى البلاغة في تحبيرها ، فإذا تأملتها فضل تأمل ثم حاولت احتذائه فيها رأيته منك في ذؤاية الثريا ، وفي مناط العيوق . وهذه ميزة قد اختص بها من بين جميع الكتّاب ، حتى إنه عار بها رأس مذهب في الأدب ، كما هو رأس مذهب في العقائد ، فيقال في الأساليب العربية إذا كانت قد بلغت أعلى طبقات البلاغة ، وأسعى منازل البيان ، وكانت واضحة المعاني ، سهلة الالفاظ ، نقية الكلمات : «عبارة جاحظية» .

ويقال في الرسالة جمعت حر الكلام إلى التبسط في المعاني ، وكانت كثيرة الاقتنان ، آخذة فيها الموضوعات بعضها بذوائب بعض ، يتنقل فيها القارئ من فن إلى فن ، ومن لون إلى لون ، ومن معنى مولى إلى معنى مبتكر : «هذا أدب جاحظى» ... وله في هذا المذهب أنصار وتلاميذ ، كانوا في عصورهم أئمة البلاغة ، وما من كاتب منذ عهد الجاحظ إلى الآن إلا وللجاحظ في عنقه منة ، كما يقول القاضي الفاضل : «ما منا معشر الكتّاب إلا من دخل من كتب الجاحظ الحارة ، وشن عليها الغارة ، وخرج وعلى كتفه منها كارة» (١) .

ومن هؤلاء : أبو زيد البلخى (٣٢٢ هـ) ، وكان الجاحظ يشبه به أبا حنيفة الدينورى ، في سعة العلوم والمعارف (٢) ، وابن العميد (٣٦٠ هـ) ، وكان يلقب الجاحظ الثانى ، وكان من المعجبين المولعين به ، المقدرين له ، الذاهبين مذهبه في أسلوبه وكتابه ، ومن أشد الناس تعلقا به وبأدبه ،

---

(١) ص ٢٠٢ أدب الجاحظ للسندوبى

(٢) ٢ : ٢٣٠ بروكلمان

وكان يعنيه من معاصريه أن يلقبوه بلقبه، وكانت طريقة ابن العميد مزاجا بعض عناصره من كتابة الجاحظ، وبعضها من كتابة الديوانيين، وكان ابن العميد كثير الإشارة إلى الحوادث والإيراد للأعلام، والخوض في حقائق العلوم؛ وهذه الطريقة هي طريقة أبي عثمان فتح بابها للكتاب برسائله، وخاصة رسالته المشهورة «الترييع والتدوير» التي تبعه فيها ابن العميد في رسالته التي كتبها إلى أبي عبد الله الطبري، وابن الخوارزمي في رسالته الطويلة التي بعث بها إلى أبي الحسن البديهي الشاعر، وتناوله فيها بالسخرية والتهكم، كما تناول الجاحظ أحمد بن عبد الوهاب الثقفي، وكذلك فعل المعري في رسالة الغفران، وابن زيدون في الرسالة الهزلية.

ومن اتبعوا طريقة الجاحظ، وساروا في طريقه، ولقبوا بلقبه أبو حيان التوحيدى (٥٤١٣ هـ)، وكان جاحظيا يسلك في تأليفه مسلك أبي عثمان، ويجب أن ينتظم في مسلكه<sup>(١)</sup>، وقد نهج نهجه، والتم به، وخلفه في كثرة العلم وسعة الاطلاع، حتى لقبه معاصروه بالجاحظ الثاني، كما لقبوا ابن العميد.

ومنهم الحسن بن بشر الأمدى (٥٣٧١ هـ) صاحب «الموازنة»، وكان يسلك طريقة الجاحظ، ويتعاطى مذهبه فيما يؤلف من الكتب كما يقول ابن النديم في الفهرست. وكذلك كان المرزبانى (٥٣٨٤ هـ) إذ كان يوازن بالجاحظ، ويقول المتعصبون له: إنه كان أحسن تصنيفا من الجاحظ<sup>(٢)</sup>، وكذلك الحسن بن خلاد (٥٣٦٠ هـ) وكان ممن سلك طريقة الجاحظ، ومثلهم محمود بن عزيز الخوارزمي (٥٥٢١ هـ) أستاذ الزخشرى، ولكثرة حفظه

وفصاحة لفظه سمي الجاحظ الثاني . وفي العصر الحديث كان عبد العزيز البشرى يسلك طريقة الجاحظ ، ويتبع في تصغير العظيم وتعظيم الصغير مذهبه ، وقد شهر طه حسين بأنه جاحظ عصره .

ومن الكتاب الذين عاصروا الجاحظ نفسه من احتذوه في أساليبهم وأدبهم ، ومن بينهم إبراهيم بن العباس الصولي (٢٤٣ هـ) الذي احتذاه في أسلوبه ، مع أنه كان ممن انقاد له فن الشعر وفن النثر جميعاً (١) وغيره .

— ٣ —

ولقد أسهم الجاحظ ، في بناء النثر الفني وفي نهضة الأدب العربي إسهاماً كبيراً ، ولقد جاء بعد عبد الحميد الكاتب (١٣٢ هـ) وابن المقفع الذين كانا من أشهر الكتاب الواضعين لأصول الكتابة والنثر في الأدب العربي وكان عبد الحميد من كتاب الدولة الأموية ، وشهد ابن المقفع (١٤٣ هـ) جانباً من أول عصر العباسيين .

وخلفهما طائفة من الكتاب تأثروا بهما تأثراً واضحاً بعيد المدى في تطور النثر والكتابة ، ومنهم : يعقوب بن داود وزير المهدي ، وأبو الريح محمد بن الليث الذي كتب للمهدي والهادي والرشيد ، والقاسم بن صبيح ، وسمل بن هارون (٢١٥ هـ) وسعيد بن وهب وهو من كتاب البرامكة (٢) ، ويحيى بن برمك ثم ابنه : جعفر بن يحيى (١٤٢ - ١٨٧ هـ) والفضل بن يحيى (١٤٧ - ١٩٣ هـ) ، والفضل بن سمل (٢٠٢ هـ) ، والحسن بن سمل (٢٣٦ هـ)

---

(١) راجع ٢ : ١٨٥ المنهل في تاريخ الأدب العربي - روكس العريزي - طبع الأردن

(٢) توفي أيام المأمون ( راجع ١ : ١٠٥ الحيوان )

الذى يشيد به الجاحظ<sup>(١)</sup> ، وأحمد بن يوسف (٢١٢ هـ) وعمرو بن مسعدة (٢١٤ هـ) ، والعتابي (٢٢٠ هـ) ، ومحمد بن زداد وزير المأمون ، وإبراهيم ابن العباس الصولي (٢٤٣ هـ) ، والفضل بن الربيع (٢٠٨ هـ) .

ويقسم النقاد الكتاب إلى عدة طبقات (٢) :

١ - طبقة ابن المقفع ، ومن كتابها : يحيى بن زياد الحارثي ، وعمارة ابن حمزة (٣) ، وأبي أيوب المورياني ، وهؤلاء كتبوا للنصور .

٢ - طبقة عبد الملك بن صالح وأبي عبد الله بن معاوية ويعقوب بن داود ويحيى بن برمك . ويوسف بن القاسم ممن كتبوا للمهدي والهادي والرشد ، وكان الرشيد يصف عبد الملك بن صالح بالبداهة ، والارتجال ، وينكر ان يكون ممن يعدون كلامهم ، ويقول : هو طبع فيه ، وما رأى الناس أطلع منه في الفصاحة (٤) .

٣ - طبقة جعفر بن يحيى وأخيه الفضل ، واسماعيل بن صبيح ، والفضل بن سهل ، والحسن بن سهل وأحمد بن يوسف ، وعمرو بن مسعدة وأحمد بن أبي خالد الاحول ممن كتبوا للرشيد والأمين والمأمون .

٤ - طبقة ربيت في عصر المأمون ، وجمعت بين الآداب والبلاغة

---

(١) ١ : ٨٤ البيان (السندوني)

(٢) راجع : تطور الأساليب النثرية في الأدب العربي لأنيس المقدسي

(٣) كان صاحب رسالة الخنيس التي تقرأ لبني العباس ، وراجع رسالة الخنيس من المأمون إلى أهل خراسان (ورقة ١٠٧ - ١١١ : ١٢ اختيار المنظوم والمنثور لابن طيفور (٢٠٤ - ٢٨٠ هـ) ، والكتاب محظوظ بدار الكتاب المصرية رقم ٥٨١ أو ١٨٦٠

(٤) ١ : ١٠٠ و ٢ : ١٧٣ ديوان المعاني للعسكري

العربية والدخيلة ، وقرأت الكتب المترجمة ، وإليها انتهت البلاغة ،  
وفتحت أبواب البديع ، وبذ أعلامها خول الشعراء في عظمة الجاه والرياسة ،  
مثل : الجاحظ وابن الزيات ، والصولي ، وسعيد بن حميد ، والحسن بن وهب  
وسليمان بن وهب ، وسواهم ممن كتبوا للخلفاء بعد المأمون .

ويجعلهم لفيف من الباحثين طبقتين فقط :

١ - طبقة ابن المقفع وطريقته تنويع العبارة ، وتقطيع الجملة ،  
والمزاوجة بين الكلمات ، وتوخي السهولة ، والعناية بالمعنى ، والزهد في  
السجع ، ومن أقوال ابن المقفع : « إياك والتتبع لوحشى الكلام طمعا  
في نيل البلاغة فإن ذلك هو العلى الأكبر ، ويعرف البلاغة بأنها هى التى إذا  
سمعها الجاهل ظن أنه يحسن مثلها .

٢ - وطبقة الجاحظ وكانت طريقته تشبه طريقة ابن المقفع في  
سهولة العبارة وجزالتها ، وتمتاز بتقطيع الجملة إلى فقرات كثيرة مقفاة  
أو مرسلة ، وبزيادة الاطناب فى الألفاظ والجل ، وبلاستطراد ومنج  
الجد بالهزل وتحليل المعنى واستقصائه وتحكيم العقل والمنطق والاعتراض  
بالجملة الدعائية .

وهؤلاء الكتاب جميعا هم صفوة من البلغاء والفصحاء وأرباب البيان ،  
من ملكوا أزمة البلاغة ، وبلغوا أعلى منازل الفصاحة والبراعة ، وامتازت  
كلماتهم بطول النفس ، وجمال الأداء ، وبراعة الأسلوب ، وشرف المعانى ،  
وحسن الابتداع فى الأخيلة ، مع الازدواج حيناً ، والسجع حيناً آخر .

وقد بلغ الاحتفال بالثقافات المترجمة ، وبخاصة اليونانية ، حدا كبيرا ،  
حتى لقد شكك النقاد ذلك ، يقول الجاحظ (١) :

والتأشيع من الكتاب إذا وطى مقعد الرياسة يكون أول بدوّه  
الطعن على القرآن فى تأليفه ، وألا ىر تضى من الكتب إلا المنطق . . الخ  
ومثل ذلك يقول ابن قتيبة أيضا (١) ؛ وهذا ىبنى رأى ابن الأثير من أن  
الكتاب لم يتأثروا بثقافة اليونان (٢) .

وكان حامل لواء النثر الفنى على أية حال من الأحوال فى العصر العباسى  
هو الجاحظ إمام البيان ، الذى اقتدى به كتاب عصره ، من مثل : الحسن  
وسليمان بنى وهب ، وسعيد بن حميد ، والحسن بن مخلد ، وأحمد بن اسرئيل  
وابن المدبر ، وابن المعتز ؛ وسواهم .

وقد آثر الجاحظ الطبع والبعد عن التكلف والتعقيد والحوشية والسوقية ؛  
كما آثر الوضوح وظهور الشخصية الفنية فيما يكتب ؛ واحتال على نشاط  
القارئ بالفكاهة ، ومزج الجد بالهزل وبلاستطراد ، وبراعة الأسلوب ،  
وسحره ، وبالرواية والنقد والتحريض ، وبالإطناب والتغلغل العقلى والتفصيل  
ودقة الملاحظة ، وعمق المشاهدة ، والمزيد من الشرح والتحليل . . وشمول  
الفكرة ونفوذها وإحاطتها بشتى جوانب الحياة أظهر سمات أسلوب الجاحظ ؛  
وهو مع ذلك متقد الحماسة للعربية وللعرب ، يفضل بلاغة قومه على كل  
بلاغة ، ويستشهد بكلمة العربى وبيت البدوى ، كما يستشهد برأى المفكر  
وحكمة الحكيم . وفى إنشاء الجاحظ كثير من الخطابة والجدل ؛ وكان  
من المعجبين بابن المقفع ، ونوه بذكركه ، ولكنه لم يسلك مسلكه فى الأدب  
لأنه رأى أفق الأدب أوسع من أن يقصره على الحكم والنصائح ؛ وقد نقد  
البديع أسلوب الجاحظ بأنه « بعيد الاشارات ، قريب العبارات قليل

(١) ص ٢ أدب الكاتب لابن قتيبة

(٢) ص ٢٠ المثل السائر

الاستعارات ، ليس له لفظة مصنوعة ، (١) كما عابه الباقلائي (٢) بقرب كلامه وكثرة الاقتباس فيه ، فالبديع وهو من أصحاب الصنعة يعيب أسلوب الجاحظ بعدم الاحتفاء بالصنعة ، والباقلاني يرى في وضوح أسلوب أبي عثمان وكثرة ما فيه من اقتباس عيبا يعاب به الجاحظ ، وهذا طبعاً ليس عيباً ، بل هو تحكيم لثقافة الناقد وذوقه في نقده .

وكان الجاحظ في سحر بلاغته ، وسمو أسلوبه وشخصيته البارزة في كل فقرة من فقراته ، وثقافته الواسعة ، في شتى آثاره الأدبية فسيح وحده ، وفريد عصره كما يقولون ؛ ومظهر ذلك رسالته « الترييع والتدوير » .. وإذا كان ابن المقفع إمام المنشئين في عصر الترجمة ، فإن الجاحظ إمامهم في عصر التأليف وذاع في النثر في عصر الجاحظ ألوان كثيرة ، ومنها : أدب السخرية والفكاهة ، والرسائل الإخوانية ، والأدب الوصفي وأدب الطبيعة ، وأدب القصة . والرسالة الأدبية ، والرسائل في الجدل والحوار ، وغيرها . ووضعت أصول النقد والموازنة والبيان على يدي الجاحظ وابن سلام وابن قتيبة ومن تلامهم . وألفت في هذا العصر كتب أدبية جامعة ، من أشهرها : البيان والتبيين والحيوان . ولا عجب إذا قلنا : إن النثر الفني بلغ غاية نهضته وازدهاره وعنفوان قوته في عصر الجاحظ وبفضله ، وعلى يديه .

---

(١) ٨٢ مقامات البديع - المقامة الجاحظية - ، ٢٠٩ : ٢ زهر الآداب .

(٢) ١٩٤ إعجاز القرآن .

## الفصل الثاني

### أديب العصر

- ١ -

كان الجاحظ أديب عصره ، وكان أدبه الغذاء الروحي والفكري والفني لكل طبقات الناس في زمنه ؛ لم يترك مشكلة في عصره إلا كتب فيها ، ولم يترك جانباً من جوانب الحياة إلا صورته ، كان الخلفاء يكتبون إليه ليكتب بقلبه البليغ رسائل في السياسة تؤيد مبادئ الدولة ودعوتها الدينية والسياسية وتقوى حجتها على خصومها السياسيين ، فكتب إلى المأمون رسائله في الإمامة ، وكتب له رسائله « العباسية » ، وكذلك كان موقفه مع الوزراء ، وكتب للفتح بن خاقان رسائلته المشهورة : مناقب الترك وعامة جند الخلافة ، وكانت رسائلته في « الرد على النصاري » ، جواباً عن أسئلة وجمت إليه فيها مشكلات دينية ، وكانت رسائلته في الشراب جواباً كذلك عن سؤال بعث به إليه بعض أصدقائه ، وكان كثيراً ما يكتب الكتب في كل موضع ومختلف الأغراض ثم لا يشير فيها إلى الباعث الذي حمله على تأليفها ، وكتبه وأدبه عرض للمشكلات العديدة التي نجمت في عصره ، سواء منها الدينية أم العقلية والروحية أم الفكرية . ومثل الجاحظ في آثاره تشعب الحركة الفكرية وانطلاق العلوم ، واتساع الآفاق ، والبحث العلمي المؤسس على العقل ، وقد أخذ من كل فن بطرف ، وخاض في أبواب شتى من الاجتماع والأخلاق والتربية والتعليم والطبيعة والتاريخ الطبيعي ، وفلسفة اللغة والنقد والبلاغة ، والقصة ، والمقالة والرسالة ، وما إلى ذلك كله ، وصورها أروع تصوير وهو يتحدث عن طبقات أهل عصره ، فصور حيل التجار ، والمتسولين ،

وشخافات الشبان والمتخشين وزندقة الزنادقة ، وسوى ذلك .

وكان الجاحظ أستاذ عصره ، وله مكانته ومنزلته وجرأته ، ونظرة النقدى المقعد ، المبني على التجربة والمعقول ؛ واتساع آفاق موضوعاته حتى يجد فيها كل إنسان أمنيته ، والتنوع الذى كان يبعد السأم ، وتصويره أخلاق العصر . وهذا اللون من الأدب كثير الذبوع ، إلى سخريته ، وتبسيطه المسائل العلمية والفلسفية فى أسلوب واضح ؛ وهكذا وجد الناس صلة ما بينهم وبين الجاحظ ؛ فأثروه وآثروا كتبه ، لأنها أكثر استنباطا ، وأبرز شخصية ، وأوسع مادة ، وأبرع فنا ، وأقرب إلى حياة الشعب (١) .

- ٢ -

ولقد كتب الجاحظ فى شتى ألوان الأدب ، كتب فى : البيان ، والنقد ، والمقالة ، والقصة ، وفى الحوار والجدل ، وفى السخرية والفكاهة :

١ - فى أدب البيان والنقد ، وسيأتى الحديث عنهما بالتفصيل ، كتب الجاحظ أروع الفصول ، وابتكر أعظم الأصول ، وأسس للنقاد والبيانين قواعد بنوا عليها ، حتى كمل البناء وعظم المصرح .

٢ - وفى أدب المقالة كان للجاحظ برسانه القصار ، وبفصوله الكثيرة ، فضل فى ابتكار هذا اللون من الأدب ، وتعد هذه الرسائل والفصول بالأدس البعيد كالصحف اليوم ، وما أشبه أدبه بصحيفة عصره الذائعة ، ينطق فيها بلسان الخلافة والشعب ، بلسان الحاكم والمحكوم ، بلسان العامل والفلاح والتاجر والصانع ، والموظف والوزير والأمير والخليفة ؛ يدل به الناس إلى الصالح العام ، ويكشف لهم خفايا الأمور ، ويعلمهم الفضائل ، ويلقنهم كل ما تستشير به عقولهم وجماعاتهم ، ويوجههم فى الحياة وجهة الخير والقوة

(١) راجع : ١٩٩ أدب الجاحظ للسندوبى ، ٤٢ الجاحظ للفاخورى .

والإرادة والإيمان والطموح والأمل ويهديهم فيها سواء السبيل .

وكان الجاحظ يكتب في كل مشكلات العصر والساعة ، والناس يقبلون عليه ، ويصغون إليه ، ويلتهمون كتاباته التهاما ؛ وأصبح ذلك بعد قليل مادة للثقافة بين الناس في كل مكان .

٣ - وفي القصة كتب الجاحظ - في الحيوان ، وفي المحاسن والأضداد على فرض صحة نسبته إليه ، وفي البيان والتبيين - روائع من فن القصة ، لانجد لها شيئا فيما كتب العرب قبله من ألوان القصص ؛ كتب قصصا عربية ، وعرب قصصا هندية وفارسية ، وصاغ كل ذلك بأسلوبه الرائع ، وصور فيها شتى عناصر القصة ، من الحادثة - والسرد والبناء والشخصية والزمان والمكان والفكرة تصويرا جديدا . ساحرا ؛ وكتب كذلك في القصة على لسان الحيوان (١) ، وقصص البخلاء كثيرة ومشهورة (٢) ، ومنها قصص رسم أبو عثمان فيها بقلبه البليغ بخل أهل مرو وخرسان ، حتى ليكأن البخل فيهم خلقة وطبيعة ، ومن روائع قصص - الحيوان ، قصته التي صور فيها موضوعها أدق تصوير ، وهي عن قاض ألح عليه الذباب إلحاحا شديدا (٣) ؛ ومن قصص البخلاء قصة - قبيص السكران (٤) وقصة شيخ ربيع الشاذروان ببغداد (٥) ، ومريم الصنّاع (٦) ، ومعاناة العنبرية (٧) ، وغيرها . . . وفي

---

(١) راجع ١٢٢ - ١٢٥ المحاسن والأضداد .

(٢) راجع فن القصص في البخلاء لمحمد مبارك .

(٣) ٣ : ٣٤٣ الحيوان ، ٢ : ٣٨٧ - ٣٩٠ أمراء البيان ، والجاحظ

للفاخوري .

(٤) ١ : ٧٢ البخلاء - الجارم .

(٥) ١ : ٥٦ المرجع .

(٦) ١ : ٦٢ - ٦٤ المرجع .

(٧) ١ : ٦٨ المرجع

المحاسن والأضداد أروع القصص العربية والمنقولة من الفرس والهند . .  
ولو حاولنا سرد بعض القصص مثالا لذلك لأخذنا ذلك وقتا  
ومتسعا كبيرا .

٤ - وفي الحيوان والمحاسن والأضداد كثير من القصص الشعرى  
البديع ، ومنها قصيدة قصصية شعرية لشهاب بن حرقة السعدى (١) ، وهو  
شاعر أموى من أنصار ابن الأشعث ؛ وفيهما أيضا قصص على لسان  
« الحيوان » (٢) ، وللجاحظ فصول قصصية في شتى كتب الأدب ، ومنها كتاب  
« زهر الآداب » ، فقد ذكر قصة للفضل بن سهل مع رسل بعض الملوك (٣) .

٥ - وكتب الجاحظ في الفلسفة والعلم بأسلوب الأدب ، واتخذ من  
موضوعات شتى العلوم والفلسفة مادة لأدبه ، وموضوعا لكتاباتاته ، وكان  
بذلك أول من أدب الفلسفة كما يقولون .

٦ - وفي أدب الجدل والحوار كتب أبو عثمان كذلك أروع الفصول ،  
والكثير من الرسائل والكتيب ، التى ارتفعت بهذا الفن فى الأدب العربى  
إلى منزلة سامقة ، بعد أن كان بدائيا ، وحلق به فى أجواء عالية من الموهبة  
والبلاغة الأدبية والعبقرية الفنية .

٧ - وفى أدب السخرية والفكاهة لا تزال رسالته « الترييع والتدوير »  
محورا لفن الفكاهة فى الأدب العربى ، ومجالا لدراسات كثيرة حول هذا  
الفن الجاحظى الرفيع ؛ وتبدو خصائص فن الجاحظ فى هذا الجانب فى  
عناصرها الأساسية من الاستدراج والتهكم والتنادرو والتصوير (الكاريكاتيرى)

---

(١) ٥٥ المحاسن والأضداد

(٢) راجع ١٢٢ - ١٢٥ المرجع

(٣) ١ : ٢١٧ ، ٢١٨ زهر الآداب - الحلبي

لشخصية الذى يهجوهُ أو يتهم به ، وكانت الفكاهة تغلب على طبعه (١) ، وهذا الفن له صلة وثيقة بحياته ونفسه ، فقد عاش فى زمن جمع المتناقضات ، وحال فقدان الحرية بينه وبين التصريح ، وأدرك أن مرارة الحياة لا تحلو بعض الحلاوة بغير الدعابة ، والإخماض ، ووقف على أسرار نفس الإنسان فحاول أن يلفظ من شرة الدنيا وشروها وشقاها ، وقصد إلى تعليم الناس .

وقد تعلم الضحك أكثر مما تعلم العبوس ، وقل بين الناس من تذوق الحياة كما تذوقها الجاحظ ، فقد كان صارما فى جده ، كما كان قاسيا فى هزله ، فروح عن نفسه ، وعمن كان يحف به ويعاشره ، وعن قراء كتبه ، يقول الجاحظ فى تعليل استعمال الهزل (٢) : « إن الكلام قد يكون فى لفظ الجد ، ومعناه معنى الهزل ، كما يكون فى لفظ الهزل ومعناه معنى الجد ، ولو استعمل الناس الدعابة فى كل حال ، والجد فى كل مقال ، لكان السفه صراحا خيرا لهم ، والباطل محضا أرد عليهم . ولكن لكل شيء قدر ، ولكل حال شكل فالضحك فى موضعه كالبكاء فى موضعه ، والتبسم فى موضعه كالقطوب فى موضعه فان ذمنا المزاح فقيه لعمرى ما يذم ، وإن حمدناه فقيه ما يحمد ، وفصل ما بينه وبين الجد أن الخطأ إلى المزاح أسرع .

وقد كانت دمامة الجاحظ أحد الأسباب التى طبعته على السخرية وانتمدر حتى ليطلبها وهو يعالج أخطر الموضوعات ، وكثيرا ما كان يدس التهكم فى خلال كتاباته دسا ، فيقضى على حجج مناوئيه ، بقدر ما يقضى عليها براهينه المنطقية ، وتظهر نوادره فى « الحيوان ، و « البخلاء ، فى أتم صورها والجاحظ الذى قيل فيه :

(١) راجع ٥ : ٣٤١ الحيوان

(٢) ٢ : ٢١٣ رسائل الجاحظ

لو يمسخه الخنزير مسخاً ثانياً ما كان إلا دون قبح الجاحظ  
كان خفيف الروح والظل خفيفاً على قلوب الناس وعقولهم وأرواحهم  
وكان له من حياته وهى سلسلة متصلة الحلقات من الكد والخيبة والحرمان  
ومن طبيعته السريعة التأثر الميالة إلى الملاحظة والنقد ؛ كان له منهما طرائف  
ونوادر لا تبلى جدتها على مرور الأيام .

ويرى الجاحظ أن النادرة الباردة جداً قد تكون أطيب من النادرة  
الحارة جداً ، وإنما السرب الذى يخيم على القلوب ، النادرة الفاترة ، التى  
لا هى حارة ولا باردة ، وكذلك الشعر الوسط والغناء الوسط ، وإنما الشأن  
فى الحارة جداً أو الباردة جداً . وله فى البخلاء والحيوان ، وفى البيان  
والتبيين ، وفى رسالة الترييع والتدوير ، الكثير من الفكاهات والنكات  
اللاذعة .

قال أبو بكر محمد بن اسحاق ، قال لى إبراهيم بن محمود ، ونحن ببغداد :  
ألا تدخل على عمرو بن بحر الجاحظ ؟ فقلت : مالى وله ؟ فقال : إنك إذا  
انصرفت إلى خراسان سألوك عنه ، فلو دخلت إليه وسمعت كلامه ، فدخلنا  
عليه ، فقدم لنا طبقاً عليه رطب ، فتناولت منه ثلاث رطببات ثم أمسكت ،  
ومر فيه إبراهيم ، فأشرت إليه أن يمسك ، فرمىنى الجاحظ ، وقال لى : دعه  
يا فتى ، فقد كان عندى بعض إخوانى ، فقدمت إليه الرطب ، فامتنع ، فخلفت  
عليه ، فأبى إلا أن يبر قسمى بثلاثمائة رطبة .

وقال الجاحظ : جاءنى يوماً بعض الثقلاء ، فقال : سمعت أن لك  
ألف جواب مسكت ، فعلمنى منها ، فقلت نعم ، فقال : إذا قال لى شخص  
يا ثقیل الروح ، أى شىء أقول له ؟ فقلت : قل له : صدقت .

وصنف الجاحظ كتاباً ، فأخذه بعض أدعياء الأدب ، فحذف منه أشياء

وجعله أشلاء ، فأحضره الجاحظ . قال له : يا هذا إن المصنف كالإنسان ، وإني قد صورت في تصنيفي صورة ، كانت لها عينان فعورتهما ، أعشى الله عينيك ، وكان لها أذنان فصلمتهما ، سلم الله أذنك ، وكان لها يداں فقطعتهما ، قطع الله يديك ، حتى عدد أعضاء الإنسان .

ويروى أن الجاحظ ألف كتابا في نوادر المعلمين وغفلتهم ، فعزم على تمزيقه ، إذ رجع عن رأيه فيه ، فلم يلبث الجاحظ أن دخل مدينة فائق معلماً فحدثه فإذا هو أكثر ما يكون علماً وأدباً وظرفاً ، فكان يختلف إليه ويزوره ، فجاءه يوماً ، فوجد الكتاب مغلقاً ، وأخبر أنه مات له ميت فذهب للعزاء ؛ وسأله عن قرابة الميت له ، فقال له المعلم إنها حبيبتى ؛ مر على صديق عاشق ، فعشقتها العشقة إياها ، ثم علمت منه أنها ماتت ، فحزنت عليها وجلست فى الدار للعزاء . فقال له الجاحظ : يا هذا إني كنت ألفت كتابا فى نوادركم ، وكنت حين صاحبك عزمت على تمزيقه ، والآن عزمى على إبقائه (١) .

وللجاحظ نكات لاذعة مع الجمار وأبى هفان المهزى ، وغيرهما من الشعراء والأدباء والكتاب .

لقد عرف الجاحظ النادرة الأدبية ، وغلب على أسلوبه حب التندر والرغبة فى الضحك حتى فى أوقات الجد ، وكتاب البخلاء كله فكاهة وضحك ونادرة ، وكانت النادرة عنده تنبئها على خطأ ، أو فضحا لرديلة (٢) ؛ وكان الجاحظ يعجب بأحاديث الأعراب وبحوار المتنازعين فى علم السلام وهما لا يحسنان منه شيئا وإنما يثيران من غريب الطيب ما يضحك كل ثكلان (٣)

---

(١) راجع القصة كاملة فى ص ٤٦٦ - ٢٠٠ أمراء البيان

(٢) راجع ١٢٨ - ١٤٢ النقد المنهجى عند الجاحظ - داود سلوم

(٣) ٦ : ٣ الحيوان

وكان يقصد أحياناً إلى الهزل لكسب نشاط القارئ، لكسبه (١).

وعلى الجملة فقد نقل للجاحظ موضوع الأدب من معناه الضيق المحدود إلى أوسع معنى ؛ فجعله شاملاً لكل شيء ؛ جعله الحياة كلها فالحياة عنده هي مادته ، وهي موضوعه ؛ فكان الأدب في رأيه هو الحياة نفسها ؛ أو تعبيراً عنها ، مرة تصوراً لها ، ومرة نقداً وتوجيهاً ، وكذلك ذهب إلى أن الأدب لا بد من أن يعمق فهمنا للحياة ، بأن يطلعنا لأعلى عالم الرؤية الخارجى فحسب بل على العالم الداخلى للفكر والشعور ، كذلك فالعمل الأدبى عنده يرتاد بنا الحياة ، ويخلق بيننا وبينها علاقات من الفهم والمعرفة ، وهى الغاية التى تسعى لها الإنسانية فى نشاطها المستمر .

وكان الجاحظ يدرك أن العمل الأدبى مستمد من الحياة ، متأثر ومتصل بها ومؤثر وعامل فيها ؛ فالأدب عند أبى عثمان كائن حى ، متجدد الحيوية ، بمقدار ما يستمد من الحياة ، وما يوصله إلى نفوس الآخرين من خبرة جديدة ، ومن فهم عميق لهذه الحياة .

## الفصل الثالث

### الذوق الأدبي عند الجاحظ

- ١ -

كان أبو عثمان الأديب والناقد ، أبلغ الناس في زمنه ، وأعلام منزلة في الفصاحة والبيان ؛ ويدل أدبه على شموخ مكانته في البلاغة الأدبية ، وعلى يقظة إحساسه الفني ، وعلى شدة رهاقة ذوقه الأدبي ؛ ولا عجب فقد خلق ناقدا كما يخلق الشاعر شاعرا ؛ وكانت ملسكة النقد فيه شديدة .

ومن ثم سما ذوقه ، ودق شعوره ، وعمق إحساسه بالأساليب ، وصار متمكنا من اللغة ، يفرق بين لفظة ولفظة ، وبين أسلوب وأسلوب ، ويضع ذوقه موضع الفيصل في كل مشكلات اللغة والأدب والنقد والبيان .

وإذا كان الذوق هو الحكم في مسائل الأدب ، وهو القوة - التي يقدر بها الأثر الفني ، وهو الاستعداد الفطري والمكتسب الذي يساعد الأديب على تقدير الجمال والاستمتاع به ومحاكاته بقدر ما يستطيع ، فإن الجاحظ قد بلغ في ذلك ما لم يبلغه أحد غيره ، لطول روايته وقراءته ومدارسته لبلاغات العرب ، ولأثر البيئة والعصر في نفسه ، بيئة البصرة ، وعصر نفوذ الخلفاء العباسيين ، الذي أثرت فيه اللغة ، وازدهر الأدب ، وعلت فيه منزلة البلاغة .

والأدباء يختلفون في أمر الذوق : أفطرى هو أم مكتسب ، ويكادون يذهبون إلى أنه في أصله . هبة طبيعية تولد مع الإنسان ، فيعبر عنها بصفاء الذهن ، وخصب القريحة ، وجمال الاستعداد . ويظهر أثر ذلك في ميل

الناسىء الموهوب منذ الطفولة إلى كل جميل من الأدب والفن ومحاولة تقليده وبعد ذلك يأتي التهذيب والتعليم ، فليس من شك أن الدرس ينمى الذوق ويهذبه ويسمو به إلى درجة محمودة ، فالأديب ذو الفطرة الذواقة يفيد من قراءة الأدب ومعالجة الفنون ، فتراه بعد قليل مصقول الذوق ، ثاقب الذهن يضع يده على العبارة البليغة ، والخيال الجميل ، ويدرك صدق العاطفة . وينفر من كل مضطرب من الأدب كاذب ، ويكون لتربيته العقلية والعلمية دخل كبير فى كمال أحكامه الأدبية واتزانها . كما يكون أقدر على إنشاء الأساليب البارعة . وصوغ الأخيلة النادرة . وصدق التعبير عن أسمى العواطف وأقواها ، وإذا سأله عن سر البلاغة أو العى استطاع التعبير . وأصاب وجه الصواب (١) .

ويلخص الجاحظ ذلك كله فى الحيوان . فيقول : ويد الإنسان لا تكون إلا خرقاء ولا تصير صناعا ما لم تكن المعرفة ثقافا لها ، واللسان لا يكون أبدا ذاهبا فى طريق البيان . متصرفا فى الألفاظ . إلا بعد أن تكون المعرفة متخللة به منقلة له ، واضعة له فى مواضع حقوقه ، وعلى أما كن حظوظه (٢) .

وسمع الجاحظ (٣) من ينشد أرجوزة أبي العتاهية . التى سماها ذوات الأمثال ، حتى بلغ قوله :

يا للشباب المرح التصابى  
روائح الجنة فى الشباب

فقال للمنشد : قف . ثم قال : أنظروا إلى قوله « روائح الجنة فى الشباب »

---

(١) راجع ١٢١ أصول النقد الأدبى للشايب - ١٩٦٠ القاهرة .

(٢) ١ : ١١٦ و ١١٧ الحيوان .

(٣) ٢ : ٣٦٦ عصر المأمون .

فإن له معنى كعنى الطرب لا يقدر على معرفته إلا القلوب ، وتعجز عن ترجمته  
الألسنة ، إلا بعد التطويل ، وإدامة التفكير ، وخير المعاني ما كان القلب  
إلى قبوله أسرع من اللسان إلى وصفه .

وأسلوب الجاحظ أظهر صورة لجلال ذوقه الأدبي وعظمته ودقته ؛  
هذا الأسلوب الذى توضع فيه الألفاظ مواضعها ، وتأخذ فيه الجمل حظها  
من الروعة والبلاغة ، وحسن النظم .

كان الجاحظ يرمى إلى الإفهام والوضوح والإبانة ، وينحو نحو استعمال  
الألفاظ التى تجلو الحقيقة وتقربها إلى الأذهان . ويقول : من حق المعنى  
أن يكون الاسم له طبقا ، وتلك الحال له وفقا ، ويكون الاسم لا فاضلا  
ولا مفضولا ولا مقصرا ولا مشتركا ، ولا مضمنا ، ويكون تصفحه لمصادره  
في وزن تصفحه لموارده ، ويكون لفظه موفقا ، ولحول تلك المقامات معاودا ؛  
ومدار الأمر على إفهام كل قوم بقدر طاقتهم . والحمل عليهم على أقدار  
منازلهم .

ويقول : وأحسن الكلام ما كان قليلا يغنيك عن كثيره . ومعناه فى  
ظاهر لفظه وكأن الله عز وجل قد ألبسه من الجلالة ، وغشاه من نور الحكمة ،  
على حسن نية صاحبه ، فإذا كان المعنى شريفا ، واللفظ بليغا ، وكان صاحبه  
صحيح الطبع ، بعيدا من الاستكراه ، منزها عن الاختلال ، مصونا عن  
التكلف ، صنع فى القلوب صنيع الغيث فى التربة السكريمة .

ويقول : ومتى شاكل - أبقاك الله - اللفظ معناه ، وكان لذلك الحال  
وفقا ، ولذلك القدر لفقاً ، وخرج من سهاجة الاستكراه ، وسلم من فساد  
التكلف ، كان قنا بحسن الموقع ، وحقيقا بانتفاع المستمع ، ولا تزال  
القلوب به معمورة والصدور مأهولة ، ومتى كان اللفظ كريما فى نفسه ،

متخيراً من جنسه ، وكان سليماً من الفضول ، بريئاً من التعقيد ، حبيب إلى النفوس ، واتصل بالأذهان ، والتحم بالعقول ، وهشت له الأسماع ، وارتاحت له القلوب ، وخف على ألسن الرواة ، وشاع في الآفاق ذكره ، وعظم في الناس خطره ، ومن أعاره من معرفته نصيباً ، وأفرغ عليه من محبته ذنوباً ، حبيب إليه المعاني ، وأسلس له نظام اللفظ ، وكان قد أغنى المستمع من كد التكليف ، وأراح قارئ الكتاب من علاج التفهم .

ويقول كذلك : تفل الحز ، وتصيب المفصل ، وتقرب البعيد ، وتظهر الخفي ، وتميز الملتبس . وتخلص المشكل . وتعطى المعنى حقه من اللفظ . كأنعطى اللفظ حقه من المعنى . وتحب المعنى إذا كان حياً يلوح . وظاهراً يصيح . وتبغضه إذا كان مستهلكاً بالتعقيد . ومستوراً بالتقريب . وتزعم أن شر الألفاظ ما أغرق المعاني وأخفاها . وسرها وعمهاها . والألفاظ عندك مارق وعذب . وخف وسهل . وكان موقوفاً على معناه ، ومقصوراً عليه دون ما سواه . لا فاضل ولا مقصر ، ولا مشترك ولا مستخلق . قد جمع خصال البلاغة . واستوفى خلال المعرفة ، فإذا كان الكلام على هذه الصفة لم يكن اللفظ بأسرع إلى السمع من المعنى إلى القلب ، وصار السامع كالقاتل ، والمتعلم كالعلم ، وخفت المؤونة واستغنى عن الفكرة ، وماتت الشبهة ، وظهرت الحجة (١) .

ولأجل ذلك كله كانت ألفاظ الجاحظ دقيقة واضحة الأداء ، واقعية حسية ، بعيدة عن الحشونة والغرابة ، بعيدة عن التعقيد والإغراب ، قريبة كل القرب من الافهام ، وكان الجاحظ يراعى مقتضى الحال في كل مقال .

وكان ذوق الجاحظ يدور في مجالات العلم والحقائق والثقافة ؛ فليس

هو بالرجل الفسيح الخيال ، وليس أدبه بأدب العاطفة التي تستبد به ، لأنه رجل الحياة وحقائقها ورجل الفكر والاعتزال والفلسفة والعقل والمنطق ينشد الحقيقة من أعماق قلبه ، ويسعى ليدركها ، ويجد طويلا ليعثر عليها ، فإذا أدركها حاول التعبير القوى الواضح عنها ، تعبيراً يحيط بها ، ويقربها إلى الذهن ، ويظهر جميع دقائقها ، قرينة إلى الأفهام ، ومن ثم نأى الجاحظ عن أساليب المجاز ، على قدر ما يستطيع ، فإن اضطر إلى تشبيه أو استعارة أو كناية . أتى بها إذ كانت أقرب طريق للوضوح والإبانة ، لأنها أداة زخرف فنى . أو وسيلة ترف يبانى .

وكان الجاحظ صاحب باع طويل فى صنعة الكلام ، وأسلوب الكتابة ينفذ إلى القلوب ، ويخترق الأفئدة ويناجى العواطف ، ويمتلك المشاعر ، ويصل بقلبه المصقول ، وبيانه القوى إلى خليجات النفوس ، وخفايا الضمائر وله من ذهنه المتوقد ، وعقله الكبير ، ما جعل لمنطقه من التأثير ، وما لحجته من الرهبة ، وما ساعده على الوصول إلى غايته .

ولا يشك أحد أن الجاحظ كان نادرة من نوادر الزمن ، ولأسلوبه مميزات جعلته صاحب طريقة عرف بها ، فهو حريص على الإطناب ، حرصه على المعنى وتحليله واستيعابه وتفصيله والتهوين من أمر العظيم حتى يصغر ، والتعظيم من أمر الصغير حتى يعظم ، وكان المرحوم عبد العزيز البشرى الكاتب المصرى المشهور يحتذيه فى هذا المضمار ؛ ومن أسباب الإطناب عند الجاحظ مذهبه فى الاستطراد نفي الملل القارىء ، ومزجه الجد بالهزل والهزل بالجد ، استجلاباً للنشاطه ، والجاحظ كذلك مهتم باللفظ والأسلوب والصورة والخيال والموسيقى والتوقيع الفنى لجملة ، غاية الاهتمام .

وكان يقول : ينبغي للكاتب أن يكون رقيق حواشى اللسان ؛

عذب ينابيع البيان ، إذا حاور سدد سهم الصواب إلى غرض المعنى (١) .  
وذوق الجاحظ الأدبي دعاه إلى فلسفة أسلوبية خاصة متميزة ...  
أساسها : الكلمة وحسن اختيارها ، واللفظة ووضعها في مواضعها ، فقد كان  
ذوقه شديد المعرفة بوقع الكلمة في نفس القارئ ، دقيق التمييز بين حى  
الألفاظ وميتها ، وسهلهما وصعوبها ، وجميلها وقبيحها ، وملاك الأمر عنده هو  
التيين والإفهام ...

دعا إلى سهولة اللفظ وعذوبته وسماحته وبلاغته ، ويسره ، وقال :  
قد يستخف الناس ألفاظا ويستعملونها وغيرها أحق بذلك منها . ويقول :  
إن سخيף الألفاظ مشاكل لسخييف المعانى ، وقد يحتاج إلى السخيف في  
بعض المواضع ، وربما أمتع بأكثر من امتاع الجزل والفخم ، ويرى أن لكل  
قوم ألفاظا حظيت عندهم ، وكذلك كل بليغ في الأرض ، وصاحب كلام منشور  
وكل شاعر وصاحب كلام موزون . فلا بد أن يكون قد لُج وألف ألفاظا  
بأعيانها . ليدبرها في كلامه ، وإن كان واسع المعنى . كثير اللفظ غزير المعانى .

ويقول : ورأى في هذا الضرب من هذا اللفظ ، ما دمت في المعانى التى  
هى عبارتها والمادة فيها . أن ألفظ بالشئ العتيد الوجود ، وأدع التكلف  
لما عسى أن لا يسلس ولا يسمل إلا بعد الرياضة الطويلة ، وأرى أن ألفظ  
بالفاظ المتكلمين ما دمت خائضا في صناعة الكلام . مع خاص أهل الكلام ،  
فإن ذلك أخف عندى وأخف لمؤوتهم على ؛ ولكل صناعة ألفاظ قد  
حصلت لأهلها بعد امتحان سواها ، وقبيح بالمتكلم أن يفتقر إلى ألفاظ  
المتكلمين في خطبة أو رسالة ، أو أن يجلب ألفاظ الأعراب وألفاظ  
العوام ، وهو في صناعة الكلام داخل ، ولكل مقام مقال ، ولكل  
صناعة شكل .

وتأليف الكلام أو نظمه هو مظهر البلاغة وصورتها ، وبه تتبين بلاغة الكلمة ، وكان الجاحظ يعنى بجودة السبك ، وبراعة الديباجة ، وعذوبة الأسلوب ، عناية فائقة ، ويرى أن المعاني مطروحة في الطريق ، يعرفهم العجمي والعربي ، والبدوي والحضري ، وإنما الشأن في إقامة الوزن ، وتخير الألفاظ ، وسهولة المخرج ، وكثرة الماء ، وفي صحة الطبع ، وجودة السبك فإنما الشعر صناعة وضرب من النسيج ، وجنس من التصوير (١) .

وذكر الجاحظ أن المعاني مبسوبة إلى غير غاية ، وممتدة إلى غير نهاية وإنما تحيا تلك المعاني في ذكرهم لها ، وإخبارهم عنها ، واستعمالهم إياها ، فبذلك تقرب من لفهم وتجليها للعقل ، وتجعل الخفي منها ظاهراً ، والغائب شاهداً ، والبعيد قريباً . والدلالة الظاهرة على المعنى الخفي هو البيان .

ولكل معنى - شريف أو وضيع ، هزل أو جد ، أو حرفة أو صناعة - ضرب من اللفظ هو حقه وحظه ونصيبه والذي لا ينبغي أن يجاوزه أو يقصده

وكان الجاحظ يعجب بمذهب المحدثين ، الذين لا يقفون إلا على الألفاظ المتخيرة ، والمعاني المنتخبة ، وعلى الألفاظ العذبة ، والخارج السهلة ، والديباجة الكريمة ، وعلى الطبع المتمكن ، وعلى السبك الجيد ، وعلى كل كلام له ماء ورونق ، وعلى المعاني التي إذا صارت في الصدور عمرتها ، وأصلحتها ، وفتحت للسان باب البلاغة ، وأشارت إلى حسان المعاني .

ويرى أن الذي تجود به الطبيعة ، وتعطيه النفس سهلاً ، أحمد أمراً ، وأحسن موقفاً ، في القلوب ، وأنفع للمستمعين ، من كثير خرج بالكد والعلاج .

ومن أثر الذوق عند الجاحظ تفضيله لشعر المحدثين ، ونقده للمتعصبين  
للشعر البدوى ، فلقد حارب العصبية ضد المحدثين ، واستشهد في كتبه بشعرهم  
وروى لهم ، واستجاد كلامهم ، والعصبية لاندع صاحبها يصدر حكما عادلا ؛  
قال أبو عثمان عن النواسى : كان أبو نواس عالما راوية ، مع جودة الطبع  
وجودة السبك ، والخذق بالصنعة ؛ وإن تأملت شعره فضلمته ، إلا أن  
تعترض عليك فيه العصبية ، أوترى أن أهل البدو أبدا أشعر ، وأن المولدين  
لا يقارونهم فى شئ ؛ فإن اعترض هذا الباب عليك ، فإنك لا تبصر الحق  
من الباطل ، مادمت مغلوبا (١) محكوما بالعصبية الظالمة .

وينقد كذلك العصبية ضد المولدين فى موضع آخر من الحيوان بمثل  
هذا الأسلوب (٢) . وهكذا نجد الجاحظ يدعو إلى تقدير الجيد من كان وفى  
أى زمن كان ؛ يقول : والقضية التى لا أحتشم فيها ، ولا أهاب الخصومة ،  
« أن عامة شعراء العرب والأعراب والبدو والحضر من سائر العرب أشعر  
من عامة شعراء الأمصار والقرى من المولدين والنابتة » ، وليس ذلك بواجب  
فى كل ما قالوه ، وقد رأيت أناساً منهم يهرجون أشعار المولدين ويستسقون  
من رواها ؛ ولم أر ذلك قط إلا فى راوية للشعر غير بصير بجوهر ما يروى  
ولو كان له بصر لعرف موضع الجيد من كان وفى أى زمان كان (٣) .

وقد سار على نهج الجاحظ فى ذلك ابن قتيبة فى مقدمة كتابه « الشعر  
والشعراء » ، وابن المعتز (٤) ، وسواهما .. فدعوة ابن قتيبة « ولم يقصر الله  
الشعر والبلاغة على زمن دون زمن ، ولا خص به قوما دون قوم » (٥) ،  
هى مشتقة من دعوة الجاحظ ، ونابعة من معينه .

(١) ٢ : ٢٧ الحيوان (٢) ٣ : ١٣٠ الحيوان

(٣) ٢ : ١٣٠ الحيوان

(٤) راجع رسائل ابن المعتز ، وابن المعتز وتراثى المؤلف

(٥) ٨٧٧ الشعر والشعراء ط القاهرة ١٩٣٢

وهكذا يتجلى لنا الذوق الأدبي عند الجاحظ في أدبه ، الذى امتاز بالإبداع والسهولة واليسر ، يدخل من نفس القارىء مدخل صدق ، ويجمع بين الديباجة الحسنة ، والمعنى الدقيق ، واللفظ المونق ، والفكاهة البارة ، والسخرية النادرة ، والجد فى موضعه والهزل فى موضعه ، لا يتكلف ولا يتعسف ؛ يصور لك خلجات الروح ، وآهات النفس ، وأزمات العقل ويرسم لك الغامض من المعانى ، حتى لكأنها تكاد تلمسها لمساً ، ويصف لك المعلوم والمجهول ، ويحدثك عن المعقول والمنقول ..

ومن أروع الصور التى رسمها الجاحظ صورة خصى يصور حينه إلى جمال المرأة وسحرها ، وهو أبو المبارك الصابى ، وكان الخلفاء والوزراء يبعثون إليه ، ويسمعون منه ، ويسمر عندهم ، للذى يجدون عنده من الفهم والإفهام ، وطرف الأخبار ، وفوادير السكتب ، وكان قد أربى على المائة ؛ وفى هذه الصورة الأدبية الرفيعة يصور الجاحظ أبا المبارك غزلاً مولعاً بالجمال يسمع نغمة المرأة ، فيظن أن كبده قد ذابت ، ويظن مرة أخرى أنها قد انصدعت ، ويظن ثالثة أن عقله قد اختلس (١) .

الصدق والبهاء والروعة والسحر والإبداع والبساطة هى كلها عناصر أدب الجاحظ ، وخصائص فنه ، وبلاغته قطعة من نفسه ، وصورة لمذهبه وطريقته ، ولا تجد ذوقاً أشد رهاقة وإحساساً بالجمال من ذوق أبي عثمان ، الشديد الشعور بجمال اللفظ والعبارة والصورة ؛ فهو يتخير من الألفاظ أروعها ، ومن العبارات أجودها ، ومن الصور أوضحها وأدقها فى تصوير ما يريد الإبانة عنه .

---

(١) ١ : ١٢٥ - ١٢٨ الحيوان ، وأهل الجاحظ كان يصور حرمانه هو من المرأة ومن الاستمتاع بجمالها فى هذه الصورة البارة

وكلما حصف الذوق ، وقوى الشعور الفني والإحساس الجمالى فى نفس صاحبه ، كان إدراكه للجمال أيسر وأعمق ، وأوضح من كل شىء . وهكذا كان أبو عثمان - بما وهبه الله من أسباب التمييز الفنى والإدراك الذوقى لمواضع الجمال والبلاغة فى الأسلوب - يتميز بأسلوبه الخاص ، وعبارته التى هى له وحده وبشخصيته الفنية المستقلة ، التى لا يشاركه فيها أحد سواه . ومن قوة ذوق الجاحظ الأدبى ، كانت تنبعث دائماً عنه كل عناصر الصدق والجمال والعمق فى أدبه . .

للاجاحظ أسلوبه وعباراته وألفاظه وصوره الخاصة به ؛ وله شخصيته الواضحة فى كتابته ونثره الفنى ، والخلود الأدبى دائماً مدين لشخصية الأديب الفنية وملكيته لعبارته ، لأنهما مقياسه الصحيح وميزانه العادل .

ولن تجد أدبياً كأبى عثمان يتمثل فى أدبه هذان العنصران كاملين واضحين تمام الوضوح . فشخصيته الفنية تظهر فى كل ما كتب وصور من أدب وحكمة وفى كل ما ألف وأنتج من تأليف ورسائل ؛ إنه له أسلوبه الخاص به وعبارته التى هى له وحده ، وصوره التى لا يستطيع أحد أن يجاريه فيها فليس مقلداً لغيره ، ولا تابعاً فى هذا لسواه ؛ فله رصيد ثمين من اللغة والبلاغة والبيان ، وهو يملك عبارته ملكية خاصة ، فهمى له ، وليست لغيره ؛ وعندما نقرأ أسلوباً من أساليبه نعرف أنه له وحده ، ولو أنك ألقيت قطعة من أدبه بين عشرات من القطع الأدبية لأدباء آخرين ، لما صعب عليك أن تميز كلام الجاحظ من غيره ، مادمت تملك أسباب الذوق والخبرة بمذاهب الكلام وطرائق الأدباء .

وستجد من ظهور شخصيته ، ووضوح مذهبه ، وتميز عبارته ، ونصاعة بيانه ، ما يرشدك إليه ، ويعرفك به ، فأسلوبه لا ينازعه فيه منازع لأنه خاص به ؛ وهذا قلما نراه كثيراً لغيره من الأدباء (١) .

---

(١) راجع ٢ : ٣٤٠ أمراء البيان لمحمد كرد على

وأدبه دائماً منبعث عن تجارب فنية عميقة ، تجارب تختلط بلحمه ودمه وفكره ، وتمتزج بعقله وروحه ووجدانه امتزاجاً شديداً . كان لا يصدر شيئاً إلا عن عاطفة صادقة ، وحقائق صحيحة ، وقد غلب الصدق عليه في كل ما كتب وألف وحبر ، ونظم من بلاغات ، وسجل من حقائق ، ودون من آراء ، مما منح أدبه قوة التأثير ، فقد كان كلامه يخرج من قلبه فيصل إلى قلوب الناس وعقولهم ، وكان يردد دائماً أن الكلمة إذا خرجت من القلب وصلت إلى القلب بيسر ، ودون استئذان . لأنه كان يبعث في نفوس قرائه من العواطف مثل تلك التي أثارته وهزت وجدانه . والتأمل الذهني العميق ، والبساطة التامة في اللفظ والمعنى والأسلوب ، والإخلاص في التعبير ، والصدق في التصوير ؛ كلها هي أدواته في الأداء والكتابة .. إلى لغة شاعرة ، كان الجاحظ يملك كل أسبابها ، فهو يستخدم الألفاظ استخداماً عجيباً كأنها عجيبة في يديه يصنع منها ما يشاء كما يشاء .

وغاية ما أقوله أن الجاحظ يعد من الأدباء القليلين الذين كان لهم أكبر الأثر في الأدب ، وإنه رزق الحظوة في أسلوبه ، فكان سهلاً عذبا واسعا فكها بليغا مصيبا ، يتتبع المعنى ويقبله على وجوهه المختلفة ولا يزال يولده حتى لا يترك فيه قولا لقائل ... وذلك دليل ذوق متمكن وشعور عميق ، وإحساس صادق بالجمال والفن والحياة .

وهكذا كان أبو عثمان صوت عصره ومصره ، وصورة بيئته وحياته وشخصيته وثقافته وثروته الأدبية والفكرية الواسعة ، والآلة المحركة التي أحسنت نقل أصوات أهل جيله .. سجل المفاخر والمثالب ، وحمل إلى أبناء القرون اللاحقة أقانين من أدبه ، جعلها بروح الحق والصدق ورشاهما بسحر القول ، وبلاغة الكلام .

## الفصل الرابع

### الكاتب الواقعي

وننتقل أخيرا إلى أهم سمة للجاحظ وأدبه ، وهى واقعيته ، هذه الواقعية المتصلة بالحياة المشاركة للمجتمع مشاركة صحيحة فعالة ، مع قوة الملاحظة ، ومعرفة الجزئيات التى تؤدى إلى الكلّيات ، ومع الإيمان بالتجربة والالتكاه على آثار المشاهدة .

تناول أبو عثمان بيئته وعصره وحياته وثقافته وتجاربه ، تناول الأديب الكامل الموهبة المرهف الحس والذوق ؛ وصاغ من كل ذلك ، أوصاف الأشخاص ، والبيئات والزمان والمكان ، وصوره تصويرا مطابقا للواقع المشاهد مع البراعة فى رسم الحقائق ، وتناول الأحداث ، والتعبير عن واقع الحياة ؛ ومع العناية باللفظة والصيغة والصورة .

واقعيته إذا هى واقعية الأديب المتفائل المرح الطموح المتطلع إلى الحياة ، والذي يستمد أدبه من حياة كل الناس والطبقات والبيئات . فى الصحراء والمدينة ، فى العاصمة والقرية ، فى الريف والحضر .

كان أبو عثمان ذا عقل كبير وقلب أكبر ، وعبقريته موهوبة ، تعطى الناس والشعب والحياة من نفسها أكثر مما تأخذ ؛ وكان عقله الذكى ، وخياله اللهاح وبراعه البليغ ، أدوات تصوير واعية دقيقة تلتقط ما يتساقط عليها من أشعة الوجود وألوان الطبيعة وصور الحياة .

كتب أبو عثمان عن التاجر والعامل والفلاح والصانع والموظف ، وكتب عن السود والبيض والحر ، وعن الخصيان والغلمان والفتيان والنساء

والجوارى والقيان والمغنين والمعلمين والأدباء والشعراء (١) والقصاص (٢) والرواة والإخباريين ، وكتب عن المذاهب والنحل والآراء والفرق ، وعن الوزراء والخلفاء ، وعن الحيوان والنبات والجماد ؛ وفي كل موضوع وعرض لكل مسألة ، ولم يغادر شيئا إلا تحدث عنه وصوره تصويرا دقيقا . كل ذلك بقلب الإنسان الكبير ، وشعور الموجه الاجتماعي المخلص ، وبمسئولية الأديب الكاملة عن عصره ومجتمعه ، وبروح العطف على الفقراء ، والمساكين والضعفاء ، والرحمة لكل صغير حتى يكبر ، وضعيف حتى يقوى ، وفقير حتى يغنيه الله من فضله ، فهو يفيض منها على الناس دون أثر أو خوف . . . تحدث عن مختلف الحضارات والبيئات ، والأمم والشعوب والقبائل والمجتمعات ؛ وصور كل ماسمع وقرأ وجرب .

والجاحظ في كل ما كتب لم يكن يكذب على الحقيقة وواقع الحياة (٣) وفي رأيه أن الأدب غاية (٣) وهي لا تفترق فيها عنده الناحية الجمالية عن الجانب الاجتماعي والواقعي .

والاستقراء والاستقصاء اللذان رباها في نفسه اعتزاليته وروحه العلمية وتجاربه ؛ إلى روح الفكاهة والمرح السارية في أدبه والنزعة القصصية الواضحة . . هي بعض خصائص أدب الجاحظ (٣) .

والجاحظ أول كاتب عربي دافع عن المرأة ، مع أنه في أول أمره كان

---

(١) ١٣٤ النقد المنهجي عند الجاحظ .

(٢) منهم أبو كعب القاص وكان يقص في مسجد عتاب بالبصرة كل أربعاء

(٣ : ٢٥ : الحيوان ) ، وأبو علي الأسواري البصري ، وذكره الجاحظ في البيان والتميين .

(٣) ١٨٥ النقد المنهجي عند الجاحظ

ناقما عليها ، ونذر ألا يتزوج ، ولعل نقمته كانت نقمة حرمان (١) .. ويدل على قلب الجاحظ المملوء بالخير والرحمة والجمال قوله : « كل ما قبح في العين فهو مؤلم ؛ كل ما شنع في النفس فهو مؤذ » (٢) . ويدكر أخلاق الخصيان ثم يقول : « وكل خصاء في الدنيا فإنما أصله الروم » ، وحسبك بصنيع الخاصى قسوة ، (٣) ويصور عملية الخصاء ويقول : « وللخاصى عند ذلك ظم لا يفريه ظم ، وظلم يربي على كل ظلم » (٤) .

ولا يجامل الجاحظ الدولة على حساب الحقائق فيقول : هدم أصحابنا بناء مدن الشامات لبنى مروان ، ويعنى بذلك صنيع العباسيين في إزالة آثار الأمويين وتدميرها .

والصور التي كتبها الجاحظ عن المجتمع في عصره كثيرة متنوعة ، ويضيق المقام عن حصرها ، وقد رسم أبو عثمان نفسه في هذه الصورة ، التي تحدث فيها عن اسحاق بن سليمان العباسي والى البصرة قال : دخلت عليه في إمرته ، فرأيت السماطين والرجال مثولا كأن على رؤوسهم الطير ، ورأيت فرشته وبزته ؛ ثم دخلت عليه وهو معزول ، وإذا هو في بيت كتبه ، وحواليه الأسفاط والرقوق ، والقماطر والدفاتر والمساطر والمحابر - يريد في حجرة مكتبته - فمأبته قط الأغصم ولا أنبل ولا أهيب ولا أجزل . منه في ذلك اليوم ؛ لأنه جمع مع المهابة المحبة ، ومع الفخامة الخلوة ، ومع السؤدد الحكمة (٥) .

صور الجاحظ كل شيء تحدث عن الحياة ، وطموح الإنسان فيها ،

(١) ٢ : ١٨٤ المنهل في تاريخ الأدب العربي - روكس العزيمي .

(٢) ١ : ١١٩ الحيوان .

(٣) ١ : ١٣٤ المرجع .

(٤) ١ : ١٢٩ المرجع .

(٥) ١ : ٦١ الحيوان .

ومجالدة الناس لها في سبيل ترقيتها . كتب بعد الدرس الطويل والخبرة  
الواسعة ، وتجارب السن العالية ، ولم يكتب إلا عن معاناة ودرس وبحث ؛  
عرف ما في الأرض من أعاجيب ، وما في السماء والكون من غرائب ،  
ووكده مصروف إلى إرضاء من يواصل السير معه ويعاشره ويرافقه من  
قرائه ؛ لا يحتقر شيئا يدخل في باب الآداب ، ولا يستنكف عن الأخذ من  
كل مصدر ، ويحاول كشف كل غامض ، وأن يستقرئ ويستنبط كلما  
أمكنه الاستقراء والاستنباط . . كتب بقلبه ونفسه وعقله ، وأغزر  
في الأدب معانيه . وجعل له موضوعا (١) ؛ وفي الفلسفة والعلم والآراء كتب  
يقربها إلى الأذهان ، فصاغ الفلسفة صياغة أدبية واضحة ، وخرج بنتائج  
تغذى العقل وتلد للقلب .

وهكذا كان أبو عثمان يسير مع الحياة في كل خطواتها ، وكل اتجاهاتها ؛  
في جميع مجالاتها وميادين النشاط الإنساني فيها ، لأنه أحب الحياة فتذوقها ،  
ثم عرفها وخبرها وجربها ففهمها ، ثم وقف منها موقف المصور حينئذ والناقد  
حينئذ ، والموجه حينئذ آخر . . فكان بذلك أبلغ الكتاب الواقعيين  
في العصور القديمة .

## الفصل الخامس

### الجاحظ الشاعر

- ١ -

بلغ الشعر العربي في عصر الجاحظ وعلى يدي المولدين غاية نهضته وازدهاره، فتعددت مدارس الشعر، ومدارس نقاده كما تعددت مذاهب رواته وعلماؤه، ونبغ أعلام الشعر العربي في هذا العصر، واحتفت جميع البيئات بالشعر والشعراء؛ وقد ظهر التجديد الشعري في عصر الجاحظ في مظاهر ثلاثة: رقة العبارة، والمتفنن في المعاني، والتوفر على صناعة الشعر وفنه.

وقد دعا النقاد كالجاحظ وسواه إلى العذوبة والبلاغة والسهولة والنصاعة، والرفقة والوضوح؛ وأصبحت القصيدة العربية ذات وحدة موضوعية ظاهرة، وظهرت فيها آثار الثقافات والحضارة، ودقت المعاني وحصفت واستحكمت؛ وأصبح المحدثون أكثر ابتداعا للمعاني، وألطف مأخذ وأدق نظرا (١)؛ ونظم الشعراء في عصر الجاحظ الشعر في أغراض جديدة، استدعتها البيئة والحياة وآثار الحضارة والثقافة في العصر العباسي. وكان للثقافات المترجمة آثارها العميقة في أغراض الشعر ومعانيه. وترجم كتاب الشعر لأرسطو واطلع عليه بعض النقاد والأدباء فكان له صدى في أفكارهم على أن الجاحظ لم يشاهد زمن ترجمة هذا الكتاب (٢)؛ ولكنه غالبا شاهد

---

(١) ١٣٦ المثل السائر

(٢) ١٣٣ النقد المنهجي عند الجاحظ

كتاب ، الخطابة ، لأرسطو مترجما (١) وقرأه واستفاد منه ، وإن كان ذلك لا يزال موضع خلاف بين الباحثين كما أسلفنا .

وأثر الغناء والرقى الفنى فى أذواق الشعراء وشعرهم ، فما لواه إلى الرقة والعدوبة والغنائية الحلوة الجميلة والتجديد فى أوزانه وقوافيه .

وقد ظهر الجاحظ إبان هذه النهضة الشعرية الكبيرة ، ومع أنه بلغ القمة فى النثر الفنى والعلمى ؛ فإنه استوى له من الشعر والشاعرية ، ما يصح أن نطلق عليه من أجله لقب الشاعر . ولكنه لم يتفوق فيه ، ولم تطل له فى مجاله شهرة ؛ وعنى بكتبه وبالكتابة أكثر مما عنى بالشعر والشاعرية ؛ وكان الجاحظ قد تعاق بالشعر ، وحاول التفوق فيه ؛ تفوقه فى النثر ؛ ولكنه كان مشغولا عنه ، غير متفرغ له ، فلم ينل من الشعر ما أمل ، ولم يبلغ فيه ما قدر (٢) ؛ وكان يقول : طلبت علم الشعر عند الأصمى فوجدته لا يعرف إلا غريبه ، فرجعت إلى الأخفش فوجدته لا يحسن إلا إعرابه ، فعطفت على أبي عبيدة فرأيت أنه لا ينقل إلا ما اتصل بالأخبار وتعلق بالأنساب والأيام ؛ ولم أظفر بما أردت إلا عند أدباء الكتاب ، كالحسن بن وهب وابن الزيات (٣) . ويندر أن يكون للإنسان موهبة عالية فى الشعر والنثر جميعا .

---

(١) اختصره الكندي الفيلسوف (٢٥٣ هـ) ، وغالبا اطلع الجاحظ على هذا المختصر ، وترجمه حنين بن اسحاق (٤٣) الخطابة لابراهيم سلامة ) ، ثم ترجمه يحيى بن عدى ومتى فى القرن الرابع الهجرى من السريانية إلى العربية (٣٤٩ و ٣٥٠ الفهرست لابن النديم )

(٢) راجع المقامة الجاحظية من مقامات البديع الهمداني وهى المقامة الرابعة عشرة من مقاماته

روى للجاحظ شعر قليل ، فله قصائد مدح بها نجاح بن سلمة ( ٢٤٥ هـ ) ،  
وابن أبي دؤاد ، وابن الزيات ، و ابراهيم بن رباح ، وله شعر في غير المدح .

قال في ابن الزيات (١) ( ٢٢٣ هـ ) :

بدا حين أثرى لإخوانه فقلل منهم شبابة العدم  
وأبصر كيف انتقال الزمان فبادر بالعرف قبل الندم  
وهو شعر ضعيف لا قيمة له .

وقال في ابن سلمة (٢) :

سواء على الأيام صاحب حنكة وآخر كاب لا يرش ولا يرى  
وقال في ابن أبي دؤاد (٣) :

وعويص من الأمور بهيم غامض الشخص مظلم مستور  
قد تسنمت ما توعر منه بلسان يزينه التحبير  
ومنها (٤) :

فإذا ضمنا الحديث وبيت رب خصم أرق من كل روح  
ولفرط الذكاء كاد يطير فإذا رام غايته فهو كاب  
وقال في ابن رباح (٥) :

وعهدى به والله يصلح أمره رحيب مجال الرأى منبلج الصدر

(١) ٤٩٧ : ١ زهر الآداب - ط الحلبي ، ١٦ : ٨١ معجم الأدباء

(٢) ١١٦ : ١٦ معجم الأدباء

(٣) ١٦ : ٨٠ و ٨١ - المرجع

(٤) ١٦ : ٨١ المرجع

(٥) ٩١ : ١٦ معجم الأدباء

وهذا الجاحظ الشاعر الجراز البصرى (١)، فقال (٢) :

نسب الجراز مقص      ور      إليه      منتهاه  
يتناجى من أبو الج      از      فيه      كاتباه  
ليس يدري من أبو الج      از      إلا      من      يراه  
فرد عليه الجراز يقول :

يافتى نفسه إلى ال      سكر بالله      تائقة  
لك في الفضل والتزه      د      والنسك      سابقة

وللجاحظ أبيات في إبراهيم بن المدبر (٣)، وأخرى في فضل العلم والعلما (٤)، وفي الخضاب (٥).

وروى له أبو الحسن البرمكى (٦) :

وكان لنا أصدقاء مضوا      تقانوا جميعا وما خلدوا  
تساقوا جميعا كؤوس المنون      فمات الصديق ومات العدو  
وروى للجاحظ في مرضه :

لئن قدمت قبلى رجال فطالما      مشيت على رسلى وكنت المقدما  
ولكن هذا الدهر تأبى ظروفه      فتبرم منقوضا وتنقض مبرما

(١) شاعر بصرى أديب ماجن ، دخل بغداد أيام الرشيد ، وفي أيام المتوكل الذى أعجب به ، وأمر له بعشرة آلاف درهم فمات فرحا بها ، وقد ذكر الجاحظ شعرا له في «الحيوان» ص ١٧٥ ج ١ وهو في جارية له ، والجراز ابن أخت سلم الخاسر ، وقد جاءت أخبار مفرقة له في ( ص ٤٦ و ٤٧ أدب الجاحظ للسندوبى )

(٢) ١٦ : ٨٢ معجم الأدباء وتنسب الأبيات لعبد الصمد بن المعتدل .

(٣) ٣١٤ رسائل الجاحظ (٤) ١٦ : ٨٩ معجم الأدباء

(٥) ١٦ : ٨٩ المرجع السابق (٦) ٣ : ١٤٤ وفيات الأعيان

وهو شعره ضعيف كله ، وليس له قيمة فنية كبيرة ، ولا يحمل ثقافة الجاحظ ولا يعرب عن شخصيته في قليل ولا في كثير . إنما هو أثر من آثاره للتسجيل والذكرى فحسب .

- ٣ -

وللجاحظ آراء كثيرة في الشعر ، سوف نذكر ما يتصل منها بنقده في موضع آخر . ونذكر هنا بعض الآراء الأخرى

كان الجاحظ يرى أن ترجمة الشعر تفسد بلاغته ، فتنى حول الشعر تقطع نظمه ، وبطل وزنه ، وذهب حسنه ، وصار كالكلام المنشور ؛ ولو حوالت حكمة العرب - الشعر - لم يجدوا في معانيها شيئاً لم تذكره العجم (١) . وللجاحظ آراء في أولية الشعر العربي وفي انتحاله وتحقيق رواياته وفي غير ذلك (٢) .

وقد أشاد بأبي نواس كما سبق ، وأشاد بخمرياته (٣) ؛ ويقول أبو عثمان : إن أجود الشعر مارأيت متلاحم الأجزاء ، سهل المخرج ، كأنه قد سبك سبكاً واحداً ، وأفرغ إفراغاً جيداً (٤) .. إلى غير ذلك من الآراء .

(١) ١ : ٧٤ و ٧٥ الحيوان

(٢) ٧ - ٥٨ النقد المنهجي عند الجاحظ

(٣) ٤ : ١٤١ و ١٤٢ . العقد الفريد - ط التجارية

(٤) ٦ المصون لأبي أحمد العسكري ط الكويت ١٩٦٠ ، ١ : ٦٧

## البَابُ الثَّامِنُ

شيخ البلاغيين والنقاد

# الفصل الأول

## إمام البيان العربي

- ١ -

اهتدى العربى بذيقه وإحساسه والفنى . ووجدانه الأدبى ، إلى ما يشبه الأصول التى يجتذها فى كلامه ، وينسج على نمطها أدبه ، وتحدث منذ العصر الجاهلى عما استطاع أن يفصح عنه من أشباه هذه الأصول والقواعد وما هج الأداء .

وفى القرن الأول بدأ اللحن الإعرابى فى الظهور بتأثير الموالى واختلاط العرب بالعجم فجهد العلماء فى وضع قواعد النحو العربى ، ثم جاهدوا فى تدوين ألفاظ اللغة بعد ذلك . استشرت عدوى اللحن البيانى ، وأصبحت الألسنة لا تستطيع « البيان والتبيين » ، فأخذ العلماء العرب فى بحث مشكلات البيان العربى ، واتجهوا إلى الدراسات الأدبية والبيانية ، وإلى بحث عناصر بلاغة الكلام ، وتوجيه أذهان الأدباء والكتاب إلى المقبول من الأساليب وطرق الأداء ، وإلى التفكير فى المعنى ، ومراعاة شتى المقامات والأحوال ؛ وكانت عناصر هذه الثقافة البيانية تظهر عند طبقتين :

الأولى : طبقة رواة الأدب العربى من البصريين والكوفيين والبغداديين ، من أمثال : خلف والأصمى ، وأبى عبيدة ، وأبى زيد ، ويحيى بن نجيم . وعمر بن كركرة ، وابن سلام ، وأستاذهم هو : أبو عمرو بن العلاء أعلم الناس بالعرب والعربية (١) وهو من أعلام البصرة وشيوخها

---

(١) ٢٠٦ : ١ البيان والتبيين ، ١١ : ١٦٠ معجم الأدباء

(٧٠ - ١٥٤هـ) (١)؛ ومن عامة رواة الأدب والبيان، الذين لا يقفون إلا على الألفاظ المتخيرة والمعاني المنتخبة، وعلى الألفاظ العذبة، والمخارج السهلة والديباجة الكريمة؛ وعلى الطبع المتمكن، والسبك الجيد، وعلى كل كلام له ماء ورونق؛ وعلى المعاني التي إذا صارت في الصدور عمرتها، وفتحت للسان باب البلاغة، كما يقول الجاحظ، دون النحويين الذين ليس لهم غاية إلا كل شعر فيه إعراب، والإخباريين الذين لا يقفون إلا على كل شعر فيه الشاهد والمثل، واللغويين الذين لا يروون إلا كل شعر فيه غريب (٢).

وبجوار هذه الطبقة الشعراء الذين طارت شهرتهم في الآفاق من أمثال: ابن هرمة وبشار وصالح بن عبد القدوس وأبي نواس وأبي العتاهية والسيد الحميري وأبان اللاحق ومنصور النري وأشجع السلمي وسلم الخامر وابن أبي عيينة ويحيى بن نوفل وخلف بن خليفة ومحمد بن يسير والعتابي ومسلم وأبي تمام (٣). وغيرهم من الخطباء ورجال الأدب والبيان من بيت بني هاشم وبني العباس، ومن رجال الفرق الأدبية والسياسية والدينية، لاسيما المعتزلة وفرق المتكلمين، الذين رأهم الجاحظ فوق أكثر الخطباء وأبلغ من كثير من البلغاء (٤).

والثانية طبقة الكتاب الذين لم ير الجاحظ قط قوما مثل طريقة في البلاغة منهم، والذين التمسوا من الألفاظ ما لم يكن متوعراً وحشياً، ولا سافطاً سوقياً (٥)، ورأى الجاحظ البصر بهذا الجوهر من الكلام فيهم أعم (٦)، وحكم مذهبهم في نقد البيان (٧).

(٢) ٢٢٤ : ٣ البيان

(٤) ١٠٦ : ١ البيان

(٦) ٣٢٥ : ٣ البيان

(١) ٢٢٣ : ١ العبر للذهبي

(٣) ٥٤ : ١ البيان

(٥) ١٠٥ : ١ البيان

(٧) ٢٤٠ : ١ البيان

وكان جلهم من عناصر أجنبية من الفرس والروم والسريان والقط ، من الذين فهموا لغاتهم وبلاغتهم ، ثم قرأوا البيان والبلاغة العربية ، وأخذوا يحدثون في اللغة العربية مذاهب جديدة في الأدب والكتابة والبيان ، ويدعون إلى آراء تمس الذوق ، وترضى العقل واتجاهات الحضارة ، كما أخذوا يلقتون مذاهبهم الأدبية العامة لتلاميذهم ، كما نرى في محاضرة بشر ابن المعتز (٢١٠ هـ) في أصول البلاغة ، التي يقول فيها الجاحظ إن بشرا : مر إبراهيم بن جبلة وهو يعلم الفتيان الخطابة ، فوقف بشر ، وقال : اضربوا عما قال صفحا ، واطووا عنه كشحا ، ثم دفع إليهم بصحيفة من تحبيره وتنميته ، وتحتوى على عناصر للبلاغة وأصول للبيان (١) ، ويعد أحمد أمين في ضحى الإسلام بشر بن المعتز المؤسس الأول لعلم البلاغة العربية (٢) . .

ومن هذه الطبقة : أبو العلاء سالم مولى هشام ، وعبد الحميد الكاتب أو الأكر كما يقول الجاحظ (٣) ، وابن المقفع وسمل بن هارون والحسن والفضل ابنا سمل ، ويحيى بن خالد وجعفر بن يحيى وأيوب بن جعفر وأحمد بن يوسف وابن الزيات وعمر بن مسعدة وسوام . وهذه الطبقة أثرها في بحث عناصر البيان والبلاغة ، هي وجماعات المتكلمين والمعتزلة الذين أثاروا كثيراً من المشكلات البيانية عن قصد وعن غير قصد .

وظهر الجاحظ والبلاغة العربية في أوج ازدهارها : شعرا ونثراً ومحاضرة وحواراً وجدلاً وتأليفاً وسواها ، كما ظهر وعناصر البيان العربى

(١) ١٠٤ : ١ البيان

(٢) ٣ : ١٤١ و ١٤٢ ضحى الإسلام

(٣) ٥١ : ١ البيان

تسكاد تخطو في طفولتها العلمية نحو الشباب والقوة والوضوح والنماذج والاستقلال ، وهو رواية وكاتب وأديب ومتكلم ؛ فاستفاد من جميع هذه الجوانب فائدة كبرى أهلته لأن يتصدر حلقات البيانين ، وأن يصبح إمام البلاغين ، لأثره في هذا الجانب ، ولمسكانته الأدبية ، إذ كان يوصف وبحق ما يوصف ، بشيخ المكنى .

خدم الجاحظ البيان العربي بالكتابة فيه ، وجمع مختلف الآراء والمذاهب في عناصره وأصوله وألوانه ، في جميع كتبه ، وخاصة في كتابه الخالد « البيان والتبيين » ، وما نجمه من آراء ضئيلة في هدى الجوانب في مثل المكنى لسيدويه وكتاب « مجاز القرآن » ، لأبي عبيدة فإنما هو قليل من كثير مما نجمه في كتب الجاحظ .

والآراء التي سجلها الجاحظ عن البيان والبلاغة في كتابه « البيان » تمثل مختلف الأذواق والمدارس والنقافات ، وهي بذرة صغيرة ، امتنبتها الجاحظ حتى أنبتت نباتا حسنا مثمرا .

والجمع والإحصاء أول خطوات البحث دائما ، ووسيلة إلى التجديد والابتكار ، ومنزلة العالم في الجمع لا يمكن الغض منها ، وشخصية أبي عثمان فيما يجمعه واضحة وضوحها فيما يبتكره من آراء ومذاهب .

وحسبنا أن نقرأ في « البيان » البلاغة كما صورها بشر بن المعتمر (١) ، أو كما رأى ابن المقفع (٢) ، أو كما تتحدث عنها صحيفة هندية مكتوبة (٣) ، فلهذه النصوص وغيرها قيمة كبيرة ، وقد عد بعض الباحثين بسببها الجاحظ

(١) ١ : ١٠٤ البيان - السندوني

(٢) ١ : ٩١ البيان

(٣) ١ : ٧٩ البيان

مؤسس البيان العربي ، لأن ما جمعه من نصوص يوضح لنا كيف كان العرب إلى منتصف القرن الثالث يتصورون البيان العربي ، ويعطينا صورة مجملة لنشأته (١) .

على أن للجاحظ آراء كثيرة في البيان والبلاغة ، أبدأها في مناسبات مختلفة ، وأكثرها كانت نقداً لآراء في البيان والبلاغة ، سمعها أو قرأها . ومن هذه الآراء الجاحظية عرضه لتنافر الحروف والكلمات مما دعا فيه إلى أن أجود الشعر ما رأيت متلاحم الأجزاء سهل المخارج (٢) ، وتقريره لكلام بليغ في أن بلاغة الكلام أن يسابق لفظه معناه ومعناه لفظه (٣) ، وتقريره لبلاغة الاستهلال مستدلاً برأى لابن المقفع حولها (٤) ، ولرأى إبراهيم بن محمد في البلاغة وأنه يكفي من حفظها ألا يؤتى السامع من سوء إلهام الناطق ولا الناطق من سوء فهم السامع (٥) ، واختلف (٦) في الخطابة وهل تستجد فيها الإشارة والحركة ، فذهب النظام إلى ذلك ، ورأى أبو شمر عكس هذا الرأي ؛ فيذكر الجاحظ ذلك ويميل إلى رأى النظام ، محلاً رأى أبي شمر .. واختلف كذلك فيما إذا كان السميت والجمال من تمام آلة البليغ أم لا ؟ فذكر الجاحظ ذلك وذهب مذهب سهل بن هارون في عدم عددهما من أدوات البلاغة (٧) .

وكثرة الكلام هل تعد عيا أو بلاغة ، يرى الجاحظ الأول ويرد على

---

(١) طه حسين - ص ٣ مقدمة نقد النثر

(٢) ١ : ٦٢ البيان

(٣) ١ : ٩١ البيان

(٤) ١ : ٩٢ البيان

(٥) ١ : ٧٥ المرجع

(٦) ١ : ٦٩ و ٧٧ و ٧٨ المرجع

(٧) ١ : ٧٦ المرجع

إياس الذى ذهب إلى الثاني <sup>(١)</sup> . وتكرير الحديث اختلف فيه أيضا ففضل الجاحظ الكلام حوله وأدلى برأيه فيه <sup>(٢)</sup> ، وكذلك اختلف في الاقتباس من القرآن والشعر في الخطبة ، فذكر الجاحظ ذلك وروى مذاهب البلغاء فيه <sup>(٣)</sup> ، ويحلل تعريف العتابي للبلاغة بأنها كل ما أفهمك الغرض <sup>(٤)</sup> ، وكذلك اختلف في الصمت : أحمود أم مذموم ، فذكر الجاحظ ذلك ورأى أن الصمت عى لبلاغة <sup>(٥)</sup> ، وإجادة الأديب لفن من فنون الأدب دون فن يتحدث الجاحظ حولها ويناقش الآراء فيها ويذهب إلى أن اختلاف المواهب تدعو إلى ذلك <sup>(٦)</sup> . ويعجب الجاحظ ببلاغة الكتاب <sup>(٧)</sup> : وحديث الأعراب الفصحاء <sup>(٨)</sup> وبلاغة المتكلمين والنظارين <sup>(٩)</sup> ، ويتحدث عن البلاغة عند كثيرين من الأدباء راويا وصف ثمامة لبلاغة جعفر بن يحيى <sup>(١٠)</sup> ، وراصفا هو بلاغة ثمامة <sup>(١١)</sup> ، ويصف بلاغة بليغ يحذر من سحر الكلام وأثره <sup>(١٢)</sup> ، والجاحظ هو نفس هذا البليغ ؛ إذ كثيرا ما يتكلم أبو عثمان فيخرج آراءه في معرض الرواية عن سواه .

(١) ١ : ٨٢ المرجع

(٢) ١ : ٨٤ و ٨٥ المرجع

(٣) ٢ : ١٩ المرجع

(٤) ١ : ١٢١ المرجع

(٥) ١ : ١٤٣ - ١٤٨ و ١٨٣ - ١٨٥ و ٢٠٥ البيان

(٦) ١ : ٥١ و ١٥٠ و ١٥١ ، ٢ : ٢٥٩ البيان

(٧) ١ : ١٠٥٠ ، ٣ : ٢٢٥ المرجع

(٨) ١ : ١١٠ المرجع (٩) ١ : ١٠٦ المرجع

(١٠) ١ : ٨٥ المرجع

(١١) ١ : ٨٩ المرجع

(١٢) ١ : ١٧٦ و ١٧٧ المرجع

ويذم الجاحظ بلاغة المتقعرين (١)، ومذاهب الشعوية في العرب وبيانهم (٢)؛ ويناقش الرأي حول أداة الكتابة والشعر وهل كانت في رسول الله معدومة، ويدلى برأيه في ذلك (٣)، ويعلل لأمية الرسول وعدم قرضه للشعر (٤)، ولقوله صلى الله عليه وسلم: نحن معشر الأنبياء بكاء (٥). إلى غير ذلك مما يمثل شخصية الجاحظ في بعض مناقش فيه رجال البيان في أوضح صورها، وأكمل ذروتها؛ وإذا كان مؤلف «نقد النثر» لم يعترف بأهمية كتاب «البيان والتبيين»، في مجال البحث البلاغي (٦)، فإن أباهلال العسكري قد نوه به وإن وصف بحوثه في البيان بأنها موجزة مفرقة (٧)، ويرى ابن شهيد في رسالته «التوابع والزوابع»، أن الجاحظ لم يكشف في كتاب «البيان» عن وجه تعليم البيان ضنا بالفائدة، وشحا بشرة العلم (٨)، ولعله يرى أن الجاحظ لم يعلم الناس في كتابه أساليب البلاغة، ولم يفتح فيه ناحية تطبيقية، وهذا رأى غير عادل ولا دقيق؛ والجاحظ في كتابه يعرف البيان بأنه ما كشف لك قناع المعنى وهتك الحجب دون الضمير حتى يفضى السامع إلى حقيقته (٩)، ويلخص البلاغة في أنها «بيان وتبيين».. وقد ذكر أبو عثمان مذاهب النقاد فيه، وفصل الحديث حوله (١٠) وحول عناصره (١١).

كما تحدث في الكتاب عن الخطابة والنثر والشعر حديثا مطولا مفرقا،

(١) ٢٤٠: ١ البيان (٢) ١٥: ١ و ١٦ المرجع

(٣) ٢٣٠: ٣ و ٢٣١ المرجع (٤) ٢٢٨: ٢ المرجع

(٥) ٢٧٦: ٣ المرجع (٦) ١ نقد النثر

(٧) ٦ و ٧ الصناعتين - ط صبيح - القاهرة

(٨) ١٩٨ الذخيرة لابن بسام (٩) ٦٨: ١ و ٨٥ البيان

(١٠) ٣٠: ١ و ٢٣ و ٤٤ و ٤٦ و ٥٨ و ٦٤ و ٦٦ و ٦٧ و ١٠٦ -

١٠٨ و ١١٠ و ١٢١ و ١٠١ و ١٧٦ و ٣٣٩ و ٢: ١٥٤ و ١٥٥ البيان

(١١) مواضع متفرقة من «البيان»

ويكرر الجاحظ في كتابه اصطلاحات بيانية مثل صناعة المنطق (١)، وصناعة الكلام (٢) التي يقول فيها إنها جوهر ثمين وهي العيار على كل صناعة والزمام لكل عبارة، وهي لكل تحصيل آلة ومثال (٣).

ودعا الجاحظ في «البيان» إلى مذهب أدبي جديد في اللفظ والأسلوب والمعنى والنظم ومراعاة شتى المقامات والأحوال، إلى غير ذلك، مما هو ألبق بمذاهب المحدثين، وبالخضارة التي آلت إليها حياة العباسيين؛ والجاحظ يدعو إلى عذوبة المحدثين ورقتهم وإلى البعد عن مذاهب البداوة التقليدية في الأدب والبيان، وذلك في مواضع كثيرة متفرقة في كتابه.

على أن الجاحظ له شخصية الواضع لأصول البلاغة والبيان في كتابه الكبير «البيان».

فقد عرض لألوان كثيرة من البيان، فذكر البديع (٤) والسجع (٥) والاستعارة (٦)، والتقسيم (٧) والاستطراد (٨) والكنائية (٩) والتشبيه (١٠).

(١) ١ : ٤٨ و ٦٧ و ٢٠٩ و ٢٤٢ البيان

(٢) ١ : ٦٩ و ٢٢٠

(٣) ٢ : ٨٥ زهر الآداب ط ١٥٩٣ الحلبي - القاهرة

(٤) ١ : ٥٤ و ٣٠٥٥ و ٢٤٢ البيان (السندوب)

(٥) ١ : ١٩٤ و ١٩٥ و ٣ : ١٦ البيان

(٦) ١ : ١١٥ و ١١٦ و ١٩٢ البيان

(٧) ١ : ١٧٠ و ٢ : ٩١ و ٩٢ البيان

(٨) ١ : ١٣٨ و ٣ : ١٠٥ و ١ : ١٨٠ و ٣ : ٣١

(١٠) ٢ : ٢٢٩ و ٣ : ٢٤٣

كما عرض للإيجاز (١) وللقلب (٢) وغيرها من الأساليب ؛ ولم يعرض لهذا الألوان عرض البلاغيين - فيما بعد - لها ، بل عرض الأديب المتذوق الناقد .

وعرض الجاحظ كذلك للمجاز (٣) ، والأسلوب الحكيم (٤) ؛ والجاحظ أول من لقب « المذهب الكلامي » بهذا الإصطلاح (٥) ، ويقرر مذهب « المساواة » في البلاغة في كتابه « البيان » حين ينادى بأن الألفاظ على أقدار المعاني (٦) .

والمتكلمون المعتزليون وفي مقدمتهم الجاحظ كان لهم فضل كبير في الكشف عن أصول علم البلاغة ، وإثارة بحوثها ، وبجهد بدأت تتكون البلاغة ، وتتضح معالمها ، ورأى الجاحظ الذي جهر به وهو أن « المعاني مطروحة في الطريق يعرفها العجمي والعربي والبدوي والقروي ، وإنما الشأن في إقامة الوزن ، وتخير اللفظ وسهولة المخرج ، وفي صحة الطبع وجودة السبك (٧) ، رأى مشهور ، وهو ماذهب إليه كثيرون من البلاغيين ومن الأدباء كابن خلدون (٨) ؛ ويقول شيلر : « الشكل في الفن هو كل شيء ، والمعنى ليس شيئاً مذكوراً » (٩) .

وهكذا نرى الجاحظ صاحب مذهب في البيان والبلاغة وصناعة الكلام وهو مذهب تأثر به كل البلاغيين في جميع العصور . . . وقد كان لأبي عثمان وزنه عند شيخ البلاغة عبد القاهر الجرجاني ( ٤٧١ هـ ) حتى لنجده ينوه به

(١) ١ : ٢ ، ٨١ : ١٩٨ (٢) ١ : ١٨٠ المرجع

(٣) ٥ : ٢٥ الحيوان (٤) ٢ : ٢٠١ و ٢٠٢ البيان

(٥) ٢ : ٧٦ العمدة لابن رشيق ، ١٠١ البديع لابن المعتز

(٦) ٦ : ٨ الحيوان

(٧) ٣ : ١٣١ الحيوان ، ٥٧ الصناعتين ، ودلائل الإعجاز للجرجاني ١٦٧ ، ١٦٨

(٨) ٥٧٧ المقدمة (٩) ١٠٥ مملكة الجمال لقراءة

وبلاغته في مقدمات كتبه (١) ، ويستدل بآرائه في الإعجاز (٢) ، وينقل عنه كثير من الآراء في مختلف المشكلات والبحوث البيانية (٣) ، وكان عبد القاهر لا يحل أحدا كما يحل الجاحظ ، ولا يحترم رأيا كما يحترم رأيه ؛ وكذلك كان الكثير من علماء البلاغة ، وضرب عبد القاهر الجرجاني المثل ببلاغة الجاحظ وخاصة في مقدمات كتبه ، وكان الجاحظ من أفصح الناس وأبلغهم لسانا ، وقد ضرب المثل ببلاغته ، حتى قيل : من دلائل الإعجاز إيمان الجاحظ به ، وكان أبو عثمان يرى أن البلاغة موجودة في كل أدب وأمة ، كانت لليونان وكان أرسطو عالما بكلامهم وتفضيله ومعانيه (٤) وكانت للفرس والهند والعرب بلاغة ، وبلاغة العزبي إنما هي بديهية وارتجال ، وبلاغة الهند لا تنسب إلى امرئ ولكن لا ينفى عنها ، وبلاغة الفرس ناتجة عن نظر وتدبر ، وكان يرى أن الإنسان فصيح وإن عبر عن نفسه بالفارسية أو الهندية أو الرومية (٥) .

ومع أن الجاحظ من المتكلمين وبجملهم (٦) ، إلا أنه كان يرى أن اصطلاحات المتكلمين لا يجوز للبليغ أن يستعملها ، كما لا يجوز للمتكلمين استعمال ألفاظ الأعراب في جدلهم في علم الكلام ، ولكل مقام مقال ولكل صناعة شكل (٧) ، وقول الجاحظ « ولكل مقام مقال ، هو أساس البلاغة

(١) ١٤ أسرار البلاغة ، ٦٧ دلائل الإعجاز (٢) ١٦٣ دلائل الإعجاز

(٣) راجع ١٦٧ و ١٦٨ و ٢٥٣ و ٤٠٠ دلائل الإعجاز تحقيق المراغي

(٤) ٣ : ٢٧ البيان (الخانجي) (٥) ١ : ٣٢ الحيوان

(٦) تمنى الجاحظ لخير الطب والمرضى أن يكون الأطباء هم المتكلمين كما سبق ، وتخرج من نقد من تحرم بجرمة الكلام وشارك المتكلمين في الصناعة (٦ : ٣٧ الحيوان)

(٧) ٣ : ٣٦٨ الحيوان ، ويرى الجاحظ أن البليغ قد يستعمل ألفاظ المتكلمين نظيفا (١ : ١٣١ البيان طبع الخانجي)

فى وضعها عند جميع البلاغين ، وهو معنى قولهم « البلاغة مطابقة الكلام لمقتضى الحال مع فصاحته » .

ومن أجل كل ما تقدم يعد الجاحظ فى رأى هو الواضع الأول لعلم البيان العربى ، والمؤسس بحق لأصول البلاغة ، وقد جعله ابن خلدون سن السابقين فى التأليف فيها (١) ، ورأى طه حسين أنه أول من اهتم بالبلاغة وأنه مؤسس البيان العربى حقاً (٢) ، وجهوده فى هذا المضمار هى الأساس الأول الذى قامت عليه علوم البلاغة ، والأصل الذى احتذاه المبرد فى « الكامل » ، وابن المدبر فى « الرسالة العذراء » ، وابن المعتز فى « البديع » ، وثعلب فى « قواعد الشعر » ، وابن عبد ربه فى « العقد الفريد » ، وأبو هلال فى « الصناعتين » ، وسواهم .

والنصوص الأدبية الغزيرة التى أوردها الجاحظ فى « البيان » وغيره من مؤلفاته كانت هى المادة الأولى التى جمع منها علماء البلاغة شواهدهم فى المعانى والبيان والبديع . وكتاب « البيان » بما حوى من روائع الشعر والنثر يعد أخطر أثر فى الأدب كما هو أخطر أثر فى علم البيان العربى ؛ وهكذا ورث أبو عثمان الأدب العربى ذرة متألقة بهذا الكتاب ، كما ورث اللغة العربية كتباً يجملها الأدباء إجلالاً كبيراً لجلال العابد لكتابه (٣) .

والجاحظ - بكتابه « البيان » ، وبما جمع فيه من آراء فى البلاغة ، وبما أضاف إليها من جديد مبتكر من آرائه هو - لاشك أنه شيخ البلاغين ، والمؤسس لعلم البلاغة العربية .

---

(١) ٥٥٢ مقدمة ابن خلدون

(٢) ٣ و ٣٠ و ٣١ مقدمة نقد النثر

(٣) ٩٩ النقد المنهجي عند الجاحظ

## الفصل الثاني

### إمام النقد

- ١ -

أبو عثمان الجاحظ علم من أعلام النقد في الأدب العربي ، ولقد خلق ناقدا ، كما يخلق الشاعر شاعرا ، وخلف لناثروة نقدية طائلة ، يعز أن يكون لأحد مثلها ..

كان يولى الشعر والشعراء مزيد عناية واهتمامه ، ولم يشغله الجانب العلمى عن الجانب الأدبى والنقدى ، لأنه كان أديبا وناقدا قبل أن يكون متكلم وعالما ورجل فكر ورأى .

وفى عصر الجاحظ انقسم النقد إلى طبقة تتعصب للأدب القديم ، وأخرى مع المحدثين وأدبهم ، وثالثة تحكم الذوق الأدبى وحده ، وتحكم بالجوذة لمن يستحقها جاهليا كان أم إسلاميا أم محدثا ؛ كالجاحظ وهو إمام هذه الطبقة ، والمبرد وابن قتيبة وابن المعتز ( ٢٩٦ هـ ) ، وابن رشيق وأبى هلال فى الصناعتين ، والآمدى ( ٣٧١ هـ ) فى « الموازنة » ، والقاضى الجرجانى ( ٣٩٢ هـ ) فى « الوساطة » ، وابن رشيق فى « العمدة » ، وسواهم (١) .

- ٢ -

وقد صاحب النقد الأدبى الشعر وسائر الشعراء منذ العصر الجاهلى : وفى القرن الأول الهجرى حددت أحكام النقد ، ونضجت آراؤه ، ودقت نظراته .

وفي القرن الثاني - الذي ولد الجاحظ في منتصفه وعاش نصفه الثاني كله - بلغ النقد الأدبي مرحلة من مراحل تطوره ، واهتم الأدباء والرواة بنقد الشعراء والموازنة بينهم ؛ وأخذ العلماء في وضع الجاهليين في طبقات ، ولم يتركوا شاعرا مشهورا إلا رأوا رأيا فيه ، ولا فنا من فنون الشعر إلا نقدوه ونوهوا بما فيه من جيد وردى ، وهم الذين جمعوا أقوال النقاد قبلهم في الشعر والشعراء ، ووازنوا بين الإسلاميين والمتقدمين ، ونقدوا رواية الشعر وبنيته ومعانيه (١) .

وفي القرن الثالث الهجري أخذ النقد في النمو والازدهار وظهرت فيه مؤلفات استقل بها استقلالاً واضحاً ، على أيدي علماء اللغة والأدب ، والنقاد والكتاب والشعراء (٢) والأدباء ممن خاضوا في أصول الموازنات والبلاغة وموازن النقد ؛ فظهر كتاب « فحولة الشعر » الأصمعي « وطبقات الشعراء » لابن سلام ، وصناعة الشعر (٣) للكندي (٢٥٣ هـ) ، ثم ظهرت كتب الجاحظ « البيان » و « الحيوان » ، وهى حافلة بالآراء النقدية ، وظهر بعده « قواعد الشعر » ، لثعلب ، وسواه .

وللجاحظ مجاله الكبير في النقد ، وفي كتبه ثروة كبيرة لما اشتملت عليه من أحكام وآراء نقدية عديدة ؛ ففي كتابه المشهور « البيان » يحلل في دقة وتفصيل مذهب الطبع والصنعة في الشعر (٤) ، ويشير إلى سرقات

---

(١) ٩٥ و ٥٦ المرجع السابق .

(٢) من بينهم بشار (٩٦ المرجع السابق) ، وأبو تمام (١ : ١٥١ زهر الآداب ، ٢ : ٢٠٩ العمدة لابن رشيق) .

(٣) ٣٥٩ الفهرست .

(٤) ١ : ٥٤ و ٥٥ و ١٢٠ ، ٢ : ٢١ - ٢٦ البيان (السندوبي) .

شعرية (١) وموازنات أدبية (٢) كثيرة، ويحكم على الشعراء أحكاماً نقدية، أصيلة في شتى فصول الكتاب، وينقد أبا العتاهية (٣) والكميت (٤) وسواهما (٥).

ويعرض الجاحظ لمناهج الرواة (٦) وهم من الطبقات التي عملت في ميدان النقد... وعصية النقاد على المحدثين في عصر الجاحظ وقبل عصره كانت ذائعة، وأبو عثمان يعرض لها ويتحدث عنها، فيقول: «والقضية التي لا أحششم فيها ولا أهاب الخصومة أن عامة العرب والأعراب والبدو والحضر من سائر العرب أشعر من عامة شعراء الأمصار والقرى من المولدة والناطقة، وليس ذلك بواجب لهم في كل ما قالوه، وقد رأيت أناساً منهم يهرجون أشعار المولدين، ولم أر ذلك قط إلا في راوية للشعر غير بصير بجوهر ما يروى، ولو كان له بصر لعرف موضع الجيد من كان وفي أي زمان كان (٧)؛ وقد تابع الجاحظ في ذلك ابن قتيبة في مقدمة كتابه «الشعر والشعراء»، والمبرد في «الكامل» (٨)، وكذلك ابن المعتز في «كتبه

(١) ١ : ٨٩ و ١١٦ و ١٧٩ و ٢٥٥ المرجع، وراجع ٣ : ٣١١ الحيوان.

(٢) ٢ : ٢٤٣ المرجع.

(٣) ٣ : ٥٢ زهر الآداب (التجارية - القاهرة).

(٤) ٢ : ١٧٢ و ١٧٣ المرجع، و ٢ : ١٤٥ العمدة، ٥ : ١٧٠ الحيوان (ط ١٩٤٣ القاهرة).

(٥) راجع ٩٨ و ٩٩ الحياة الأدبية في العصر العباسي للؤلؤف، والنقد المنهجي عند الجاحظ لداود سلوم.

(٦) ٣ : ٢٢٤ البيان، ٤، ٥ الكشف عن مساوئ المتنبي في شعره للصاحب بن عباد.

(٧) ٣ : ١٣٠ الحيوان.

(٨) ١ : ١٨ الكامل، ٢ : ٢٦٠ أيضاً.

ورسائله (١). ويزرى الجاحظ بهذا التعصب ، ويعرض لتعصب أبي عمرو ابن العلاء (١٥٤ هـ) على الإسلاميين فضلا عن المحدثين (٢).

والجاحظ معجب ببشار وأبي نواس ، ويقول : لانعلم مولدا بعد بشار أشعر من أبي نواس (٣) ، وليس هناك مولد إلا وبشار أشعر منه (٤) ، وكان النقد والأدباء والشعراء يزهون ببشار وشاعريته (٥) ، وأنو نواس عنده أشعر الناس في قوله ، كأن ثيابه أطلعن من أزراره قرا ، (٦) ، ويفضل أبياته « ودار ندامى ، على كل الشعر (٧) » .

ويفرق بين المولد والأعرابي بأن المولد يقول بنشاطه وجمع باله الأبيات اللاحقة بأشعار أهل البدو ، فإذا ما أمعن انحلت قوته واضطرب كلامه (٨) .

ويذكر الجاحظ ييتين من ردىء الشعر للعمى ، ويقول : وصاحب هذا الشعر لو غبر مع امرئ القيس والناطقة وزهير ، ثم مع جرير والفرزدق والأخطل والراعى ، ثم مع بشار وابن هرمة ، ألف سنة لما قال بيتا واحدا مرضيا أبدا (٩) .

(١) راجع : رسائل ابن المعتز تحقيق المؤلف .

(٢) ١ : ٢٠٩ البيان ، ٩٥ الحياة الأدبية في العصر العباسى للمؤلف .

(٣) ١ : ١٧٠ العمدة ، ٤ : ٤٤٧ و ٤٤٨ الحيوان .

(٤) ١ : ١٩١ العمدة ، ٤ : ٤٥٧ الحيوان .

(٥) ص ٩٦ الحياة الأدبية في العصر العباسى للمؤلف .

(٦) ٣ : ١٨٥ زهر الآداب .

(٧) راجع أدب الجاحظ للسندوبى ، ٢ : ٧٦٠ زهر الآداب ( الحلبي ) .

(٨) ٢ : ١٣٢ الحيوان .

(٩) ٥ : ٣١٥ الحيوان .

وينوه أبو عثمان بعلی بن جبلة<sup>(١)</sup> (١٦٠ - ٢١٣ هـ)، وهو القائل في أبي دلف (٢٢٦ هـ):

إنما الدنيا أبو دلف بين مغزاه ومحتضره  
وتوازن هذه القصيدة بقصيدة أبي نواس:

أيها المنتاب عن عفره لست من ليلي ولا سمره  
وكان المبرد يرفع من شأن قصيدة أبي نواس هذه إلى منزلة عالية<sup>(٢)</sup>.  
وكان الجاحظ في نقده ينظر إلى اللفظة والجملة، وإلى الغرض والمعنى<sup>(٣)</sup>،  
وإلى الحال والمقام، وإلى الطبع والصنعة، وإلى مذهب الشاعر وطريقته  
في الأداء، وغير ذلك من مقومات النص وعناصره.  
ولا شك أن الجاحظ قد أرسى النقد الأدبي على قواعد ثابتة، ووضع  
له أحكاما عادلة، وكان يحكم الذوق أولا وأخيرا في كل شيء.  
وهو بذلك من أئمة النقد، والسابقين إلى وضع أصوله ومناهجه ومختلف  
مذاهبه وطرقه.

---

(١) ١٠٦ الورقة لابن الجراح - دار المعارف ١٩٥٣، ٣: ٣٥ وفيات الأعيان  
تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد  
(٢) ٣: ٣٦ وفيات الأعيان  
(٣) راجع ٥: ١٧٦ الحيوان

## البَابُ التَّاسِعُ

الجـ احظ في عالم الخالدين

# الفصل الأول

## الخلود لفكر الجاحظ وأدبه

- ١ -

رزق الجاحظ شهرة ، وذويع صيت ، وعظمة ذكر ، ومجدا كبيرا ؛ وسار اسمه في عصره وبعد عصره مسير الشمس ، حتى لم يعد يخفى على أحد ، ولم يصل عالم أو أديب أو شاعر إلى مثل ما وصل إليه من شرف ورفعة ومؤدد ؛ ورزق القبول من القلوب ، وشاع أدبه ، وانتشرت مؤلفاته في كل مكان وكل جيل .

ومنح الجاحظ شرف الخلود الأدبي ، فصار اسمه على كل لسان ، وأدبه في كل فم . واحتل فكره وآثار عبقريته ، منزلة لاتساعى في تاريخ الفكر العربي بل العقل الإنساني .

أدب الجاحظ أثر من آثار العقل الناضج ، والموهبة الفذة ، وريبب الملكة النادرة « وثمرة الروية والتفكير العميق .. فلقد كان أبو عثمان صاحب فكر مستنير ، وبصر نافذ ، ورأى حكيم ، وإنسانية كاملة . ونفذ بكتاباته وآرائه إلى القلوب والعقول ، وامتاز أدبه بالنفس الطويل ، والإبداع الجليل ، والحيوية المتدفقة ، والشباب الناضر ؛ كما امتاز بالصدق والواقعية المتفائلة المرحية ، والبلاغة المتدفقة ، والتجديد الحق الدائم .

وكذلك كان فكره سباقا مجددا مبدعا ، ينطق عن ثقافة واسعة ، وتجارب عميقة ، وخبرات حية طويلة ، ودرس عميق بمعن في الاستقصاء والتحليل وجودة الاستنباط ؛ وحسن القياس ، وجلال الاستهداء إلى الحق . الحكمة ضالته ، والبحث المطلق هوايته ، والحقيقة غايته ؛ إذا تكلف الكتاب

الشكّاتبة في موضوعاتهم ، فإن أبا عثمان كان يذهب إلى موضوعه بطبع أصيل وحب متجدد ، ونفس طموح ، وكان الكتاب سميره وجليسه ، وعدته وعديده ، وأنيسته وصديقه .

وكان أبو عثمان يستملى موضوعه فيمليه ، لا يتكلف ولا يتعسف ، يصور لك خلجات الروح ، وأزمات العقل ، وآهات النفس ، ويعرض عليك المنقول والمعقول ، ويصف لك المعلوم والمجهول ويروى ثم ينقد ، ويعرض الآراء ثم يوازن ويحلل ، في إفاضة ونفوذ إلى أعماق الأمور ؛ مع ثقب ذهن ، وجدة فكر ؛ واكتمال موهبة ؛ يحيط الجلال والجمال بفكره وأدبه ، ويغشيهما الإبداع والحكمة والصدق ؛ يمزج الفلسفة بالأدب ، والكلام بالشعر ، يكتب بعد الدرس الطويل ، والمعاناة البعيدة ، والخبرة الواسعة ، لا ينطق إلا بما يعتقد ، ولا يقول إلا ما يروى ؛ خاض بحوثه بعقله وقلبه ، وله الكثير من الآراء في مختلف جوانب الحياة ، والعديد من الأفكار الناضجة والكلمات الصائبة ، في شتى نواحي الأدب والثقافة والمعرفة ؛ ورددت الأجيال كلامه وكتاباته ، ونوه المفكرون والعلماء والأدباء بثمرات تجربته الحصيفة ، واحتفلت الأذواق والمواهب بآثار بيانه وبلاغته .

الخلود لفكر الجاحظ الحى الخلاق المتجدد ، المبدع ، الذى سابر الحياة ولا يزال يسايرها حتى اليوم ؛ والخلود لأدبه ، الذى تلمذت عليه الأمصار والأقطار والقرون منذ القرن الثالث الهجرى (التاسع الميلادى) حتى اليوم ، حيث لا تزال صفوة الشعوب المتحضرة اليوم تحبه وتعشقه وتردده في متعة ولذة واستجادة وتعاطف روى عجيب كذهب من مذاهب الأدب ، وصورة رائعة من صور البيان المأثور .

وإذا كانت آداب كثيرة قد ماتت لأنها ليست موضع اهتمام الفكر الإنسانى اليوم ، وإذا كانت آداب أخرى تموت حين تترجم إلى لغة أخرى من اللغات .. فإن أدب الجاحظ يظل متصلا بأعماق النفس الإنسانية ، ولن

ينرخ وثيق الصلة بها ، ولا تزيده الأيام إلا جلاء وصفاء ونقاء وبهاء ، وتعمل الأمم الأجنبية اليوم على استضافة أدب الجاحظ ، ونقله إلى لغاتها ، وترجمة آرائه إلى أسلحتها ، ليقرأ بكل لغة ، ويتخذ مادة للثقافة عند الناس جميعا .

فتح الجاحظ للناس أبوابا كثيرة في أمور شتى . لم يكن من تقدمه من العلماء والكتّاب والأدباء يحسبونها داخلة في الأدب ، فهو من بين كتّاب العربية أول من بحث في طبائع الأشياء كالحيوان والنبات والمعادن ، وأقام منهجه العلمي على المشاهدة والتجربة والاختبار ، وعلى الاستقراء والشك ، ورحل في سبيل تحقيقه العلمي إلى كثير من الأقاليم والأقطار ، وهو أول من كتب رسالة ملؤها السخرية ، والتهمك والجد الممزوج بالهزل . احتذاها الكتّاب والأدباء ، فوضع أبو بكر الخوارزمي رسالته إلى أبي الحسن البديهي ، وأبو الحسين أحمد بن فارس كتب على ضوئها أصول فن المقامات ، وأبو الفضل بدیع الزمان الهمداني ثم الحريري كتب في هذا الفن الشايع في الأدب العربي وهو فن المقامة ، وكذلك احتذاه ابن زيدون في الرسالة الهزلية ، وسواهم من الكتّاب والأدباء ؛ وكان أبو عثمان كذلك أول من رأى في مخالفات العامة وعاداتهم وأحاديثهم وأسأارهم ، فنا يستروح الخاصة به ، ويرى العلية فيه جماما من تعبههم وكدهم ؛ كما رأى فيما تصالحوا عليه من التعبير عن خواج نفوسهم ما يصح تقييده والتفكه به ؛ وهو أول من استباح التندر بالأصدقاء والإخوان ، وهو أول من ألف كتابا في فكرة من الفكر ، وفي رأى من الآراء ، ثم نقضه بكتّاب آخر ، توسعا منه في البلاغة وتفننا في البراعة ، وكذلك كان أول من ألف في الأمور المتناقضة ، وأقام سوق الجدلين الأشياء والحالات المتعارضة ، وابتدع من المعاني ما لا يظن أن يحتمل إلا المعنى الواحد ، كرسالته في مفاخرة المسك والرماد ؛ وهو أول من ألف الكتّاب في المعاني والأغراض الغريبة عن أفكار الكتّاب ، كالبلخلاء ، ودحيل اللصوص ، ، وسواها (١) .

إن الجاحظ ذروة الانطلاق والتحرر في تاريخ الفكر العربي ، والثقافة العربية ، وقمة من قم التجديد والنهضة والإبداع في تاريخنا الأدبي الطويل .  
كان صاحب عقلية خصبة مرنة متحررة ؛ عقلية مجردة مبدعة حصيفة موهوبة ذكية ، تقرن الأمور بأسبابها ونتائجها ومصادرها ومواردها .

تحرر عقله من الخرافات والأساطير والأوهام والتقليد ، وتحرر فكره من الجود والاحتذاء والتتبع ، وتحررت نفسه وروحه من كل مايضعف الشخصية ، ويزرى بمكانة العالم والأديب والمفكر .. ومع كثرة خصومه في الدين والسياسة والأدب ، لم ينقل لنا أحد منهم عيبا فيه ، ولا مثلبة يتنقص بها .

كان صورة لعصره العظيم ، صورة لحركة الثقافة المتدفقة المتوثبة في القرن الثالث الهجري ؛ صورة للعقل العربي الوثاب ، المنطلق إلى أبعد غاياته ، وأعظم أهدافه ومراميه .

وهذا التحرر والانطلاق جعل كتبه وأفكاره موضع الاهتمام من كل أديب في كل العصور والبيئات ؛ وعندما نقرأ الجاحظ اليوم نشعر كأننا نقرأ لأعظم علماء عصرنا تحررا وانطلاقا ، ولأفوى مفكرينا شخصية وإبداعا ، ولأرفع أدبائنا منزلة وأسهم إنتاجا .

الجاحظ أديب الأمس واليوم ، والماضي والحاضر ، وسوف يظل مقروءا على مر الحياة ، وتوالى الأحقاب . لم يكن أدبه أدب الأمس لحسب ، ولم يكن فكره فكر الماضي المنقطع البعيد ، كلا .. إنه معنا اليوم كما كان مع أسلافنا في الأمس ، وسوف يصحب أحفادنا على اختلاف البيئات والأجيال .

## الفصل الثاني

### ذكرى خالدة

- ١ -

أضاء أبو عثمان الجاحظ العقل العربي وشرفه ، ورفع من منزلته في نظر الشرقيين والغربيين ؛ ووهب الفكر الإسلامى أعظم درره ، وأسمى آيات إبداعه ، وأجل خالديات مواهبه .

فإذا ذكرنا الجاحظ اليوم فإنما نذكره لنحيي فيه أعظم قوى الإبداع والخلق والتحرر والانطلاق ، ولنشيد بشخصيته الجليلة التى أثرت الأدب والعقل والحياة ، وتركت دويماً قوياً يهز الأسماع والعقول على مر الزمن .

ولا تكاد تنطبق كلمة أديب بكل معانيها على كاتب عربى بقدر ما تنطبق على الجاحظ معلم أهل القلم فى عصره وبعد عصره (١) .

رحمك الله يا أبا عثمان ، لقد كنت درة مضيئة مشعة متألقة ، بهرت العيون والأبصار ، وأضاءت للناس الطريق ، ووضعت أصول التفكير الإنسانى ، ورفعت من منزلة الحياة ، وأعلت مكانة العقل ، ومجدت قوى الإنسان .

وسلام عليك فى الراحلين ، وسلام عليك فى الخالدين ، وسلام عليك ما بقيت الحياة .

---

(١) ٣ نواذر الجاحظ لجميل جبر .

وبعد سنوات قلائل ، وفي عام ١٩٦٧ م يكون قد مضى على ميلاد  
أبي عثمان الجاحظ اثنا عشر قرنا من الزمان ، وهي ذكرى عزيزة غالية من  
ذكريات مجدنا الخالد العريق .

وبعد سنوات قلائل آخر ، وفي شهر يناير من عام ١٩٦٨ م ، سوف  
يكون قد مضى على وفاة أبي عثمان الجاحظ أحد عشر قرنا من الزمان ، فقد  
مات في المحرم من عام ٢٥٥ هـ - يناير ٨٦٨ م .

وهي ذكرى ولا كالذكرى ، لقد احتفل الانجليز بالذكرى المئوية الرابعة  
لميلاد شكسبير ، وهي ذكرى أين منها الذكرى المئوية الحادية عشرة  
لوفاة الجاحظ .

ولو كانت أية دولة من الدول الأوروبية ، هي التي أنجبت الجاحظ ،  
لمأت الدنيا به ، ولخلدت ذكره أروع تخليد ، ولطبعت آثاره وتراثه في  
مجموعات علمية عديدة ، ولاخرجت عن حياته آلاف الترجمات والقصص  
والتمثيلات والإذاعات والأفلام .

لقد بقي عن موعد الذكرى نحو ثلاث سنوات إلا قليلا ، وهي مدة  
تكفي اليوم للبدء في رسم مناهج الاحتفال بهذه الذكرى الخالدة ، ووضع  
الخطط لإظهار الذكرى في أروع صورها ، خاصة وفي العراق بطل نائر ،  
وفي مصر زعيم ملهم .

وأتمنى أن تبدأ البصرة مدينة الجاحظ العربية البحرية العتيدة ، بتكوين  
لجنة لتعمل على الاحتفال بذكرى ابن البصرة العظيم ، احتفاء مشرفا للفكر  
الإسلامي العربي ، وللأمة العربية جمعاء ، تؤازرها فيه وزارات الثقافة  
والجامعات ، والمجامع العلمية ، ومجالس الفنون والآداب في الشعوب العربية ،

وتدعو إليه أقطاب الفكر العالمي والأدب الإنساني .

وفي رأبي أنه يجب أن يتم على موعد الذكرى عمل مايلي :

( ١ ) إطلاق اسم الجاحظ على أكبر شارع في كل مدينة بحرية في العالم العربي .

( ٢ ) إطلاق اسمه على شارع كبير في كل عاصمة عربية .

( ٣ ) إطلاق اسمه على مجمع علمي ، في كل دولة عربية .

( ٤ ) إصدار طابع بريد باسمه في كل أمة عربية .

( ٥ ) جمع جميع آثاره المطبوعة والمخطوطة في متحف يقام باسمه في مدينة البصرة .

( ٦ ) إقامة تمثال له في مدينة البصرة ، وإطلاق اسمه على أعظم مدرسة فيها .

( ٧ ) طبع جميع آثار الجاحظ في مجموعات علمية وشعبية ، في كل ركن من أركان العالم العربي .

( ٨ ) إنشاء جامعة بحرية في البصرة يطلق عليها اسم الجاحظ .

( ٩ ) تأليف لجنة فرعية من شتى علماء العالم العربي لكتابة تاريخ علمي مفصل لحياة الجاحظ وأثره في الفكر العربي والإنساني .

( ١٠ ) لإخراج فيلم عربي عن حياة الجاحظ بإشراف الجامعة العربية ومعاونتها يعرض في كل العالم العربي .

( ١١ ) كتابة قصص وتمثيلات وإذاعات عن حياة الجاحظ برعاية جامعة الدول العربية ، تطبع وتنتشر وتذاع في كل الشعوب العربية .

(١٢) إطلاق اسم الجاحظ على مدرج في كل كلية آداب أو علوم في الجامعات العربية .

(١٣) يدعى إلى الاحتفال بمهرجان الجاحظ في البصرة جميع زعماء الشعوب العربية ووزراء التربية والثقافة والإرشاد ورؤساء مصالح السياحة في جميع الدول العربية .

وأتمنى أن يلبي كل مفكر وأديب في أمتنا العربية دعوة الشرف للبدء في العمل الجماعي من أجل مهرجان الجاحظ في البصرة في يناير عام ١٩٦٨ بمناسبة مرور أحد عشر قرناً على وفاة ابن البصرة العظيم ، وعلم الأمة العربية الكبير ، ورائد الفكر العربي الخالد . . .

---

## الفصل الثالث

### صور صغيرة من أدب الجاحظ

— ١ —

قال أبو عثمان الجاحظ لرجل آذاه :

أنت والله أحوج إلى هوان من كريم إلى إكرام ، ومن علم إلى عمل ،  
ومن قدرة إلى عفو ، ومن نعمة إلى شكر (١) .

— ٢ —

من رسالته إلى محمد بن عبد الملك الزيات :

أعاذك الله من سوء الغضب ، وعصمك من سرف الهوى ، وصرف  
ما أعارك من القوة إلى حب الإنصاف ، ورجع في قلبك إيثار الأناة . . .  
واعلم أيديك الله أن شين غضبك على ، كزين صفحك غنى ، وأن موت ذكرى  
مع انقطاع سببي منك ، كحياة ذكرك مع اتصال سببي بك ، واعلم أن لك  
فطنة عليم ، وغفلة كريم ؛ والسلام .

— ٣ —

من رسالته إلى أحمد بن أبي دؤاد يستعطفه :

ليس عندي - أعزك الله - سبب ، ولا أقدر على شفيع ، إلا ما طبعك  
الله عليه من الكرم والرحمة والتأميل الذي لا يكون إلا من نتاج حسن  
الظن ، وإثبات الفضل بحال المأمول .

وكتب معاتباً إلى بعض أصدقائه :

زينك الله بالتقوى ، وكفأك ما أهمك من الآخرة والأولى ؛ من عاقب  
- أبقاك الله - على الصغيرة عقوبة الكبيرة ، وعلى الحقوة عقوبة الإصرار ،  
فقد تناهى في الظلم ؛ لقد كنت أكره سرف الرضا مخافة أن يؤدي إلى سرف  
الهوى ؛ فما ظنك بسرف الغيظ ، وغلبة الغضب .

كتب إلى ابن الزيات :

نحن - أعزك الله - فسحر بالبيان ، ونموه بالقول ، والناس ينظرون  
إلى الحال ، ويقضون بالعيان ، فأثر في أمرنا أثراً ينطق إذا سكنتنا ،  
فإن المدعى بغير بينة متعرض للتكذيب .

وله في العزاء :

ان الماضى قبأك الباقي لك ، والباقي بعدك المأجور فيك ، وفي الله العزاء  
عن كل هالك ، والخلف من كل مصاب .

الحسد عقيد الكفر ، وحليف الباطل ، وضد الحق وحرب البيان ،  
وهو سبب كل قطيعة ، ومنتج كل وحشة ، ومفرق كل جماعة ، وقاطع كل  
رحم من الأقرباء ، ومحدث التفرق بين القرناء ، وملقح الشر بين الحلفاء ،  
يسكن في الصدر كمن النار في الحجر .

أحسن الكلام ما كان قليله يغنيك عن كثيره ، ومعناه في ظاهر لفظه ،

وكان الله عز وجل قد ألبسه من الجلالة ، وغشاه من نور الحكمة على حسب نية صاحبه ، فإذا كان المعنى شريفا ، واللفظ بليغا ، وكان صحيح الطبع بعيدا من الاستكراه ، ومنزها عن الاختلال ، مصونا عن التكلف ، صنع في القلب صنيع الغيث في التربة الكريمة .

من كتاب للجاحظ إلى ابن الزيات :

لا والله ما عاج الناس داء قط أدوى من الغيظ ، ولا رأيت شيئا هو أنفذ من شتمانة الأعداء ، ولا أعلم بابا أجمع لحصال المسكروه من الذل ، ولكن المظلوم مادام يجد من يرجوه ، والمبتلى مادام يجد من يرثى له ، فهو على سبب درك وإن تطاولت به الأيام ، فكم من كربة فادحة ، وضيقة مصمتة ، قد فتحت أفعالها ، وفككت أغلالها ، ومهما قصرت فيه فلم أقصر في المعرفة بفضلك ، وفي حسن النية بيني وبينك ، لامشت الهوى ، ولا مقسم الأمل ، على تقصير قد احتملته وتفريط قد اغتفرته (١) .

من رسالة الترييع والتدوير :

وهل تقع الأبصار إلا عليك ، وهل تصرف إلا إشارة إلا إليك ، وأى أمرك ليس بغاية ، وأى شيء منك ليس فى النهاية ؛ هـل فىك شيء يفوق شيئا ، أو يفوقه شيء ، أو يقال : لو لم يكن كذا لكان ، أو لو كان كذا لكان أنهم .

وأين الحسن الخاص ، والجمال الفائق ، والملمح المحض ، والحلاوة التى لاتستحيل ، والتمام الذى لايجل ؛ إلا فىك أو عندك أو لك أو معك .

## الفصل الرابع

### آراء للجاحظ في الأدب والعلم والحياة

— ١ —

الجبين والبخل غريزة واحدة يجمعهما سوء الظن بالله ، والبخل يهدم معاني الشرف .

— ٢ —

لا ينبغي لمن قل علمه أن يدع تعليم من هو أقل منه علماً (١) .

— ٣ —

خطأ المنجمين كثير . وصوابهم قليل ، بل هو أقل من القليل (٢) .

— ٤ —

أن الله تعالى إنما خالف بين طبائع الناس ليوفق بينهم ، ولم يجب أن يوفق بينهم فيما يخالف مصلحتهم ، لأن الناس لو لم يكونوا مسخرين بالأسباب المختلفة ، وكانوا مجبرين في الأمور المتفقة والمختلفة ، لجاز أن يختاروا بأجمعهم الملك والسياسة ، وفي هذا ذهاب العيش ، وبطلان المصلحة (٣) .

— ٥ —

ليس ينبغي للعاقل أن يسوم اللغات ما ليس في طاقتها ، ويسوم النفوس

ماليس في جبلتها ، ولذلك صار يحتاج صاحب وكتاب المنطق ، إلى أن يفسره لمن طلب من قبله علم المنطق ، وإن كان المتكلم حسن البيان ، إلا أنى لأشك على حال أن النفوس إذ كانت إلى الطرائف أحن ، وبالنوادر أشغف وإلى قصار الأحاديث أميل ، وبها أصب ، أنها خليقة لاستثقال الكثير ، وإن استحققت تلك المعاني الكثيرة ، وإن كان ذلك الطويل أنفع ، وذلك الكثير أرد (١) .

- ٦ -

لولا استعمال المعرفة لما كان للمعرفة معنى ، كما أنه لولا الاستدلال بالأدلة لما كان لوضع الدلالة معنى (٢) .

- ٧ -

لا يكون المتكلم جامعاً لأفطار الكلام ، متمكناً في الصناعة ، يصلح للرياسة ، حتى يكون الذى يحسن من كلام الدين فى وزن الذى يحسن من كلام الفلسفة ، والعالم عندنا هو الذى يجمعهما ، والمصيب الذى يجمع بين تحقيق التوحيد وإعطاء الطبائع حقائقها من الأعمال (٣) .

- ٨ -

من الناس من يقول : إن العيش كله فى كثرة المال وصحة البدن وخمول الذكر ، وقال من يخالفه : لا يخلو صاحب البدن الصحيح والمال الكثير من أن يكون بالأمور عالماً أو يكون بها جاهلاً ، فإن كان بها عالماً

---

(١) ٨ : الحيوان

(٢) ٢ : ١١٥ : الحيوان

(٣) ٢ : ١٣٤ : الحيوان

فعله بها لا يتركه حتى يكون له من القول والعمل على حسب عليه ، لأن المعرفة لا تكون كعدمها ، وفي القول والعمل ما أوجب النباهة ، وأدنى حالاته أن تخرجه من حد الخمول ، ومتى أخرجه من حد الخمول فقد صار معرضا لمن يقدر على سلبه ؛ وكما أن المعرفة لا بد لها من عمل ؛ ولا بد للعمل من أن يكون قولا أو فعلا ، والقول لا يكون قولا إلا وهناك مفعول له ، والفعل لا يكون فعلا إلا وهناك مفعول له ، وفي ذلك ما أخرج من الخمول ، وعرف به الفاعل (١) .

— ٩ —

إني لست أخبر عن الموتى ، ولا أستشهد بالغيب ، ولا أستدل بالمختلف فيه ، ولا الغامض الذى تعظم المؤنة فى تعرفه (٢) .

— ١٠ —

نبغى أن يكون سيدنا لمن بعدنا كسيل من كان قبلنا فنا ؛ على أننا قد وجدنا من العبرة أكثر مما وجدوا ، كما أن من بعدنا يجد من العبرة أكثر مما وجدنا . فما ينتظر العالم بإظهار ما عنده ، وما يمنع الناصر للحق من القيام بما يلزمه ؛ وقد أمكن القول ، وصلىح الدهر ، وخوى نجم التقيسة ، وهبت ريح العلماء ، وكسد العى والجهل ، وقامت سوق البيان والعلم (٣) .

— ١١ —

لا تذهب إلى ما تريك العين ، واذهب إلى ما يريك العقل .

(١) ٩٧ : ٢ الحيوان

(٢) ٣٠٩ رسائل الجاحظ

(٣) ٨٦ : ١ الحيوان ، ٢٥٥ رسائل الجاحظ

اعلم أن تدمير المال آلة للمبكارم ، وعون على الدين ، وتأليف الإخوان وأن من فقد المال قلت الرغبة إليه ، والرغبة منه ، ومن لم يكن بموضع رغبة أو رهبة استهان الناس به ؛ فاجهد جهدك كله في أن تكون القلوب معلقة منك برغبة أو رهبة في دين أو دنيا .

يجب للرجل أن يكون سخيلا لا يبلغ التبذير ، شجاعا لا يبلغ الهوج ، محتسبا لا يبلغ الجبن ، قوالا لا يبلغ الهذر ، صموتا لا يبلغ العي ، حليما لا يبلغ الذل ، منتصرا لا يبلغ الظلم ، وقورا لا يبلغ البلادة ؛ نافذا لا يبلغ الطيش .

لم أشم قط رائحة أحياء للنفس ، ولا أعصم للروح ، من ريح عروس ، وستجد ريحا تعلم أنه ليس فوقها إلا ريح الجنة

لا يخلو صاحب الثروة الخامل الذكر من أن يكون ممن يرغب في المركب الفاره ، والثوب اللين ، والجارية الحسنة ، والدار الجيدة ، والمطعم الطيب ؛ أو يكون ممن لا يرغب في شيء من ذلك ، فإنه حينئذ حمار ، وأفسد طبعا من الحمار ، وأجهل من الحمار ، وقد رضى أن يكون في حاله أسوأ حالا من الوكيل .

جهد البلاء أن تظهر الخلة ، وتطول المدة ، وتعجز الحيلة ، ثم لاتعدم

— ٢٥٦ —

صديقا مؤنبا ، وابن عم شامتا ، وجارا حاسدا ، ووليا قد تحول عدوا ،  
وزوجة متخلفة ، وولد يتهرك (١) .

— ١٧ —

إذا سمعت الرجل يقول : ما ترك الأول للآخر شيئا فاعلم أنه ما يريد  
أن يفلح (١) .

— ١٨ —

من ألف فقد استهدف ، فإن أحسن فقد استظرف ، وإن أساء فقد  
استقذف ، وعقل المنشئ مشغول ، وعقل المتصفح فارغ (٢) .

— ١٩ —

من حفظ ماله فقد حفظ الأكرمين : الدين والعرض .

— ٢٠ —

احذر من تأمن ، فإنك حذر بمن تخاف (٣) .

— ٢١ —

العشق اسم لما فضل من المحبة ، كما أن السرف اسم لما جاوز الجود .

— ٢٢ —

تغنيك جارية كأنها طاقة نرجس ، أو كأنها ياسمينه ، أو كأنها  
خرطت من ياقوته ، أو من فضة مجلوة (٤) .

---

( ١ ) ١٦ : ٧٨ معجم الأدباء .

( ٢ ) ١٦ : ١١١ المرجع . ( ٣ ) ١٦ : ٨٤ المرجع .

( ٤ ) ٢٦٩ رسائل الجاحظ ، وراجع وصفه للجمال في ص ٢٧٤ رسائل الجاحظ

الترجمان (١) لا يؤدى أبدا ما قال الحكيم على أخصى معانيه ، وحقائق  
مذاهبه ، ودقيق اختصاراته ، وخفيات حدوده ، ولا يقدر أن يوفى بها حقوقها ،  
ويؤدى الأمانة فيها ، إلا أن يكون فى العلم بمعانيها ، واستعمال تصارييف  
ألفاظها ، وتأويل مخارجها ، مثل مؤلف الكتاب .

من أمثال العامة : أحق من معلم كتاب ، وقال بعض الحكماء :  
لا تستشروا معلما ولا راعى غنم (٢) ، وسمعنا قول بعضهم : الحق فى  
الحاكة والمعلمين والغزالين (٣) .

---

(١) ٧٥ - ٧٩ : ١ الحيوان

(٢) ١ : ٢٤٨ البيان

(٣) ١ : ٢٤٩ البيان

## البَابُ العَاشِرُ

الْمُحَاطَظُ فِي سَجَلِ التَّارِيخِ

# الفصل الأول

## وفاة الجاحظ

- ١ -

في خلافة المعتز بالله (٢٥٢ - ٢٥٥ هـ) كان الجاحظ قد بات مكدودا محطما من أثر المرض والشيخوخة ، وكان ينتظر أجله صباح مساء ، وكان مع ذلك لازال يعيش في عالم الفكر والكتب والقراءة . وفي شهر المحرم من عام ٢٥٥ هـ كان الجاحظ قد بات جسما لا قوة فيه ، وروحاً لا يستطيع بها الدفاع عن نفسه من غوائل المرض والأحداث .

وفي أمسية من أمسيات شهر المحرم كان جالسا في حجرة كتبه ومطالعاته العزيزة عليه ، الحفي بها : فانهالت عليه أكداس الكتب فقصت عليه (١) .

ومات أبو عثمان وسط الكتب التي أحبها طول حياته ، وكأنما كان يريد أن تصحبه في رحلته إلى العالم الآخر ، وأن يدفن في وسطها ، وكانت وفاة الجاحظ بالبصرة في شهر المحرم ٢٥٥ هـ (٢) - يناير ٨٦٨ م .

وكان ذلك أكبر خسارة مني بها الفكر العربي في قديمه وحديثه .

---

(١) ٢ : ١٢٢ مروج الذهب .

(٢) ذلك رواية للمسعودي ، والرواية الأخرى أن وفاته كانت عام ٢٥٦ هـ (٤ : ١٩٥ مروج الذهب) ، وهذه الرواية الثانية لا يؤيدها الدليل . وهناك من يردد وفاته بين عام ٢٥٠ هـ وعام ٢٥٥ هـ (٢ : ١٢١ شذرات الذهب للعماد ، ٤٥٦ : ١ العبر في خبر من غبر للنهجي ، وابن خلكان يجعل وفاته في محرم ٢٥٥ هـ ؛ ٣ : ١٤٤ وفيات الأعيان) .

ولما مات أبو عثمان وصل نعيه إلى قصر الخلافة في بغداد وسر من رأى  
فأسف المعتز بالله عليه أشد الأسف ، وقال ليزيد بن محمد المملبي : يا يزيد ،  
ورد الخبر بموت الجاحظ .

فقال يزيد : لأمير المؤمنين البقاء ، وداوم النعماء .

فقال المعتز : لقد كنت أحب أن أخصه إلى وأن يقيم عندي . فرد عليه  
يزيد : إنه كان قبل موته عطلاً بالفالج .

ورثاه الشعراء ، وأبناه الأدباء ، واهتزت البصرة لوفاته ؛ وكان ممن  
رثاه أبو شراعة القيسى بقصيدة منها (١) :

|                      |                    |       |
|----------------------|--------------------|-------|
| في العلم والعلماء إن | يتفهموه            | مواعظ |
| وإذا نسيت وقد جمعت   | ت علا عليك الحافظ  |       |
| ولقد رأيت الظرف ده   | را ماحواه اللافت   |       |
| حتى أقام طريقه       | عمرو بن بحر الجاحظ |       |
| ثم انقضى أمد به      | وهو الرئيس الفائز  |       |

مات الجاحظ عن مائة وخمس من السنوات (٢) ، قضاه في الكتابة  
والمطالعة والدراسة ، والإفادة والمحاضرة والمناظرة ، وكان العالم العربي  
يغرف من فكره الحر ، وأدبه الرائع ، وكتبه البليغة .

(١) كان أبو شراعة من شعراء البصرة المعاصرين للجاحظ ، وتوفي بها نحو  
عام ٢٦٥ هـ . وكان صاحب رسائل وخطب ، فصيحاً بليغاً ، اتصل بابراهيم بن  
المدبر وبغيره من الولاة وله معهم أخبار .

(٢) يذكر ابن العماد أنه عاش تسعين سنة ، وكذلك الذهبي (١ : ٤٥٦)  
العبر ) وهو خطأ .

ولم يترك أبو عثمان زوجاً ولا ولداً ، فلم يتزوج طيلة حياته ، بل  
انصرف إلى اتخاذ الجوارى ، وقد كان عقيماً فلم يعرف أنه ولد له ولد ،  
أو أعقب ذرية مدى حياته الطويلة ، (١) ، وقال الجاحظ لميمون بن هرون  
السكران بعد أن ألف كتاب البيان وأهداه إلى ابن أبي دؤاد : « إنما أنا  
وجارية لى ، وجارية تخدمها ، وخادم ، وحمار (٢) » ، وقال الجاحظ عن  
نفسه : « انه اشترى له جارية تركية جميلة ، رجاء أن يرزق منها ولداً يكون  
بحسبها وذكاها ، فولدت له ولداً جاء بقبحة وجهها (٣) » .

ولم يحدد لنا أبو عثمان مكان داره في البصرة ، وإن ذكر أماكن كثيرة  
فيها في « البخل » ، و « الحيوان » ، من مثل مسجد عتاب (٤) ، والمسجد  
الجامع (٥) ، ومن مثل « الأساورة » (٦) وفي الحيوان ما يدل على أنه كان  
يسكن في شارع يسكن فيه ابن الزيات (٧) ، والظاهر أن ذلك كان ببغداد  
أثناء إقامة أبي عثمان فيها أيام المأمون .

وبعد فقد ودع أبو عثمان الحياة ، بعد أن ابتلاها خيراً ، وذاق أفاويقها  
غير كاره لها ، وودعها وودعته عن سن عالية ، فترك جوار الناس إلى جوار  
الله وذهب إلى مثواه الأخير ، يحيط به ذكر ذائع ، وتلاميذ ملء السمع  
والبصر ، يقومون مقام الابن ، ويعتزون به أباً روحياً كأعظم ما يكون  
الأدباء ، وكأكرم ما يكون الأبناء .

(١) ٢٠٤ أدب الجاحظ للسندوبى (٢) ٣٣ المرجع

(٣) ٢ : ٤٥٨ أمراء البيان (٤) ٣ : ٢٥ الحيوان

(٥) يذكر في البخل في مواضع كثيرة

(٦) يقول الجاحظ : مررت يوماً وأنا أريد منزل المسكى بالأساورة الخ

٥ : ٣٤١ الحيوان

(٧) ٢ : ١٢٩ و ١٣٠ الحيوان

## الفصل الثاني

### آراء المفكرين والأدباء في الجاحظ

- ١ -

ليس هناك مفكر أو أديب عربي نال من الشهرة وذيوع الصيت ، ومن الخلود الأدبي ؛ على طول عصور التاريخ ، ماناله أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ .. وليس هناك كذلك من الأدباء والمفكرين من شغل الناس والعصور ، وكتبت عنه آلاف الآراء والدراسات مثل أبي عثمان ، الذي تتلمذ عليه أعلام العربية في عصره وفي كل عصر .

وسوف نستعرض آراء قிலت في الجاحظ ، وكتبت عنه ، لتبين إلى أى حد بلغ الجاحظ من المكانة بين النامس ، عدا ماسبق ذكره من آراء أعلام العالم العربي القديم فيه كالمأمون وسواه .

- ٢ -

نظم أبو اسحاق النظام المعتزلى شعراً يمدح فيه الجاحظ ، هو أشبه بشعر الفلاسفة والمتكلمين ، فقال :

حي لعمر و جوهر ثابت      وحبه لى عرض زائل  
به جماتى الست مشغولة      وهو إلى غيرى بها مائل

وقال أبو هفان البصرى الأديب الشاعر الراوية ، وكان معاصراً للجاحظ : ثلاثة لم أرقط ولا سمعت أكثر محبة للكتب والعلوم منهم :

الجاحظ ، والفتح بن خاقان ، واسماعيل بن إسحاق القاضي (١) .

وقيل لأبي هفان ، وقد طال ذكر الجاحظ له ، لم لانهجو الجاحظ وقد ندد بك ؟ فقال : أمثلي يخدع عن عقله ، والله لو وضع رسالة في أرنبه أننى لما أمست إلا بالصين شهرة ، ولو قلت فيه ألف بيت لما طن منها بيت في ألف سنة (٢) .

وقيل لأبي العيناء : ليت شعرى أى شيء كان الجاحظ يحسن ؟ فقال : ليت شعرى وأى شيء كان الجاحظ لا يحسن (٣) .

وقال أبو علي الحسن بن داود : نخر البصرة بأربعة كتب : العين للخليل والكتاب لسيدويه ، والبيان والتبيين والحيوان للجاحظ .

ويقول الخطيب البغدادي (٤٦٣ هـ) في تاريخ بغداد : «فاخر البصريون السكوفين بأربعة كتب : البيان والحيوان للجاحظ ، والكتاب لسيدويه ، والعين للخليل .

ويقول المبرد (٢٨٥ هـ) : «ما رأيت أفصح من أبي الهذيل والجاحظ (٤)» وقال أبو القاسم الإسكافي (٥) : «استظهارى على البلاغة بثلاثة : القرآن ، وكلام الجاحظ ، وشعر البحتري .

وقال ابن دريد (٣٢١ هـ) : «متنزهات القلوب هي كتب الجاحظ ، وأشعار المحدثين ونوادر أبي العيناء .

(١) ١٦ : ٧٥ معجم الأدباء

(٢) ١٦ : ٩٩ المرجع

(٣) ١٦٥ جمع الجواهر للحصري

(٤) ٣٦ المنية والامل للبرقي

(٥) ٤ : ١٠٣ مروج الذهب

وقال فقيه أندلسي (١) نحوى: رضيت فى الجنة بكتب الجاحظ عن نعيهما (٢) وكانت منزلة أبى عثمان عند الأندلسيين لاتضارعها منزلة أديب آخر ، وكانت آثاره من أسرع آثار المشرق وصولا إليهم ، وقد ظلوا إلى أيام ابن خلدون يعتبرون كتابه « البيان ، أصلا من أصول الأدب وركنا من أركانه ، وكان أبو محمد الأندلسي يقول عن الجاحظ: إنه أكثر حلاوة ومعانيه لائطة بالنفس سهلة فى السمع ، وأبو حنيفة الدينورى أكثر ندارة ولفظه أعذب وأعرب .

وكتب الجاحظ لإبراهيم بن المدبر رسالة (٣) ، فأخذ يردد النظر فيها فقليل له : ما شأن هذه الرقعة ؟ فقال : هذه رقعة الجاحظ وكلامه يعجبني ، وأنا أردده على نفسى لشدة إعجابى (٤) .

وقال المرزبانى (٥٢٨٤هـ) فى أبى عثمان : كان من أصحاب النظام ، وكان واسع العلم بالكلام ، كثير التبجر فيه ، شديد الضبط لحدوده ، ومن أعلم الناس به وبغيره من علوم الدين والدنيا ، وله كتب كثيرة مشهورة جليلة فى نصرة الدين وفى حكاية مذهب المخالفين ، وفى الآداب والأخلاق ، وفى ضروب من الجدد والهزل ، وليس فى تلقيح العقول وشحن الأذهان ومعرفة أصول الكلام ، وجواهره كتب تشبهها (٥) .

ولقب بالجاحظ أدباء كثيرون ، كما أسلفنا من بينهم أبو زيد البلخى (٥٢٢٢هـ) ، وابن العميد ، وأبو حبان (٦) التوحيدى وأبو محمد الحسن بن

---

(١) هو أبو محمد الأندلسي ، وهو من أصحاب السيرافى

(٢) ٧٦ التنبيه والإشراف للسعودى

(٣) راجعها فى آخر رسائل الجاحظ ، نشر السندوبى

(٤) ٩٢ : ١٦ معجم الأدباء . (٥) ٧٦ : المرجع

(٦) ١٢١ : ١٥ معجم الأدباء

خلاد القاضي ، والآمدى ، ومحمود بن عزيز الخوارزمى ( ٥٢١ هـ ) والقاضى  
الفاضل ، وأطلق كذلك على بعض الأدباء المعاصرين كطه حسين والمازنى  
وغيره ، واختار كثير من الكتاب والصحفيين فى العالم العربى اسم الجاحظ  
لقبائهم يوقعون به مقالاتهم .

وألف المرزبانى والتوحيدى كتابين عنوانهما ( تقيظ الجاحظ )  
وهما مفقودان .

وروى أبو حيان عن السيرافى أن جماعة من الكتاب روى عن ثابت  
ابن قرّة أنه قال : ما أحسد هذه الأمة إلا على ثلاثة : عمر بن الخطاب فى  
سياسته ويقظته . وأبو الحسن البصرى فى تقواه وزهده وورعه وعلمه ،  
والثالث أبو عثمان الجاحظ ( ١ ) .

وكان أبو حيان يقول : لم أجد فى جميع من تقدم وتأخر ثلاثة لو اجتمع  
الثقلان فى مدحهم وتقريرهم لما بلغوا آخر ما يستحقه كل واحد منهم :  
أبو عثمان الجاحظ ، وأبو حنيفة الدينورى ، وأبو زيد الباهجى ( ٢ ) .

وكان ياقوت الحموى يقول : اتفق أهل صناعة الكلام على أن متكلمى  
العالم ثلاثة : الجاحظ وعلى بن عبيدة الرياحى وكان من خاصة المأمون ،  
وأبو زيد البلخى ، فالجاحظ يزيد لفظه على معناه ، وابن عبيدة ( ٣ ) يزيد معناه  
على لفظه ، وأبو زيد يتوافق لفظه ومعناه ؛ وكان يقال لأبى زيد جاحظ  
خراسان .

---

( ١ ) ٩٥ - ٩٩ : ١٦ المرجع .

( ٢ ) كان أبو حيان جاحظيا يسلك فى تصانيفه مسلكه ويشتهى أن ينظم  
فى سلكه ( ٥ : ١٥ معجم الأدباء ) .

( ٣ ) سئل ابن عبيدة : ما تشتهى ؟ فقال : عيون الرقباء وأسن الوشاة ،  
وأكباد الحساد .

وقال ابن سنان عنه في كتابه «سر الفصاحة» : فكأنه في كل علم يخوض فيه لا يعرف سواه ولا يحسن غيره . . . وذكر الذهبي (٥٧٤٨ هـ) تجويد الجاحظ في كتاب «النبوات» وأثنى عليه مع أنه من خصومه في المذهب ؛ وقال فيه كذلك إنه صاحب التصانيف الكثيرة والفنون ؛ كان بحراً من بحور العلم ، رأساً في الكلام والاعتزال (١) .

وقال ابن العميد : ثلاثة علوم الناس كلهم عيال فيها على ثلاثة أنفس : أما الفقه فعلى أبي حنيفة ، وأما الكلام فعلى أبي الهذيل ، وأما البلاغة والفصاحة واللسن والعارضة فعلى الجاحظ ، وكان من المعجبين به المقدرين له المذاهبين مذهبه ، وكان إذا أراد عقل رجل سأله عن بغداد والجاحظ (٢) ، وكان يسالك طريقة الجاحظ وتارة طريقة السجع (٣) ، وأزرى رجل بالجاحظ في مجلس ابن العميد فسكت عنه ، ثم قال : لم أجد أبلغ من تركه ؛ ولو وافقته لظفر في كتبه وصار بذلك إنساناً ، إن كتب الجاحظ تعلم العقل أولاً والأدب ثانياً (٤) .

وقال المسعودي (٥٣٤٦ هـ) في الجاحظ ؛ مع خصومته له إذ كان المسعودي شيعياً والجاحظ معتزلياً : ولا يعلم أحد من الرواة وأهل العلم أكثر كتباً من الجاحظ ، وكان المدائني كثير السكتب إلا أنه كان يؤدي ماسمع .

---

(١) ١ : ٤٥٦ العبر في خبر من غير للذهبي

(٢) راجع ص ٦٨ أدب الجاحظ للسندبي

(٣) ١٨٥ إعجاز القرآن للباقلائي - طبع دار المعارف

(٤) ٣ : ١٤٢ ، ١٠٣ : ١٦٠ معجم الأدباء لياقوت ، ٣ : ١٤٢ وفيات الأعيان

وكتب الجاحظ تجلوصدا الأذهان، وتكشف واضح البرهان، لأنه نظمها أحسن نظم، ورصفها أحسن رصف، وكساها من كلامه أجزل لفظ، وكان إذا تخوف ملل القارئ وسامة السامع، خرج من جد إلى هزل، ومن كلمة بليغة إلى نادرة طريفة، ولا يعلم من سلف وخلف من المعتزلة أفصح منه، وكان إذا تخوف ملل القارئ وسامة السامع خرج من جد إلى هزل، وسائر كتبه في نهاية السكمال (١).

ولم يذكر ابن النديم الجاحظ في الفهرست إلا عرضا، وعلل ذلك أحمد زكي باشا في مقدمته لكتاب التاج (٢) بأن النسخة المطبوعة من الفهرست مبتورة.

ويروى أن أبا محمد الحسن التجيرمي قال (٣): كنت بالأندلس فقيل لي إن ههنا تلميذا للجاحظ يعرف بسلام بن يزيد، فأتته فرأيت شيخا همتا، وحادثته فقال: كان طالب العلم يشرف عند ملوكنا بلقاء أبي عثمان (٤)، فوقع إلينا كتاب «التربيع والتدوير» له، فأشاروا إليه؛ ثم أوردفه عندنا كتاب «البيان والتبيين» له، فبلغ الجاحظ عنان السماء بهذين الكتابين، فخرجت لا أعرج على شيء حتى قصدت بغداد، فسألت عنه فقيل لي: هو بسر من رأى، فأصعدت إليها فقيل لي: قد انحدر إلى البصرة، فأنحدرت إليها، وسألت عن منزله، فأرشدت إليه، ودخلت فإذا هو جالس وحواليه عشرون شابا، فدهشت، فقلت أيكم أبو عثمان، فدهش الجاحظ لذلك، ووبخني، فقلت له: ما أنصفتني قد اشتملت على خصال أربع: جفاء البلدية،

(١) ٤ : ١٩٦ مروج الذهب (٢) ٤٣ و ٤٤ : التاج

(٣) ١٦ : ١٠٤ معجم الأدباء

(٤) هذا مع أن الجاحظ كان عباسيا ويخاصم الأموية، وملوك الأندلس كانوا أمويين.

وبعد الشقة ، وغرة الحداثة ، ودهشة الداخل ، وأقت عليه عشرين سنة أخذ عنه .

ويدل على شهرة كتب الجاحظ ومجده الأدبي ما رواه أبو حيان ، قال (١) : من عجيب الحديث في كتب الجاحظ ما حدثني به علي بن عيسى الرماني النحوي المعتزلي ( ٢٧٩ - ٣٨٤ هـ ) ، قال : سمعت شيخي أبا بكر يقول : ذكر الجاحظ أسماء كتبه في أول كتاب « الحيوان » ، وفيها كتاب « دلائل النبوة » ، وكتاب « الفرق بين النبي والمتنبى » ، وذكرهما الجاحظ كذلك في الجزء الرابع من الحيوان (٢) ، ولم أر غير « دلائل النبوة » ، فهمنى ذلك ، فلما شخصت من مصر ودخلت مكة ، أقمت مناديا بعرفات ينادى : رحم الله من دلنا على كتاب « الفرق بين النبي والمتنبى » للجاحظ ، فلم أجد من يعرف هذا الكتاب .

وقال أبو بكر محمد بن اسحاق ، قال لي ابراهيم بن محمود ، ونحن ببغداد ، ألا تدخل على الجاحظ ، فقلت : مالى وله ؟ قال إنك إذا انصرفت إلى خراسان سألوك عنه ، فلو دخلت إليه وسمعت كلامه . . الخ (٣)

ومن كتب عن الجاحظ : المسعودى ( ٣٤٦ هـ ) في « مروج الذهب » ، والخطيب البغدادي ( ٤٦٣ هـ ) في « تاريخ بغداد (٤) » ، والشهرستاني في « الملل والنحل (٥) » ، وذكره المرتضى في كتاب « المعتزلة (٦) » ، والبغدادى في

(١) ١٦ : ١٠١ معجم الأدباء

(٢) ٤ : ١٢٢ الحيوان

(٣) راجع ١٧١ أدب الجاحظ للسندوبى

(٤) ١٢ : ٢١٨ - ٢٢٠ ط القاهرة ١٩٣١

(٥) ٥٢ و ٥٣ الملل والنحل ط ليبسك ١٩٢٣ (٦) ص ٣٨

كتابه « الفرق بين الفرق » (١) ، وابن الأنبارى فى « نزهة الألباء » (٢) ،  
وأشار إليه ابن عساكر فى « تاريخ دمشق » (٣) ، والسيوطى فى « بغية الوعاة » ،  
والدميرى فى « حياة » (٤) الحيوان الكبيرى ، ، واليافعى (٥) ، وذكره ابن  
العماد الحنبلى فى كتابه « شذرات الذهب » ، وقال عنه : إنه كان بحرا من بحور  
العلوم ، رأسا فى الكلام والاعتزال ، وأحسن تأليفه وأوسعها فائدة ،  
كتاب الحيوان وكتاب البيان ، وقد صنف الكثير من الكتب فى مختلف  
أنواع الفنون (٦) .

ولا يخلو كتاب من كتب الأدب والتاريخ والنقد والشعر من ذكر  
الجاحظ وأدبه وبلاغاته وتآليفه ، وفى مقدمتها : الكامل للمبرد ، وعيون  
الأخبار لابن قتيبة ، الذى تبع الجاحظ فى منهجه فى التأليف فى هذا الكتاب ،  
وكذلك العقد الفريد لابن عبد ربه ، وقد حاكى فيه عيون الأخبار لابن  
قتيبة وأخذ كثيرا من مضمونه دون ذكر المصدر ، وكذلك الأغاني  
للأصفهاني ، وزهر الآداب للحضرى ، والعمدة لابن رشيق ، والمثل السائر  
لابن الأثير ، وسواها ..

---

(١) ١٦٠ - ١٦٣ الفرق بين الفرق

(٢) ٢٥٤ - ٢٥٩ نزهة الألباء

(٣) ٢٠٣ : ٩ - ٢١٧ مجلة المجمع العلمى العربى

(٤) ١ : ١٦٠ حياة الحيوان

(٥) ١٦٢ : ٢ - ١٦٦ مرآة الجنان

(٦) ١٢١ : ١٢٢ شذرات الذهب

وقد ألفت عن الجاحظ كتب كثيرة منها :

- ١ - تقرّظ الجاحظ لأبي حيان التوحيدي ، وهو مفقود .
- ٢ - أدب الجاحظ للسندوبي - وظهر عام ١٩٣١ في القاهرة .
- ٣ - الجاحظ معلم العقل والأدب لشفيق جبري طبع القاهرة ١٩٤٨
- ٤ - الجاحظ لتحليل مردم ، وقد ظهر في سلسلة أئمة الأدب بدمشق عام ١٩٣٠ .
- ٥ - الجاحظ لفؤاد البستاني وهو من سلسلة الروائع - الحلقة ١٨ ، ٢٠ وظهرت في بيروت عام ١٩٢٨
- ٦ - النفس الإنسانية في أدب الجاحظ لسامي السكيالي وهو من سلسلة اقرأ - القاهرة ١٩٦٣ .
- ٧ - فن القصص في كتاب البخلاء - تأليف د. محمد المبارك - دمشق ١٩٤٠
- ٨ - النثر الفني وأثر الجاحظ فيه - تأليف بليغ .
- ٩ - الجاحظ لحنا الفاخوري - طبع دار المعارف بالقاهرة .
- ١٠ - نواذر الجاحظ بقلم جميل جبر - طبع بيروت .
- ١١ - النقد المنهجي عند الجاحظ - لدواد سلوم - بغداد ١٩٦٠
- ١٢ - الجاحظ لطله الحاجري - القاهرة ١٩٦٤

وتتحدث جميع كتب الأدب العربي عن الجاحظ في إفاضة ومن بينها:

- ١ - تاريخ آداب اللغة العربية لجورجي زيدان (١) .

---

(١) تحدث عن حياته وأدبه وتأليفه (٢: ١٩٣ - ١٩٦) ، وعن أسلوبه

- ٢ - الحياة الأدبية في العصر العباسي للمؤلف (١) - القاهرة ١٩٥٤
- ٣ - من بلاغة العرب للمؤلف .
- ٤ - تاريخ الأدب العربي لبزركان (٢) .
- ٥ - الأدب العربي وتاريخه الجزء الثاني تأليف محمود مصطفى .
- ٦ - تاريخ الأدب العربي للزيات .
- ٧ - المفصل ، والمجمل ، لطفه حسين وغيره .
- ٨ - المنهل في تاريخ الأدب العربي - ثلاثة أجزاء لروكس العريزي - طبع الأردن ١٩٥٨ .
- ٩ - تاريخ الأدب العربي للفاخوري حريصا ١٩٥١ .

— ٥ —

ومن الكتب التي عرضت للجاحظ :

- ١ - الجزء الثاني من كتاب أمراء البيان لمحمد كرد علي طبع في القاهرة عام ١٩٢٧ .
- ٢ - عصر المأمون لمحمد فريد رفاعي (٣) - طبع في القاهرة ١٩٢٧ .
- ٣ - ضحى الإسلام لأحمد أمين (٤) .
- ٤ - ابن المعتز وتراثه في الأدب والنقد والبيان للمؤلف .

---

(١) ٣٠٥ - ٣١٦ الحياة الأدبية في العصر العباسي  
(٢) ١٠٦ : ٣ - ١٢٨ تاريخ الأدب العربي ترجمة د. النجار  
(٣) ٤٢٠ : ١ - ٤٢٩ ، ٣ : ٧٢ - ١٢٧  
(٤) ٤٠٨ : ١ - ٤٢٤ ، ٣ : ١٣٧ - ١٤٠ طبع النهضة المصرية  
بالقاهرة ١٩٥٦ ، ١٩٦٢

٥ - تطور الأساليب النثرية في الأدب العربي لأنيس المنة - دسى  
طبع بيروت (١)

٦ - من حديث الشعر والنثر لطف حسين طبع القاهرة ١٩٣٦ (٢)

٧ - الفن ومذاهبه في النثر العربي لشوقي ضيف - القاهرة ١٩٤٦

٨ - تاريخ التمدن الإسلامى لزيدان - القاهرة ١٩٣١

٩ - دائرة المعارف الإسلامية

١٠ - الإعلام للزركلى

١١ - زهر الآداب للحصرى

١٢ - المعنزلة لزهدي حسن جار الله - القاهرة ١٩٤٧

- ٦ -

وتحدث الدكتور طه حسين عن الجاحظ وأثره في البيان العربي في  
مقدمة تحقيقه لكتاب « نقد النثر » المنسوب لقدامة بن جعفر .

وتحدث عن آراءاته البلاغية في الجزء الثانى من شرحى على « الإيضاح »  
في البلاغة للقزوينى .

وكذلك عرض سيد نوفل له فى كتابه « البلاغة العربية فى دور نشأتها »  
وابراهيم سلامة فى كتابه « بلاغة أرسطو » .

- ٧ -

والصحف والمجلات العربية التى كتبت عن الجاحظ كثيرة ، ومن بينها :

---

(١) ص ١٧٦ - ٢٠١ تطور الأساليب

(٢) ٨٠ - ١٢٣ من حديث الشعر والنثر

الرسالة (١) والثقافة ، ومجلة الأزهر ؛ ومجلة المجمع العلمي العربي (٢) ، ومجلة المشرق (٣) والأديب (٤) والآداب ، وغيرها .

- ٨ -

مراجع عربية أخرى :

هذا وقد صدر عن الجاحظ كتب أخرى هي :

- ١ - الجاحظ تأليف طه الحاجري نشر دار المعارف بمصر
- ٢ - الجاحظ تأليف أحمد الحوفي - نشر المجلس الأعلى للشئون الإسلامية
- ٣ - النزعة الكلامية في أسلوب الجاحظ للأب فيكتور شلحت ونشر دار المعارف بمصر

٤ - الجاحظ في البصرة وبغداد ومما را تأليف شارل بيلا ، وترجمة إبراهيم الكيلاني - طبع دمشق

ومن المقالات التي نشرت أخيراً عن الجاحظ مقاله في مجلة الفكر التونسية ؛ عدد مارس ١٩٦٥ وعنوانها الجاحظ من خلال أسلوبه .

وفي مجلة المكتبة العراقية عدد أيار ١٩٦٥ أن المستشرق الفرنسي شارل بيلا صاحب المؤلفات والتحقيقات المعروفة عن الجاحظ قد زار أخيراً العراق وبعث إلى مجلة المكتبة العراقية برسالة ذكر فيها أن وفاة الجاحظ في محرم ٢٥٥ هـ الموافق لكانون الأول ٨٦٨ - ٢٠ كانون الثاني ٨٦٩ م .

- 
- (١) راجع عدد ١٤ و ١٩٣ ، دعاية الجاحظ لمحمد فهمي عبد اللطيف
  - (٢) ١٢ : ٤٠ - ٥١ تم الجاحظ لشفيق جبري ، ١٢ : ٨٩ - ١٠٥ مذهب الجاحظ في النقد ، ١٢ : ٢٩٢ - ٣١٥ فن الجاحظ
  - (٣) ٢٦ : ٥٣٢ - ٥٣٩ ، ٦٦٢ - ٦٧١ لفؤاد البستاني
  - (٤) ٥ عدد ١٢ ص ٨ مع الجاحظ في حياته وأدبه

وقد حقق المستشرق الفرنسي شارل بيلا رسالة التريبع والتدوير التي نشرها المعهد الفرنسي في دمشق ، وطبع كثير آ من آثار الجاحظ ، مثل كتاب : القول في البغال ، ونشر في مجلة أرايكا كتاب التبصرة بالتجارة ، ونشر في مجلة الشرق « لعبة أدبية منسوبة للجاحظ » ، ونشر في حوليات معهد الدراسات الشرقية ، وثيقة من الجاحظ لتاريخ الإسلام السياسي وتنشر له الآن دار المكشوف ببيروت فصولا للجاحظ لم تنشر من قبل ؛ ويقوم الآن بتحقيق كتاب الأمصار ومعجائب البلدان الجاحظ .

وفي هذه الأيام صدر الجزء الأول من طبعة جديدة لرسائل الجاحظ بتحقيق عبد السلام هارون .

أما كتاب « تقرّظ الجاحظ » لأبي حيان التوحيدي فهو مفقود وقد ذكر ياقوت في معجم الأدباء أنه رآه بخط المؤلف ، وقد نقل منه نصوصا كثيرة في معجم الأباة (١) .

وفي كتاب « أبو حيان التوحيدي » للحوفي موازنة طويلة بين الجاحظ والتوحيدي ، والموازنة بين الجاحظ وغيره متعذرة كما يرى شارل بيلا .

وقد صدر عن الجاحظ كثير من البحوث والمؤلفات بمختلف اللغات الأوروبية ؛ وأهم الدراسات عنه ما كتبه بروكلمان في كتابه المشهور ( تاريخ الأدب العربي ) عن مؤلفات الجاحظ ، وكتاب شارل بيلا عن الجاحظ في البصرة وبغداد وسامرا ؛ وفي دائرة المعارف الإسلامية دراسة مستفيضة عن الجاحظ .

---

(١) ٢٧: ٣ ، ٨ : ١٥٠ و ١٥١ ، ١٦ : ٩٠ - ٩١ و ٩٥ - ١٠٢ معجم الأدباء

## الفصل الثالث

### آراء خصوم الجاحظ فيه

لقد لقي الجاحظ كذلك في عصره وبعد عصره كثيراً من الحملات والخصومات والنقد ، وسوف نعرض بعض هذه الآراء في إيجاز ، رغبة في استكمال وجهات النظر ، التي أبدت عن الجاحظ .

#### الجاحظ وشعراء عصره :

١ - كان أبو كريمة البصري الشاعر صديق الجاحظ ، ويؤثر أنه نظم هذه الأبيات عتاباً لأبي عثمان ، وهي :

|                             |                               |
|-----------------------------|-------------------------------|
| لم يظلم الله عمراً حين صيره | من كل شيء سوى آدابه عارى      |
| إني أعيدك والمعتاذ محترس    | من شؤم عمرو بعز الخالق البارى |

٢ - وقال فيه الجواز :

|                     |                    |
|---------------------|--------------------|
| يا فنى نفسه إلى الـ | كفر بالله تافقة    |
| لك فى الفضل والتزم  | د والنسك سابقة     |
| ندع الكفر جانباً    | يادعى الزنادقة (١) |

٣ - وقال فيه الجواز أيضاً :

قال عمرو مفاخرأ  
نحن قوم من العرب

قلت في طاعة الرب لك أبليت ذا الذنب (١)

وتروى أبيات الجاهز (٢) لعبد الصمد بن المغزل ، ونسبها المرزباني لأحمد  
ابن اسحاق الخاركي (٣) .

٤ - وقال بعض خصوم الاعتزال يهجو :

لو يمسح الخنزير مسحا ثانيا ما كان إلا دون قبح الجاحظ  
رجل ينوب عن الجحيم بنفسه وهو القذى في كل طرف لاحظ

الجاحظ وابن قتيبة :

ابن قتيبة (٥٢٧٦ هـ) من أهل السنة لذلك كان يكره الاعتزال والمعتزلة  
وقد عاصر الجاحظ وتأثر به ، وأجازه الجاحظ برواية بعض كتبه (٤) ؛ وقد  
نقد الجاحظ في كتابه « تأويل مختلف الحديث » ، قال عنه : آخر المتكلمين ،  
والمعار على المتقدمين ؛ وأحسنهم للحجة استشارة ؛ وأشدهم تلطفا لتعظيم  
الصغير حتى يعظم وتصغير العظيم حتى يصغر ، ويبلغ به الإقتدار إلى أن  
يعمل الشيء ونقيضه ، ويحتج لفضل السودان على البيضان مرة ومرة لفضل  
البيضان عن السودان ؛ ونجده يحتج مرة للعثمانية على الرافضة ومرة للزيدية  
على العثمانية وأهل السنة ، ومرة يفضل عليا ومرة يؤخره ، ويقول :  
قال رسول الله ويتبعه قال الجاهز وقال اسماعيل بن غزوان ، ويذكر

---

(١) ١٦ : ٨٣ المرجع

(٢) ترجمته في معجم الشعراء للمرزباني ، ٥٩ الورقة لابن الجراح (٥٢٩٦ هـ)

تحقيق عزام وفراج ، وراجع ترجمة ابن الجراح في ٣ : ١٠٣ وفيات الأعيان

(٣) راجع ترجمته في كتاب الورقة لابن الجراح

(٤) راجع ٣ : ١٩٩ ، ٢١٦ ، ٢٤٩ عيون الأخبار

حجج النصارى على المسلمين فإذا صار للرد عليهم تجوز في الحجة ، وكأنما أراد تنبيههم على ما لا يعرفون ، ويقصد في كتبه للمضاحيك والعبث يريد بذلك استهالة الأحداث ، ويستهزئ من الحديث استهزاء لا يخفى على أحد .

وهذا النقد نقد رجل محافظ ليس على جانب كبير من الحرية الفكرية التي كانت لدى الجاحظ ، وهو نقد رجل لا يحب الاعتزال والمعتزلة لأنه من أهل السنة ؛ كما ذكر ابن تيمية ( ٥٧٢٨ هـ ) .

وقد رد على ابن قتيبة أحمد أمين<sup>(١)</sup> ، ووازن بين الجاحظ ، وابن قتيبة ، فذكر أن شخصية الجاحظ في كتبه أقوى ، أما ابن قتيبة فواسع الاطلاع في غير شخصية قوية ، فهو يعرف كثيرا ويجمع كثيرا ويؤلف كثيرا وقد يكون في ذلك قريبا من الجاحظ<sup>(٢)</sup> ؛ والجاحظ يمس في جميع ما يكتب الحياة الاجتماعية في عصره ؛ ويتغلغل فيها ، أما ابن قتيبة فلم يكن يتناول حياة المجتمع في كتبه بشيء<sup>(٣)</sup> ؛ وقد تأثر في كتاب عيون الأخبار بالجاحظ .

### الجاحظ و ثعلب :

أبو العباس ثعلب ( ٢٠٠ - ٢٩١ هـ ) من أئمة الكوفيين في النحو واللغة والأدب والشعر ، وقد عاصر الجاحظ وتأثر به ، ولا يخفى أثر المعاصرة ؛ ثم المناقشة بين علماء الكوفة والبصرة في تحامل ثعلب على الجاحظ ؛ إذ قال : أمسكوا عن ذكر الجاحظ فإنه غير ثقة<sup>(٤)</sup> وهو قول جائز ؛ وقد تأثر به أبو المنصور الأزهرى ( ٤٨٢ ، ٥٣٧٠ هـ ) فقال عن الجاحظ : روى عن

(١) ١ : ٢٥٥ ضحى الإسلام ، وكذلك رد السندوبى على ابن قتيبة

(٢) ١ : ٤٢٦ المرجع

(٣) ٢ : ١٢٢ شذرات الذهب

الثقات ما ليس من كلامهم ، وكان قد أوتي بسطة في لسانه ، ويانا في خطابه ،  
ومجالا واسعا في فنونه ، غير أن أهل العلم والمعرفة ذموه ، وعن الصدوق دفعوه ،  
وقد رد عليه السندوبى بأنه حكم لادليل معه (١) .

### الجاحظ والبديع :

بديع الزمان الهمداني (٥٣٩٨ هـ) من أشهر أدباء القرن الرابع الهجرى  
وإمام « فن المقامات » فى الأدب العربى ، وقد تأثر بالجاحظ وبلاغته .

وكتب مقامة سماها « المقامة الجاحظية » ، وهى المقامة الرابعة عشرة من  
مقاماته (٢) وفيها وزن بين الجاحظ وابن المقفع قال عنه : « إنه فى أحد شقى  
البلاغة يقطف وفى الآخر يقف » ، والبليغ من لم يقصر نظمه عن نثره . فهل  
ترون للجاحظ شعرا رائعا .. وكلامه بعيد الإشارات ، قريب العبارات قليل  
الاستعارات ، منقاد لعيان الكلام يستعمله ، فهل سمعتم له بكلمة غير  
مسموعة أو لفظة غير مصنوعة ؟ .

ولا يضير الجاحظ أن يكون كما قال البديع فى أحد شقى البلاغة يقطف  
وفى الآخر يقف ، فإذا عليه لو كان غير شاعر ؟ فقد يجيد الرجل فى باب من  
أبواب الأدب دون باب آخر ، ولا يفض ذلك من إحسانه فيما أحسن فيه ،  
وقد أراد البديع الفخر بنفسه على حساب الجاحظ ، وليته وقف عند هذا  
الحد ، فلم يرم الجاحظ بما رماه به غير ذلك ، وماذا على الجاحظ إذا نفر من  
استعمال الغريب ومن أساليب الصنعة والمصنعين ؟ وإنما أراد البديع أنه أعلى  
من الجاحظ يانا ومكانا ، وهيات ، وإذا كان كلام الجاحظ عميق المعنى  
فليس ذلك عيبا له ، كما أن البلاغة ليست فى كثرة الاستعارات ولا فى غرابة

---

(١) ٥٣ أدب الجاحظ للسندوبى

(٢) ٦٩ - ٧٤ مقامات البديع شرح محمد عبده ، ٤٩٨ و ٤٩٩ ج ١ زهر الآداب

العبارات ولا في الإتيان بالأساليب المصنوعة .. إن كلام البديع ليس إلا من باب الظرف والتحايل على الحقائق والقراء فحسب .

### الجاحظ والباقلاني :

أبو بكر الباقلاني (٤٠٣ هـ) صاحب كتاب إعجاز القرآن وغيره إمام من أئمة المتكلمين ورجال الدين في القرن الرابع الهجري .

وفي هذا الكتاب ينقد الجاحظ فيقول : قد يزعم زاعمون أن كلام الجاحظ من السمات الذي لا يؤخذ فيه ، والباب الذي لا يذهب عنه ، وأنت تجد قوما يرون كلامه قريبا ، ومنهاجه معيبا ونطاق قوله ضيقا ، حتى يستعين بكلام غيره ؛ ويفزع إلى ما يوشح به كلامه ، من بيت سائر ومثل نادر ؛ وحكمة ممهدة منقولة ، وقصة عجبية مأثورة وأما كلامه أثناء ذلك فسطور قليلة ، وألفاظ يسيرة (١) ؛ على أن متأخرى الكتاب قد نازعوه طريقته ؛ ففهم من ساووه حين ساماه ؛ هذا ابن العميد قد سلمك مسلكه ؛ وأخذ طريقه ؛ فلم يقصر عنه ولعله قد بان تقدمه عليه ، لأنه يأخذ في الرسالة الطويلة فيستوفيها على حدود مذهبه ، والجاحظ متى ذكر من كلامه سطرا أتبعه من كلام الناس أوراقا ، وإذا ذكر منه صفحة بنى عليه من قول غيره كتابا (٢) .

وكلام الباقلاني جيء به في مقام الموازنة بين كلام الله تعالى وكلام أئمة البلاغة في أدب العرب ، فالباقلاني لا يريد أن ينقد بقدر ما يريد هذه الموازنة .. ومع ذلك فلا استطراد والاعتباس عند الجاحظ يريد الباقلاني أن يعيبه بهما ؛ ويريد كذلك أن يعيبه بسبق تلاميذه في ميدان الأدب ، والنقد كله لا يحصل له ، ولا معنى يحمله .

---

(١) ٣٧٧ إعجاز القرآن ط دار المعارف بالقاهرة

(٢) ٤ : ١٠٣ المسعودي مروج الذهب

### الجاحظ والاسكافي :

أبو جعفر محمد بن عبد الله الاسكافي (٢٤١ هـ) المعتزلي (١) نقد آراء الجاحظ في كتابه «العثمانية» وسماه «نقض كتاب العثمانية للجاحظ»، وكان الاسكافي معتزليا شيعيا، لذلك نقم على الجاحظ تحامله في كتابه على الإمام علي فنقده نقدا لاذعا، ورد على كلامه ردا شديدا (٢)؛ وهو نقد فكرة بفكرة إلا أنه أثناء ذلك يخرج الاسكافي عن النقد العلمي إلى التحامل المذهبي، وبما قاله الاسكافي: «القول ممكن والدعوى سهلة، سيما على مثل الجاحظ فإنه ليس على لسانه من دينه وعقله رقيب، وهو من دعوى الباطل غير بعيد، فمعناه نزر، وقوله لغو، ومطلبه سجع، وكلامه لعب ولهو؛ يقول الشيء وخلافه، ويحسن القول وضده، ليس له من نفسه واعظ، ولا لدعواه حد قائم» (٣)، ويطول بنا المقام لو ناقشنا الاسكافي وكلامه مناقشة علمية موضوعية ..

### آراء أخرى عن الجاحظ :

ومع ذلك فقد نقد الجاحظ الكثيرون من الأدباء والعلماء في الأدب والنقد والاعتزال وفي غيرها .

١ - نقده علي بن يحيى المنجم (٢٧٥ هـ) في تفسيره - في كتاب «البيان» - لقول مالك بن أسماء الفزاري :

منطق صائب وتلحن أح ياذا وخير الحديث ما كان لحنا

---

(١) ٤ : ١٠٣ المسعودي - مروج الذهب

(٢) كتاب الجاحظ «العثمانية» ونقضه للاسكافي منشوران في رسائل الجاحظ

التي نشرها السندوبي عام ١٩٣٣

(٣) ص ٣٨ رسائل الجاحظ للسندوبي

بأن اللحن المقصود من الخروج عن الإعراب ، مع أنه يريد التورية ، وقد علق على هذا أبو حيان التوحيدي مبرراً مذهب إليه الجاحظ بأن الكلام محتمل للمعنيين .

٢ - ونقده المسعودى المؤرخ (٣٤٦ هـ) صاحب مروج الذهب فقال : زعم الجاحظ أن «نهر مكران» - نهر السند - من النيل ، واستدل على أنه من النيل بوجود التماسيح فيه ؛ فليست أدرى كيف وقع له هذا الدليل وذكر ذلك فى كتابه «الأمصار» ، وهو كتاب فى نهاية الغثاء ، لأن الرجل لم يسلك البحار ، ولا أكثر الأسفار ، ولا تعرف الممالك والأقطار ، وإنما هو حاطب ليل ، ينقل عن كتب الوراقين .

هكذا قال المسعودى ، وهو محق فى هذا النقد ، لكنه أظهر تحاملاً كثيراً على الجاحظ ، فقله : «إن أبا عثمان لم يسلك البحار ولا أكثر الأسفار الخ» فيه بعض المغالاة ، فقد ذكرنا من قبل أنه كان له رحلات كثيرة ، وأنه كان إلى جانب ذلك يتحرى المشاهدة لا النقل من كتب الوراقين كما يقول الناقد القديم .

٣ - ورمى ابن الراوندى أبا عثمان ببغض الرسول صلى الله عليه وسلم ورد عليه الخياط بقوله : «وأما رميك للجاحظ ببغض الرسول فهو دليل أنك لا تعرف المحب من المبغض ، ولا الولي من العدو ، لأنه لا يعرف المتكلمون أحداً منهم نصر الرسالة ، واحتج للنبوة ، بلغ فى ذلك ما بلغه الجاحظ ، ولا يعرف كتاب فى الاحتجاج لنظم القرآن وعجيب تأليفه ، وأنه حجة لمحمد صلى الله عليه وسلم على نبوته غير كتاب الجاحظ وهذه كتبه فى إثبات الرسالة وفى تصحيح مجيئ الأخبار مشهورة . الخ» .

٤ - وفى صدر «الحيوان» للجاحظ يعرض أبو عثمان لأراء خصومه ونقاده فيه وفى كتبه ، ويرد عليهم بلباقة وحصافة وذكاء شديد .

٥ - وروى المازني عن الجاحظ قال: « رأيت المريسي (١) ، وقد سئل عن رجل ، فقال : هو على أحسن حال وأهيؤها ، فقلت لأصحابه: لحن ، فقالوا لي : أترى أننا نبطل قول المريسي ونقبل منك ، فذهبوا فسألوا ثمامة ، فقال ثمامة : أخطأ الجاحظ ، الجاحظ أحق ، هذا يجوز ، على قول القائل : « إن سليمي والله يكلؤها (٢) » .

وهذا النقد النحوي المصيب فيه الجاحظ لا المريسي ولا ثمامة ، وما جاء به ثمامة ليس نظيرا للجملة التي لحن فيها بشر المريسي .

٦ - واتهمه درينان ، المفكر الفرنسي ، وتبعه « كارادى فو » ، أبا عثمان بأنه كبقية علماء العرب والإسلام فى الاعتماد على الحفظ ، لاعلى البحث ، ويقول (كارادى فو) أن الطابع الأدبى لا العلمى هو الغالب على كتب الجاحظ ، وهذا ظلم كبير لأبى عثمان الذى كان أشهر العلماء المسلمين اعتمادا على التجربة والمعاينة والامتحان والبحث ، وكان يقدم الشك أولا . وقد أسلفنا أنه سبق ديسكارت فى مذهبه فى الشك ، وسبق يسكون فى مذهبه التجريبى العلمى .

ويقول باحث معاصر : إن هذا الاتهام ينقضه كلام الجاحظ نفسه ، الذى يدل على اهتمامه بالتجربة والخبرة الحسية ، وهو يميل دائما إلى المعاينة فهو لا يعتمد على السماع والنقل والحفظ ، ولكنه يعتمد على الرؤية التى هى سبيل من سبل البحث العلمى التجريبى . على أنه كثيرا ما جمع بين الرؤية

---

(١) من أئمة المعتزلة ، وكان يقول بخلق القرآن ، وتوفى عام ٢١٨هـ (راجع ٢ : ٢١٣ البيان - ٧ : ٥٧ تاريخ بغداد - ٢ : ١٥٧ عيون الأخبار - ١٩٢ الفرق بين الفرق - ٢ : ٢٩ - اسان الميزان - ٥٢٣ السمعاني)

(٢) ١٦٠ مجالس العلماء للزجاجي - ط السكوت ١٩٦٢

والتجربة ، واستعانته بالحواس في التحقيق مماثلة لاستعانة الفيلسوف « ييكون » بها ، وقد سبق « ييكون » إلى المناداة بطريقة التجربة ، فاستعان بالحواس ، وأوصى بعدم المغالاة فيها لأنها قد تخدع ، ويزدحم كتابة « الحيوان » بمئات التجارب التي أجراها هو بنفسه ليصل إلى الحقيقة العلمية ، ومن تجارب الجاحظ قبضه على الحيوان بنفسه أو بغيره ليقف على حركته ، وتجربته على بعض الحيوانات بدفنها في بعض النبات ليعرف حركاتها ، كما فعل في « الجعل » حين دفنه في الورد فمات ، فلما أعيد إلى ( الروث ) عادت إليه حركة الحياة من ساعته .

وهكذا نرى الجاحظ عالما تجريبيا عمليا متطلعا إلى المعرفة عن طريق الخبرة والتجربة ، ويذكرنا ما فعله الجاحظ في تاريخ المعرفة العربية بما فعله ( رابليه ) الفرنسي في تاريخ التربية والتعليم في القرن ١٦ الميلادي ، إذ دعا إلى نبذ المذهب الجدلي (١) .

---

(١) ص ٢١ عدد ١٠٢٠ من مجلة الرسالة المصرية — أول أغسطس ١٩٦٣ -  
من مقال للأستاذ محمد عبد الغنى حسن ، بعنوان « الاستظهار والتجربة في الثقافة العربية » .

## الفصل الرابع

### آثار الجاحظ

- ١ -

ترك الجاحظ آثارا فكرية وأدبية ودينية على جانب كبير من الأهمية في تاريخ الفكر العربي ؛ وقد ضاعت هذه الآثار ، ولم يبق إلا القليل الأقل منها ..

وهذه الآثار مظهر للمسكة العلمية ، ولذهنية عقلية ، ولطالعات وبحوث ، عميقة ، إذ كان أبو عثمان أكثر الناس حبا للقراءة والتأليف ، ولا يعلم أحد من العلماء أكثر تأليفا منه ، كما يقول المسعودي (١) ، وقد اشتهر الجاحظ وثلاثة من معاصريه بكثرة التأليف ، وهم :

١ - هشام الكلبي ( ٢٠٦ هـ ) ، وله نحو ١٣٩ مؤلفا (٢)

٢ - أبو عبيدة ( ١١٠ - ٢٠٩ هـ ) ، وله نحو مائتي مؤلف (٣) . ويقول فيه الجاحظ : لم يكن في الأرض خارجي ولا جماعي أعلم بجميع العلم منه (٤)

٣ - المدائني ( ١٣٥ - ٢٢٥ هـ ) وكتبه نحو المائتين ، ويقول المسعودي عنه : إن كان كثير الكتب ، إلا أنه كان يؤدي ما سمع (٥)

---

(١) ٤ : ١٩٥ مروج الذهب

(٢) ١٤٩ فهرست لابن النديم

(٣) ٢ : ١٠٦ وفيات الأعيان ، ٧٩ فهرست

(٤) ١ : ٢٢٤ البيان

وكان يقال : أربعة لم يلحقوا ، ولم يسبقوا : أبو حنيفة في فقهه ،  
والخليل في أدبه ، والجاحظ في تأليفه ، وأبو تمام في شعره .

والقارىء لكتيب الجاحظ وما خوته من آثار حفظه وتدوينه  
واستقراءه واستنتاجه يدرك سر إعجاب الأجيال بها ، حتى كان الناس  
يترقبون في عصره صدورها كما يترقب اليوم ظهور الصحف والمجلات الذائعة ،  
ولم يكن عند أبي عثمان أحب من الكتيب والعلم كما قال أبو هفان (١)

وتبلغ مؤلفات الجاحظ نحو ٣٦٠ كتابا في رأى البعض ، وقد رأى  
أكثرها في مشهد أبي حنيفة ببغداد مسط ابن الجوزى (٢٥٤ هـ) (٢)  
أو ٣٥٠ كتابا في رأى آخر (٣) ، أو أكثر من ١٧٠ كتابا في رأى فريق  
ثالث منهم ابن حجر (٤) ، أو نحو ١٦٠ كتابا في رأى رابع (٥) ، وعدها  
ياقوت ١٢٨ مؤلفا (٦)

ومعروف أحاول إحصاء هذه الكتيب إحصاء دقيقا شاملا في هذا الفصل :

### ١ - كتيب في القرآن الكريم :

١ - كتاب الاحتجاج لنظم القرآن وغريب تأليفه وبديع تركيبه ،  
ذكره الجاحظ في مقدمة « الحيوان » ، ونقده الباقلاني وقال : إنه لم يأت

---

(١) ١٦ : ٧٥ معجم الأدباء لياقوت

(٢) مرآة الزمان الورقة ٥٨ من المجلد الثالث من الجزء العاشر - مصورة  
دار الكتيب المصرية

(٣) ٢ : ٤١٩ أمراء البيان لمحمد كرد علي

(٤) ٤ : ٣٥٧ لسان الميزان

(٥) السندوبى - أدب الجاحظ - فصل « مؤلفاته »

(٦) ٦ : ٧٥ - ٧٨ معجم الأدباء ( مرجليوث )

فيه بجديد ولم يخرج فيه عما قاله المتكلمون قبله (١) ؛ وذكره ياقوت (٢) باسم  
« نظم القرآن » ،

٢ - كتاب آى القرآن ، جمع فيه آيات من القرآن يتعرف بها فرق  
ما بين الإيجاز والحذف وما بين الروائد والفصول والاستعارات

٣ - خلق القرآن (٣) ، منه نسخة خطية بالمتحف البريطانى -

ثانى ١٢٢٩

٤ - الرد على من ألحد فى كتاب الله

٥ - مسائل القرآن (٤)

ب - كتب فى الأحكام :

٦ - رسالة فى الميراث

٧ - « فى الشارب والمشروب » ، منشورة فى مختارات رسائل الجاحظ  
بهامش « السكامل » ، للمبرد ، وفى رسائل الجاحظ نشر السندوبى (٥)

٨ - رسالة فى مدح النبيذ ، أهداها إلى الحسن بن وهب (٦)

---

(١) ٤٠٣ إيجاز القرآن للباقلانى - دار المعارف بالقاهرة

(٢) ١٦ : ١٠٧ معجم الأدباء

(٣) ١ : ٩ و ٤ الحيوان ، ٣ : ١١٤ تاريخ الأدب العربى لبروكلمان

(٤) ١٦ : ١٠٧ معجم الأدباء

(٥) ٢ : ٢٥١ - ٢٦٨ السكامل للمبرد ، ٢٧٦ - ٢٨٤ رسائل الجاحظ الطبعة

الأولى ١٩٣٣ ، وراجع ١٦ : ١٠٧ معجم الأدباء ، ومنها نسخة خطية فى  
المتحف البريطانى (ثانى ١٢٢٩)

(٦) راجعها فى رسائل الجاحظ نشر السندوبى الطبعة الأولى ١٩٣٣

- ٩ - رسالة في ذم النيزد
- ١٠ - كتاب ذم الزنا
- ١١ - كتاب ذم اللواط (١)
- ١٢ - كتاب القحاب والكلاب واللاطة (٢)
- ١٣ - ذم القواد (٣)
- ١٤ - أصول الفتيا والأحكام ، ويسميه ياقوت كتاب «الفتيا» ، (٤)
- ١٥ - رسالة في إثم السكر

ج - كتب في الاعتزال والكلام :

- ١٦ - كتاب فضيلة المعتزلة (٥)
- ١٧ - الاعتزال وفضله على الفضيلة (٦)
- ١٨ - إحالة القدرة على الظلم
- ١٩ - أحداث العالم
- ٢٠ - الاستطاعة وخلق الأفعال
- ٢١ - أفعال الطبائع

- 
- (١) ١ : ٣١ - ٤٠ السكامل للميرد
  - (٢) ١٢ الفرق بين الفرق للبغدادي
  - (٣) ٦٧ - ٧٢ طراز الجاس للشهاب الخفاجي
  - (٤) ١٦ : ١٠٧ معجم الأدباء
  - (٥) ١٦ : ١٠٧ معجم الأدباء ، ١ : ٥ الحيران ، ١٥٤ الفرق بين الفرق ؛ كتاب الانتصار للخياط - وقدر عليه ابن الراوندي بكتاب سماه « فضيحة المعتزلة »
  - (٦) ٣ : ١٢٧ ضحى الإسلام ، وقد يكون هو نفس الكتاب السابق

- ٢٢ - الدلائل والاعتبار على الخلق والتدبير (١) .  
٢٣ - الرد على الجهمية .  
٢٤ - الرد على القولية .  
٢٥ - الرد على من زعم أن الإنسان جزء لا يتجزأ .  
٢٦ - الرد على أبي إسحاق النظام وأشباهه (٢) .  
٢٧ - العبر والاعتبار (٣) ، وقد يكون هو نفس كتاب «التفكير والاعتبار» المنسوب للجاحظ ؛ وقد يكون الكتابان هما نفس كتاب «الدلائل والاعتبار»  
٢٨ - رسالة في اللاشي والمتلاشي .  
٢٩ - الوعد والوعيد .  
٣٠ - رسالة في نفي التشبيه ، أهداها إلى ابن أبي دؤاد (٤) .  
٣١ - المعارف (٥)  
٣٢ - مسائل وجوابات في المعرفة (٥) .  
٣٣ - مسائل كتاب المعرفة (٦) ويطلق عليه كتاب المعرفة (٧) .  
٣٤ - جوابات كتاب المعرفة (٦) ، ويسمى «جوابات المعرفة» ، ولعله كتاب الجوابات المنسوب للجاحظ .

---

(١) منه نسخة خطية في المتحف البريطاني (ثاني ٦٨٤) ونشر في حلب عام ١٩٢٨ ، وقد يكون هو كتاب «التفكير والاعتبار» المنسوب للجاحظ ، ويرجح البعض أنه للحارث المحاسبي (١٥٣ أدب الجاحظ للسندبي) ولجبريل بن نوح (نحو ٥٢٤٥ هـ) كتاب بهذا الاسم أيضا

(٢) المتحف البريطاني ثاني ١١٢٩ (٣) المتحف البريطاني ثاني ٦٨٤

(٤) مكتبة داود بالموصل ٧ : ٢٦٥

(٥) الفرق بين الفرق (٦) ١٦ : ١٠٧ معجم الأدباء

(٧) المتحف البريطاني ثاني ١١٢٩ : ١١

٣٥ - المسائل .

٣٦ - فضيلة الكلام (١) ، وللرازي (٥٢٢٠) كتاب في الرد عليه بعنوان:  
مناقضة الجاحظ في كتابه فضيلة الكلام .

٣٧ - المخاطبات في التوحيد (٢) .

د - كتب في الفرق والآراء :

٣٨ - كتاب أصحاب الإلهام، ويسمى كتاب الرد على أصحاب الإلهام، (٢)

٣٩ - بصيرة غنام المرتد (٣)

٤٠ - الرد على اليهود

٤١ - الرد على النصراني واليهودي (٤)

٤٢ - الرد على المشبهة (٥) .

٤٣ - الرد على النصارى (٦) ، وهو منشور بهامش الكامل ، وطبع في  
المطبعة السلفية ١٣٤٤ هـ ضمن ثلاث رسائل ، ونشره فنكل في ثلاث رسائل

---

(١) الفهرست لابن النديم ، ويسميه المسعودي « تفضيل صنعة الكلام »  
ويقول إنه هو الرسالة الهاشمية (٤ : ٣٢٤ مروج الذهب) التي قال خصوم الجاحظ  
إنه خرج فيها عن حد الاعتزال (١ : ٧ الحيوان)

(٢) ١٦ : ١٠٧ معجم الأدباء

(٣) أحرق بالنار لردته عام ٢٣٤ هـ (٣ : ١٣٠٢ الطبري - ط أوربا)

(٤) ١ : ٥ الحيوان

(٥) منه نسخة خطية في المتحف البريطاني (ثاني : ١١٢٩)

(٦) ١٦ : ١٠٧ معجم الأدباء

بالقاهرة ١٩٢٦ ، ومنه نسخة خطية في المتحف البريطاني (١) .

٤٤ - حجج النصارى على المسلمين (٢) .

٤٥ - حكاية قول أصحاب الزيدية .

٤٦ - ذكر ما بين الزيدية والرافضة .

٤٧ - معارضة الزيدية

٤٨ - مقالات الزيدية والرافضة ، ويتفق مع رسالة «استحقاق الإمامة» في بعض الأجزاء ، ومنه نسخة خطية (٣) .

٤٩ - رسالة في فرط جهل الكندي (الفيلسوف العربي ٢٥٣ هـ) ، ولعلماء رد على رسالته في صناعة الشعر (٤) .

٥٠ - رسالة في النابتة (٥)      ٥١ - الشعوبية (٦)

٥ - كتب في السياسة :

٥٢ - رسالة في أمر الحكيم وتصويب رأى على (٧) ، وهى مهداة إلى أبى حسان .

---

(١) المتحف البريطانى ثانى : ١١٢٩ : ٦

(٢) ٧٢ تأويل مختلف الحديث لابن قتيبة

(٣) المتحف البريطانى ثانى : ١١٢٩ : ٢٣ مقالات

(٤) ٣٥٩ الفهرست لابن النديم - ولأبى زيد البلخى (٣٢٢ هـ) تلميذ الكندي

رسالة في صناعة الشعر أيضا (١٩٨ الفهرست)

(٥) نشرها داود جلي في مجلة لغة العرب ١٩٣٠ ، ويرجح البعض أنها ليست

للجاحظ (٢ : ٣٦٠ أمراء البيان لمحمد كرد على)

(٦) ذكرها الجاحظ في البخلاء (٢٦٣ سطر ١١)

(٧) امبروزيانا ١٢٩ هـ - وتسمى «تصويب على في تحكيم الحكيم» =

٥٣ - رسالة في بني أمية (١) ، ومنها جزء منشور في رسائل الجاحظ جمع السندوبي ، وهي مطبوعة في الجزء الثالث من «عصر المأمون» (٢) .

٥٤ - الرد على العثمانية .

٥٥ - السلطان وأخلاق أهله .

٥٦ - الرسائل الهاشميات (٣) .

٥٧ - العثمانية ، وقد تعرض فيه للإمام علي بالنقد ورد عليه علماء من الشيعة ، منهم : أبو عيسى الوراق (٥٢٤٠هـ) ، والحسن النخعي ، والاسكافي (٤) (٥٢٤١هـ) وقد يكون هذا الكتاب هو كتاب «مسائل العثمانية» (٥) ، وهو كذلك عين كتاب «رسائل مقالات العثمانية» ، ويدافع الجاحظ فيه عن وجهة نظر العثمانية في الإمامة ، ولما نقض الاسكافي كتاب العثمانية في حياة الجاحظ دخل أبو عثمان حي الوراقين ببغداد فقال : أين هذا الغلام السوداوى الذى بلغنى أنه تعرض لنقد كتابى ، وأبو جعفر جالس ، فاختمت منه حتى لم يره ، وكان أبو جعفر الاسكافي علوى الراى (٦) .

---

= (١٦ : ١٠٧ معجم الأدباء) وقد تكون هى رسالته فى إثبات إمامة على ( مجلة لغة العرب ٩ : ٤٩٧ - ٥٠١ )

(١) منها نسخة خطية بالظاهرية بدمشق رقم ٩٤

(٢) ص ٢٩٢ وما بعدها (٣) ١ : ٥ الحيوان

(٤) ص ١ - ١٢ رسائل الجاحظ للسندوبي

(٥) مروج الذهب للمسعودى ، وتقدمه المسعودى نقدا لا ذعا

(٦) وجمال الدين الحلى (٦٧٣هـ) كتاب مخطوط عنوانه «بناء المقالة العلوية

فى نقض الرسائل العثمانية» فى ٢٥٣ صفحة ، ومنه نسخة خطية فى مكتبة الإمام كاشف الغطاء فى النجف رقم ٢٨٤ . وفى مكتبة الشيخ محمد رضا الشيبى فى بغداد نسخة خطية من كتاب «النقود» فى الرد على رسالة الجاحظ ، وتاريخ نسخها عام ١٣٤٥ هـ

٥٨ - تفضيل بني هاشم على من سواهم (١)

٥٩ - جوابات في الإمامة (٢)

٦٠ - الدلالة على أن الإمامة فرض ، ولعله هو نفس كتابه  
« استحقاق (٢) الإمامة ، ورسالة وجوب الإمامة ،

٦١ - الإمامة على مذهب الشيعة ، وربما كان هو كتاب « بيان مذاهب  
الشيعة ، المنشور في « مجموعة رسائل الجاحظ ،

٦٢ - إمامة معاوية (٣)

٦٣ - إمامة ولد العباس ، أو إمامة بني العباس (٤) ، ويقول المسعودي  
إن الجاحظ ألفه تقرباً ، ونشر منه السندوبي صفحات في كتابه « رسائل  
الجاحظ ، التي جمعها ، ويرجح أن تكون وصية العباس حين وفاته إلى علي  
ابن أبي طالب جزء من هذا الكتاب ، وقد ردها الصولي عن الجاحظ وأثبتها  
السندوبي (٥) ، وفيها يوصي العباس الإمام علياً بترك الشقاق للخليفة عثمان

٦٤ - الفخر مابين عبد شمس ومخزوم

٦٥ - غرر هاشم وعبد شمس ، وهو كتاب « فضل هاشم على عبد شمس ،  
المنشور في رسائل الجاحظ التي جمعها السندوبي

٦٦ - الرسالة اليتيمة

---

(١) مجلة لغة العرب ٩ : ٤١٤ - ٤٢٠

(٢) منه نسخة في المتحف البريطاني ( ثاني ١١٢٩ : ٢٦ )

(٣) المتحف البريطاني ثاني ١١٢٩ : ٢٠ ، وهي منشورة في: رسائل الجاحظ

(٤) ١٦ : ١٠٧ معجم الأدباء ، وأشار إليه المسعودي في مروج الذهب

(٥) ١٢٣ و ١٢٤ أدب الجاحظ للسندوبي

٦٧ - كتاب التاج أو أخلاق الملوك ، نشره أحمد زكي باشا عام ١٣٣٢ هـ :  
 ١٩١٤ م وكتب مقدمة أثبت فيها أنه للجاحظ ، والحق أنه منحول عليه (١)  
 والظاهر أن مؤلفه فارسي معاصر لأبي عثمان وأهداه للفتح بن خاقان ،  
 ويحتوى الكتاب (٢) على نصوص من كتاب آيين نامه (٣) ، وهو مصدر  
 نفيس للحضارة الاجتماعية في عصر السامانيين ؛ ويستدل السندوبي على أنه  
 منحول على الجاحظ بالموازنة بين أسلوب مقدمته وأسلوب مقدمة رسالة  
 مناقب الترك للجاحظ . ولابن المقفع كتاب التاج أيضا (٤) وهو في سيرة  
 انوشروان (٥)

#### و - كتب في الأخلاق والمجتمع :

٦٨ - أخلاق الشطار

٦٩ - أخلاق الفتيان ، وفصائل أهل البطالة (٦)

٧٠ - رسالة إلى محمد بن عبد الملك الزيات في الأخلاق المحمودة

والمذمومة (٧)

(١) ٣ : ١٢٦ بروكلمان ، ٢ : ٣٦٠ أمراء البيان ، ١٤٥ - ١٥٢ أدب الجاحظ

(٢) ٣ : ١٢٧ بروكلمان

(٣) ترجمه ابن المقفع من الفارسية نقلا عن الكتاب البهلوي ، وهو نوع  
 من الكتب المختصرة في نظام الدولة ( ٣ : ٩٧ بروكلمان ، وهو كما يقول المسعودي  
 كتاب كبير ويقع في آلاف الصفحات

(٤) ٣ : ٩٧ بروكلمان

(٥) ١ : ١٨٥ ضحى الإسلام

(٦) ٦ : ٧٦ معجم الأدباء ( مرجليوث )

(٧) مكتبة داود جلبي بالموصل ٢٦٤ : ٣

- ٧١ - كتاب أخلاق الملوك (١)
- ٧٢ - كتاب الاستبداد والمشاورة في الحرب
- ٧٣ - تهذيب الأخلاق ، والظاهر أنه منحول للجاحظ ، وأنه من تأليف أحد المسيحيين وقد يكون هو عدى بن يحيى الذى نشر الكتاب فى القاهرة باسمه ، كما نشر فيها أيضا باسم يحيى الدين بن عربى
- ٧٤ - الحاسد والمحسود ، ومنه نسخة خطية فى مكتبة الأزهر (٢)
- ٧٥ - الحزم والعزم
- ٧٦ - رسالة فى العفو والصفح
- ٧٧ - الفصل ما بين العداوة والحسد
- ٧٨ - الكبر المستحسن والمستقبح
- ٧٩ - النبل والتنبل وذم الكبر وهى فى المتحف البريطانى (٣)
- ٨٠ - كتمان السر وحفظ اللسان
- ٨١ - رسالة فى الكرم
- ٨٢ - كتاب الاخوان
- ٨٣ - رسالة فى القيان ، طبعت بالمطبعة السلفية مع مجموعة ثلاث رسائل عام ١٣٤٤ هـ

---

(١) ١٦ : ١٠٧ معجم الأدباء - ومنه نسخة خطية بأياصوفيا ٢٨٢٨  
(٢) برقم ٧٠٤٦ أدب - وقد طبع الكتاب عام ١٣٢٤ هـ فى مجموعة رسائل الجاحظ  
(٣) ثانى ١١٢٩ : ١٨

- ٨٤- رسالة في المودة والخلطة موجهة إلى أبي الفرج السكاك ، ومنها نسخة خطية بالمتحف البريطاني (ثاني ١١٢٩ : ١١) ونشرت في آخر مجموعة رسائل الجاحظ التي جمعها السندوبى
- ٨٥- رسالة في وصف العوام ، ذكرها الشهاب الخفاجى (١) ويتفق مطلعها مع مطلع رسالة الجاحظ في نفى التشبيه

ز - كتب في الاقتصاد :

- ٨٦- رسالة إلى أبي النجم (٢) في الخراج ، وقد تكون هي نفس رسالة الجاحظ إلى أبي النجم وجوابه ، وقد ذكرهما الباحثون على أنهما متغايران
- ٨٧- أقسام فصول الصناعات ومراتب التجارات
- ٨٨- كتاب الأخطار والمراتب والصناعات
- ٨٩- تحصيل الأموال
- ٩٠- التبصر بالتجارة (٣)
- ٩١- غش الصناعات (٤)
- ٩٢- مدح التجارة وذم عمل السلطان - مطبوع في مجموعة « رسائل الجاحظ » المنشورة عام ١٣٢٤ هـ
- ٩٣- المعاد والمعاش في الأدب وتدبير الناس ومعاملتهم (٥)
- ٩٤- المعادن والقول في جواهر الأرض

- 
- (١) ص ١٧٥ طراز المجالس ط ١٢٨٤ بولاق
- (٢) هو هلال الانبارى الكاتب الأديب توفى نحو عام ٢٧٠ هـ
- (٣) نشر في مجلة الجمع العلمى العربى بدمشق (١٢ : ٣٢١ - ٣٥٥)
- (٤) ١٦٢ الفرق بين الفرق للبغدادى
- (٥) راجع مخطوطة المتحف البريطانى ثانى ١١٢٩ : ١٢

- ٩٥ - النواميس في حيل أهل الغش والتدليس (١)  
٩٦ - كتاب الوكلاء والموكلين (٢) وهو مطبوع عام ١٢٢٤ في مجموعة  
رسائل الجاحظ ،

ح - كتب في الأدب :

- ٩٧ - كتاب إلى إبراهيم بن المدبر (٣) في المسكاتة  
٩٨ - استطالة الفهم وجمع فيه الجاحظ نبذا من كلام الحكماء والشعراء  
كما يقول الشهاب الخفاجي في « طراز المجالس » ،  
٩٩ - كتاب الاسم والحكم (٤)  
١٠٠ - استنجاز الوعد (٥)  
١٠١ - امتحان عقول الأولياء بعث بها إلى أبي الفرج نجاح بن  
سليمة (٥٢٤٥)  
١٠٢ - الأمثال  
١٠٣ - الأمل والمأمول  
١٠٤ - الأنس والسلوى

- 
- (١) ١٥٢ الفرق للبغدادى  
(٢) منه نسخة خطية في المتحف البريطاني ( ثاني ١١٢٩ : ١٢ )  
(٣) كاتب بليغ كان صديقا للجاحظ وتوفي عام ٢٧٩ هـ وهو صاحب الرسالة  
الغذراء ، وللجاحظ فيه شعر ( ٣١٣ و ٣١٤ رسائل الجاحظ )  
(٤) ١ : ١٤٩ الحيوان  
(٥) المتحف البريطاني ثاني ١١٢٩ : ٢١

١٠٥ - البخلاء ، من أروع كتب الجاحظ ويحق للعربية أن تفاخر به (١) ، نشره فان فلوتن ١٩٠٠ م ، ونشر رشر قسما منه ، ونشر مارسيه تصحيحات له ، وطبع في مصر عام ١٢٢٣ هـ وعام ١٩٢٨ بتحقيق للعوامري والجارم ، وعام ١٩٤٧ بتعليقات للحاجري ، ولمحمد المبارك بحث عن فن القصص في البخلاء .

١٠٦ - البلاغة والإعجاز (٢) .

١٠٧ - البيان والتبيين ، من أهم كتب الجاحظ ، ألفه في أخريات حياته وأهداه إلى ابن أبي دؤاد فكافأه عليه بخمسة آلاف دينار ، ويقول فيه المسعودي: إنه من أشرف كتب الجاحظ لأنه جمع فيه بين المنشور والمنظوم وغرر الأشعار ومستحسن الأخبار وبلغ الخطب ما لو اقتصر عليه مقصر لاكتفى به (٣) ، وقال فيه ابن خلدون : سمعت من شيو خنا في مجالس التعليم أن أصول فن الأدب وأركانه أربعة : أدب الكاتب لابن قتيبة ، والسكامل للبهرد ، والبيان للجاحظ ، والنوادر للقالى ، وما سوى هذه الأربعة فتبع لها وفروع عنها (٤) - وطبعت منتخبات منه عام ١٣٠١ هـ في القسطنطينية ضمن مجموعة بعنوان « خمس رسائل ، وكتب على المنتخبات إنها تأليف الجاحظ ، ويبدو أن الذى من تأليفه « البيان ، لا المنتخبات المختارة منه ، التى لا يعلم اسم من اختارها ، وقد يكون أحد الذين أشرفوا على طبع هذه الرسائل أو غيره ؛ ونشرت منتخبات أخرى من السكاتب عام ١٩١٠ في القاهرة ، وفي بيت المقدس عام ١٩٣٣ في ٢٤٨ صفحة وهى منتخبات من اختيار شريف

(١) ٦٨ من حديث الشعر والنثر - طه حسين

(٢) المتحف البريطاني ثانى ١١٢٩ : ١٦

(٣) ١٩٦ : ٤ مروج الذهب

(٤) ٥٥٣ ، ٥٥٤ مقدمة لابن خلدون

النشاشيبي و خليل بيدس . وطبع الكتاب في القاهرة عام ١٣١٣ هـ في جزئين ، ونشره محب الدين الخطيب عام ١٢٣٢ هـ - ١٤ في ثلاثة أجزاء ، ونشر عام ١٩٢٧ في ثلاثة أجزاء أيضا بتعليقات للسندوبي ، وأعاد طبعه عام ١٩٣٣ ، ونشرته مكتبة الخانجي في القاهرة عام ١٩٦١ في أربعة أجزاء بتحقيقات لعبد السلام هارون ، وللمستشرق الروسي كراتشكوفسكى (١٩٥٠ م) بحث عن القسم الخاص بالبلاغة من الكتاب ، وقد نقد بعض الباحثين منهج الجاحظ في الكتاب (١) ومنه نسخ خطية في مختلف مكتبات العالم ، وقد ألفه الجاحظ بعد « الحيوان » وفيه يشير إلى كتاب « الحيوان » ، ويقول : كانت العادة في كتب الحيوان أن أجعل في كل مصحف من مصاحفها عشر ورقات من مقطعات الأعراب ونوادر الأشعار ؛ فأجبت أن يكون حظ هذا الكتاب في ذلك أوفر ، ولم يؤلف الكتاب إلا بعد عام ٢٣٣ وهو العام الذي قتل فيه ابن الزيات منافس ابن أبي دؤاد .

١٠٨ - الترييع والتدوير من أطرف رسائل الجاحظ كتبها في أحد الوراقين من غلاة الشيعة وكان يعيش في مكة ؛ ووجه إليه فيها أبو عثمان مائة سؤال في شتى أنواع المعرفة ، ومنها نسخة خطية في المتحف البريطاني (ثاني ١١٢٩ : ٣) وقد نشرت في استامبول عام ١٣٢٤ هـ ، وفي ليدن مع بعض الرسائل عام ١٩٠٣ ؛ وفي مصر مع مجموعة من رسائل الجاحظ عام ١٣٢٤ هـ ، ونشرها السندوبي في كتابه « رسائل الجاحظ » عام ١٩٣٣ .

١٠٩ - التثيل .

١١٠ - ذم أخلاق الكتاب ؛ طبع ضمن ثلاث رسائل للجاحظ عام ١٣٤٤ هـ في المطبعة السلفية بالقاهرة ، وفي هامش السكامل للبرد .

١١١ - رسائل الجاحظ ، منها مختارات في برلين (١) ؛ وفي المتحف البريطاني (٢) ؛ وطبعت الرسائل في القاهرة ١٣٢٤ هـ على هامش الكامل للبرد ، وعام ١٩٣٣ باختيارات حسن السندوبى ، وتشتمل هذه المجموعة الأخيرة على مختارات من اثنتى عشرة رسالة ، وقد أخرج الجاحظى وكراوس مجموعة رسائل للجاحظ .

١١٢ - سحر البيان (٣) .

١١٣ - عناصر الآداب .

١١٤ - الفرق فى اللغة (٤) .

١١٥ - فضل اتخاذ الكتب ، ولعلها رسالة أبى عثمان فى مدح الكتاب والرسالة التى عنوانها « مدح الكتب والحث على جمعها » .

١١٦ - رسالة فى القلم .

١١٧ - مائة مثل من أمثال على بن أبى طالب رواها عنه فى آخر حياته تلميذه أحمد بن طاهر ، وذكرها ابن قتيبة فى عيون الأخبار ، وطبعت فى « التحفة البهية » بامستامبول عام ١٣٤١ هـ ، ومنها نسخ خطية بمكتبة برلين ٨٨٥٦ و ٨٨٥٧ ، وربما كانت هى مائة حكمة ومثل بالعربية والفارسية للوطواط ( ٥٧٨ هـ ) « مجلة لغة العرب ١٩٣١ » .

ط - كتب فى المعارف العامة :

١١٨ - الأخبار ، ومنه قطعة فى « المنية والأمل للبرتنى ، ويذكر

---

(١) نسخة خطية برقم ٤٦٦

(٢) ثانى ١١٢٩ ، وهى مختارات من ٢٧ رسالة

(٣) منه نسخة خطية فى كوبرلى ١٢٨٤

(٤) منه نسخة خطية بمكتبة القرويين بفاس ١٢٦١ (١٤ معارف ٥٢)

ياقوت (١) كتابا للجاحظ بعنوان : « الأخبار وكيف تصح » ، وكتابا بعنوان :  
« تصحيح الأخبار » ، وقد تكون هذه الكتب كلهما كتابا واحدا .

١١٩ - الأوقاف والرياضيات .

١٢٠ - الجوارى (٢) ، وقد يكون هو كتاب « مفاخرة الجوارى » ، أو  
كتاب « مفاخرة الغلمان والجوارى » .

١٢١ - حانوت عطار .

١٢٢ - الحلبة .

١٢٣ - صناعة القواد ، ويسمى كتاب القواد ، « أو القواد وأسباب  
الصناعات » .

١٢٤ - العرافة والزجر والفراسة على مذهب الفرس (٣) .

١٢٥ - العرس والعروس (٤) .

١٢٦ - العرجان والبرصان .

١٢٧ - العشق والنساء (٥) ، وقد طبعت في رسائل الجاحظ ، والكتاب  
أصل لرجوع الشيخ إلى صباه .

١٢٨ - فضل العلم .

١٢٩ - كتاب المعلمين .

---

(١) ١٦ : ١٠٧ معجم الأدباء - وفي الانتصار (ص ٢٢ و ١٥٥) ذكر الكتاب  
محمى الأخبار وربما كان هو أحد الكتب السابقة

(٢) ١٦ : ١٠٧ معجم ، ٣٤ السكنايات للجرجاني

(٣) ليدن أول ١٢١٠

(٤) ١١٥ : ٥ كشف الظنون

(٥) منه نسخة خطية بالمتحف البريطاني ثاني ١١٢٩ : ٦

١٣٠ - فنون شتى مستحسنة ، منه نسخ في الظاهرية بدمشق (١٢٥ و ٨٥)

١٣١ - رسالة في الكيمياء

١٣٢ - الغناء والمغنون والصنعة ، ويسمى طبقات المغنين ، ألفه الجاحظ  
٢١٥ هـ كما ذكر فيه <sup>(١)</sup> .

١٣٣ - النرد والشطرنج

١٣٤ - النعل

١٣٥ - تنبيه الملوك والمكاييد <sup>(٢)</sup> ويشك في نسبته للجاحظ

١٣٦ - الحنين إلى الأوطان <sup>(٣)</sup> ، والظاهر أنه منحول للجاحظ <sup>(٤)</sup> ،  
ويقول بروكلمان : إن عده منحولا أمر يعسر القطع به <sup>(٥)</sup> ، ولموسى بن عيسى  
الكسروى - وكان يعاصر الجاحظ وهو أحد المترجمين من الفارسية إلى العربية  
- كتاب بهذا العنوان <sup>(٦)</sup> .

١٣٧ - كتاب الطفيلين <sup>(٧)</sup> .

ى - كتب في النبات :

١٣٨ - كتاب التفاح

(١) مجلد ٢ ح ٨ مجلة المنتقد

(٢) منه نسخة خطبة بكوبرلى ١٠٦٥ ولها مصورة شمسية بالقاهرة ثانى ٦٩

برقم ٢٣٥٤

(٣) طبع بالمنار بالقاهرة عام ١٣٣٣ هـ بإشراف الشيخ طاهر الجزائرى

(٤) ١٥٣ أدب الجاحظ (٥) ١٢٨ : ٣ بروكلمان

(٦) ١٠٢ : ٣ بروكلمان - تاريخ الأدب العربى

(٧) ١٩٦ : ٤ مروج الذهب

١٣٩ - الزرع والنخل والزيتون والأعشاب ، أهداه أبو عثمان إلى  
أبراهيم بن العباس الصولي رئيس ديوان الرسائل للمأمون ، فكافأه عليه  
بخمسة آلاف دينار

### ك - كتب في الحيوان :

١٤٠ - الأسد والذئب

١٤١ - الحيوان ؛ من أهم كتب الجاحظ وأشهرها ، ويعد أثرا من آثار  
السن والتجربة ، ويثني عبد القاهر الجرجاني على بلاغة مقدمته ومقدمات  
كتب الجاحظ (١) ، وقد أهداه إلى ابن الزيات فأجازه عليه بخمسة آلاف  
دينار ، ويذكر البغدادي أنه مسروق من حيوان أرسطو وما ذكره  
المدائني (١٣٥ - ٢٣٤ هـ) ، وقد اختصره عبد اللطيف البغدادي (٦٢٩ هـ)  
وسماه «اختصار الحيوان» ، ولخصه ابن سناء الملك المصري الشاعر  
(٥٨٠ هـ) ؛ ومنه مخطوطات في شتى مكاتب العالم ، ومنه مختارات في  
الاسكوريال (٢) ، ونشر في القاهرة عام ١٣٢٥ هـ - ١٩٠٧ في ٧ أجزاء ،  
ونشره عبد السلام هارون في سبعة أجزاء عام ١٣٥٧ ، ونشر تهذيبا له في  
جزئين ونشر فان فلوتن مختارات منه ، وكتب آسين بالاسيوس تحليلا  
للحيوان في مجلة إيزيس (١٤ : ٢٠ - ٥٤) . وكتب مصطفى الشهابي تعريفا  
بمصطلحات الحيوان (٣) ، وكتب فيدمان بحثا عن الكيمياء القديمة عند  
الجاحظ (٤)

(١) ٦ - ٧ أسرار البلاغة

(٢) ثاني ٨٩٧ و ٩٠١ - ومن اختصروه أبو هاشم هبة الله (٨٠٦ هـ)

(٣) مجلة الجمع العلمي العربي ١٩٣١ ص ٥٠١ ومجلة المشرق ٢٩ : ٦٢٨

(٤) راجع عن الحيوان ١ : ١٦٤ ضحى الاسلام ، ٣ : ١١١ بركلان ، ١٩٦

النقد المنهجي عند الجاحظ

١٤٢ - البغال ومنافعها<sup>(١)</sup>

١٤٣ - الإبل ، ويقول ياقوت إنه ليس من كلام الجاحظ ولا يقاربه<sup>(٢)</sup>

ل - كتب في الجغرافيا :

١٤٤ - افتتاح الشتاء والصيف

١٤٥ - الأمصار وعجائب البلدان ، وربما كان هو كتاب الأوطان والبلدان ، الذي تحدث فيه عن مكة والمدينة<sup>(٣)</sup> ، ويقال له كتاب البلدان أيضا

١٤٦ - سلوة الخريف بمناظرة الربيع والخريف : نشر في استامبول عام ١٣٠٢ هـ بمطبعة الجوائب عن نسخة خطية كتبت عام ١٤٤١ هـ ، وفي بيروت ١٣٢٠ هـ . ويشك كثيرون في نسبته<sup>(٤)</sup> للجاحظ ، ويبدو أنه لكاتب فارسي عاش في أواخر القرن الرابع الهجري

م - كتب قصصية :

١٤٧ - حكاية عثمان الخياط في اللصوص ووصاياه ، أو كتاب اللصوص ؛ ومنه نسخة خطية بالموصل ٢٦٤٠ ، ويسمى « حيل اللصوص » ،<sup>(٥)</sup>

١٤٨ - حيل الماكدين ، ولعله كتاب النواميس في حيل أهل الغش والتدليس<sup>(٦)</sup>

---

(١) منه نسخة خطية بمكتبة الموصل ١٤ و ٢٦٥

(٢) ١٦ : ١٠٦ معجم الأدباء

(٣) منه نسخة في المتحف البريطاني ثاني ١١٢٩ : ١٥

(٤) ١٥٣ أدب الجاحظ

(٥) البخلاء ج ١ ص ١ سطر ٣

(٦) ١٥٢ الفرق بين الفرق للبغدادى

١٤٩ - المضاحك ، أو مضاحيك البغدادى (١) .

١٥٠ - الملع والطرف .

١٥١ - فوادر الحسن .

### ن - كتب فى الإنسان والأجناس :

١٥٢ - الصرحاء والهجناء .

١٥٣ - أمهات الأولاد .

١٥٤ - العرب والعجم .

١٥٥ - العرب والموالى ، أو فضل الموالى على العرب (٢) .

١٥٦ - نحر السودان على البيضاء ، وطبع بلندن عام ١٩٠٣ مع بعض الرسائل ، ثم طبع مع مجموعة رسائل الجاحظ عام ١٣٢٤ هـ .

١٥٧ - نحر القحطانية والعدنانية .

١٥٨ - مفاخرة السودان والحمران .

١٥٩ - مناقب الترك وعامة جند الخلافة أهداه إلى الفتح بن خاقان

(١٢٤٧ هـ) ، وهو مطبوع بلندن عام ١٩٠٣ مع عدة رسائل ؛ ونشره إبراهيم المولى (١٨٤٦ - ١٩٠٦) فى جريدته «مصباح الشرق» عن نسخة خطية وطبع فى القاهرة عام ١٨٩٨ بعنوان «فضائل الأتراك» ، ونشر عام ١٣٢٤ مع رسائل للجاحظ ، وترجم للتركية والإنجليزية .

---

(١) ١٥٨ المرجع

(٢) هكندا ذكره ابن عبد ربّه (٢ : ٧٤ سطر ٢٥ ط ثانية)

س - كتب في الجدل :

- ١٦٠ - خصومة ما بين الحول والغور
- ١٦١ - ذم العلوم ومدحها ، ومنه نسخة خطية في مكتبة الفالح باستامبول ٣٨٩٨
- ١٦٢ - تفصيل النطق على الصمت ، منه نسخة خطية في المتحف البريطاني (ثاني ١١٢٩ : ٢٢) ، وطبع بمصر عام ١٢٢٤ هـ مع رسائل أخرى
- ١٦٣ - تفضيل البطن على الظهر في المتحف البريطاني ١١٢٩ : ١٧ ثاني
- ١٦٤ - الجدة والهزل ، أهداها إلى ابن الزيات ، وتسمى « المزاح والجد » ،
- ١٦٥ - الحجاب وذمه (١) وطبع في رسائل الجاحظ جمع السندوبي
- ١٦٦ - فرق ما بين الجن والإنس
- ١٦٧ - فرق ما بين الملائكة والجن
- ١٦٨ - فرق ما بين النبي والمتنبي ، أو كتاب النبي والمتنبي
- ١٦٩ - حجج النبوة (٢) ، وهو مطبوع في رسائل الجاحظ ، ويشير فيه الجاحظ إلى التحدي وخلق القرآن وامتحان ابن حنبل عام ٢١٩ هـ في مجلس المعتصم
- ١٧٠ - الحجة في تثبيت النبوة
- ١٧١ - النبوات

- 
- (١) ١٧٢ - ١٧٥ طراز المجالس للشهاب الخفاجي
- (٢) منه نسخة خطية في المتحف البريطاني ثاني ١٢٩ رقم ٨ ، وينقل عبد القاهر نصا عن كتاب « النبوة » (٢٩٨ دلائل الإعجاز)

- ١٧٢ - فضل ما بين الرجال والنساء  
١٧٣ - فضل الفرس على الحملج (١)  
١٧٤ - مدح الوراقة  
١٧٥ - ذم الوراقة  
١٧٦ - مناظرة ما بين الخزولة والعمومة  
١٧٧ - مفاخرة المسك والرماد أشار إليها الصفدى ( ٥٧٦٤ هـ ) في شرحه على لامية العجم للطغرائى  
١٧٨ - نقض الطب ، ألف الرازى ( ٥٣٢٠ هـ ) كتابا في نقده (٢) ، وكذلك ابن مندويه الأصفهاني الطائيب أحمد بن عبد الرحمن (٣)  
١٧٩ - المحاسن والأضداد - طبع في القاهرة طبعات عدة منسوبا للجاحظ ، ومن نسبته له محيى الدين بن عربى في كتابه « محاضرات الأبرار ومسامرات الأخيار » ، ونفى نسبته عنه بعض الباحثين (٤) بدليل أن فيه شعرا لابن المعتز ( ٢٤٩ - ٢٩٦ هـ ) ، وإشارات إلى أحداث تاريخية وقعت عام ٢٩٤ هـ ، ويقول محمد كرد على (٥) : إن الكتاب كله أو جله من قلم الجاحظ أو جمعه بعضهم من كلامه وكلام غيره ، وهذا رأى بروكلمان أيضا فهو يقول : إنه مجموعة ضمت إلى كتاب صحيح النسبة للجاحظ قصصا وأخبارا من كتاب يحمل نفس التسمية من تصنيف البيهقى (٦) ؛ كما أضاف

---

(١) هو البرزون السهل القياد

(٢) ٣٠٠ الفهرست (٣) ٢ : ٢٢ طبقات الأطباء لابن أبى أصديعة

(٤) ١٥٥ أدب الجاحظ

(٥) ٢ : ٣٢٢ أمراء البيان

(٦) من أصحاب ابن المعتز واعتمد في كتابه على الجاحظ ( ٣ : ١٣٥ بروكلمان )

الحاسة ، والأضداد ، للبيهقى أبو الفضل إبراهيم في القاهرة في جزئين

(٢) هـ - ١١١١ -

إلى القسم الثاني عن النساء والحب والزواج نوادر ساسانية وعربية قديمة  
ومعاصرة (١). ونلاحظ على الكتاب مايلي :

١ - يحتوى على قصص هندية على لسان الحيوان وغيره (٢)، وقصص  
فارسية (٣)، وقصص عربية كثيرة نادرة، ومنها قصيدة قصصية شعرية  
رائعة لشهاب بن حرقة السعدى (٤) الأماوى

٢ - وهو حافل بروائع الأدب والقصص والفكاهات والنوادر  
والطرائف وبكثير من بلاغات العرب

٣ - وفيه أعلام متأخرة عن عصر الجاحظ كابن المعتز (٥)، وأحمد بن  
عبد العزيز بن أبي دلف (٦) الذى توفى نحو عام ٢٩٨ هـ (٧)، وأبى على الأسكرى  
المصرى من جلاس الأمير تميم بن تميم بن المعز الفاطمى، وتميم بن المعز  
توفى عام ٢٧٤ هـ

٤ - وفى الكتاب روح شيعية : ظاهرة نلسمها فى تمجيد الحسن بن  
على وبلاغته (٨)، وهى ليست معروفة عن الجاحظ

٥ - وفى الكتاب أعلام معاصرون للجاحظ وورد فيه تاريخ ٢٤٠ هـ (٩)

وكل ذلك يدل على أن اصل الكتاب للجاحظ، وأضيف إليه بعض  
النصوص المتأخرة عن عصره، ويؤكد نسبة الكتاب للجاحظ أن مدح  
الشيء وذم ضده مما ألف فيه الجاحظ كثير كما رأينا

---

(١) ٣ : ١٢٧ بروكلمان (٢) ١٢٢ - ١٢٥ المحاسن

(٣) ١٢٦ - ١٢٨ ، ١٣٦ - ١٣٨ المحاسن (٤) ٥٥ المرجع

(٥) ٣٠ و ٣٣ و ٨٨ و ١٠٧ المرجع (٦) ٢٩ المرجع

(٧) له أخ اسمه بكر توفى نحو عام ٢٨٥ هـ (٤ : ٢٧٣ مروج الذهب) ، وجدهما

ابو دلف توفى عام ٢٢٦ هـ (٤ : ٦٢ المرجع)

(٨) ٧٩ - ٨٤ المحاسن (٩) ١٤٩ المرجع

## غ - كتب في التاريخ :

١٨٠ - أديان العرب ومنه نسخة خطية بمكتبة أحمد تيمور بدار  
المكتبة المصرية (١)

١٨١ - الأصنام (٢) ذكر الجاحظ فيه أصنام العرب في الجاهلية ، وضح  
فيه نسب النضر بن كنانة جد الرسول (٣)

١٨٢ - أطعمة العرب (٤)

١٨٣ - فضائل سلاله النبي

١٨٤ - القضاة والولاة

١٨٥ - الملوك والامم السالفة والباقية

١٨٦ - جمهرة الملوك

١٨٧ - رسالة في موت أبي حرب الصفار البصرى

---

(١) معالم ١٣٠ (٢) ١٦ : ١٠٧ معجم الأدباء ، ١ : ٣ الحيوان

(٣) ٧٨ و ٧٩ أدب الجاحظ

(٤) ٢ : ٤٩ الأمثال للميداني

## الفصل الخامس

### كتب خالدة للجاحظ

١ - البخل

- ١ -

كانت البصرة في عهد الجاحظ مدينة تجارية بحرية كبيرة، ومن شأن حياة المدن المشتغلة بالتجارة والمال أن تفسد فيها بعض القيمة الخلقية والروحية وكانت مجتمعا لكثير من أصحاب الآراء والمذاهب والنحل ، ومن بينهم الشعوبيون الذين حارلوا أن يعضوا من مثل العربي وقيمته ولا سيما الكرم .

ونتيجة لهذا وذاك أصبح البخل - في مجتمع البصرة وبعض المجتمعات الأخرى كخراسان - مذهباً يعتقد وفلسفة يدافع عنها بعض الناس . وكان لابد للجاحظ - وهو عربي الروح والدم واللسان - أن يسخر من هذا المذهب ودعائه ، وأن يعرض له ولهم في تهكم ونقد مريرين ، فكان كتاب البخل ، الذي يعد تحفة من آثار الجاحظ العقلية والأدبية ، وقد صبغت عقلية أبي عثمان الاعتزالية والفلسفية الكتاب بصبغتها ، فهو كله قطع فنية رائعة من أدب الجدل والحجاج والحوار والمناقشة والنقد . يعرض الفكرة في الدفاع عن البخل ، ثم يناقشها عقلياً ، ويؤيدها منطقياً ، ويلتمس لتأييدها كل الشواهد والمثل من حياة الناس بمختلف طبقاتهم وبيئاتهم ومستوياتهم مما أضنى على الكتاب أهمية كبيرة ، ويزيد من أهميته أنه أوضح صورة شعبية لحياة المجتمع العربي في القرنين الثاني والثالث بعد الهجرة ، والدارس للعقلية العربية في هذه الفترة يحتاج إلى مطالعة البخل الذي يمثلها خير تمثيل وأصدق .

وقد سبق الجاحظ الناس ، فوضع في البخلاء أصول ، علم البخل ، وفلسفته ، واحتج له بما لا مزيد معه ، وبخلاء الكتاب يصمون الكرم بكثير من المثالب ، ويتجنون عليه في ملح نادرة ، وفصول بارعة ، وإنه لنطالعك صور حية نابضة من حياة البخلاء التي كانوا يحيمونها ، وكيف كانوا يضطربون في تلك الحياة ويتغلغلون ويتفاهمون (١) ، إنه كتاب طريف حقا بما جمع فيه الجاحظ من أخبار البخلاء وفلسفات المقتصدين ، ولكن هل يدل الكتاب على أن الجاحظ كان بخيلا ؟ لا ، بل إنه ليدل دلالة قاطعة على سخريته من البخل ومذاهب البخلاء وآرائهم الجدلية العجيبة ، ويخالف في ذلك بعض الباحثين ، فيذهبون إلى أن الجاحظ في سخريته بالبخلاء كان يلقنهم الحجج على حسن الانصاف بإدغار المسال ، وأنه الحزم عينه ، والتدبير الذي به قوام الحياة ؛ ثم هو يفسب الحديث إلى هذا وذاك ، فلا تستطيع أن تأخذ عليه كلمة ، أو تتعرف ذات نفسه ، ولا بد أنه كان بخيلا ، لأن الولوج بالشئ يجب إلى النفس التحدث عنه والإفاضة فيه (٢) وهذا غير صحيح في رأيي ؛ فكل ما في الكتاب لا يدل إلا على السخرية والتهكم وتصوير طبقة من طبقات المجتمع في عصر الجاحظ .

وفي صدر البخلاء ما يدل على أن الجاحظ أهداه لعظيم من عطاء الدولة لم يذكر لنا اسمه ، وقد يكون هو ابن الزيات ، أو الفتح بن خاقان ، أو ابن أبي دؤاد . وقد ألفه وهو مريض مفلوج يشكو من الفالج طرفا (٣) ، وأغلب الظن أنه أهداه إلى ابن أبي دؤاد وأنه ألفه بعد الحيوان والبيان ، ويحتمل

---

(١) ٤ و ٥ من مقدمة الجارم والعوامري للبخلاء ط ١٩٣٧ بالقاهرة

(٢) ص ١٥ المرجع نفسه

(٣) ٢ : ٥٠ البخلاء تحقيق الجارم والعوامري

أن يكون آخر كتب الجاحظ ؛ ويشبه الجارم والعوامرى الجاحظ بالأديب الإنجليزى (تكرى)، ويشبهان البخلاء بكتابه «التفاجين» ؛ ويؤيد باحث أن البخلاء ألفه الجاحظ فى أواخر حياته وقريبا من عام ٢٥٥ هـ (١). وأعلام البخلاء بعضها حقيقى كسهل بن هارون (٢) والسكندى (٢٥٣ هـ) وكثير من عامة الشعب الذين ذكرهم الجاحظ بأسمائهم الحقيقية لفرحهم بذلك وبعضها الآخر رمزى ، وهى قصص أناس ذوى نفوذ فى الخلافة ومكانة فى الدولة ولا نستطيع أن ندل على هذه الأسماء لأن معاصرى الجاحظ وتلاميذه لم يتركوا لنا شيئا يدل على هذا الجانب .

ويبدأ الجاحظ كتابه برسالة سهل بن هارون فى البخل وهى موجهة منه إلى بنى عمه ، حين ذموا مذهبه وتبعوا كلامه ، وهى رسالة طريفة أهداها إلى الحسن بن سهل وزير المأمون ، فلم يكافئه عليها بشيء ، ثم ينتقل أبو عثمان إلى قصص أهل خراسان فى البخل ، ثم قصص بخلاء البصرة من المسجديين وغيرهم ممن كان الجاحظ يحاس إلىهم فى المسجد مما يلي أبواب بنى سليم وهو حدث السن (٢) ؛ وبما شمله الكتاب رسالة أبى العاص (٤) بن عبد الوهاب ابن عبد المجيد الثقفى إلى ابن عمه ورد ابن عمه عليه ؛ وغير ذلك من أحاديث البخلاء وطرف معانيهم وكلامهم .

والكتاب موسوعة عامة ، ويتناول ألوانا من طرائف القصة ، ويتحدث عن أعلام كثيرة مشهورة فى عصر الجاحظ كالسكندى والنظام وثمانمة

(١) ٤٦ فن القصص فى كتاب البخلاء لمحمد المبارك ط دمشق ١٩٤٠

(٢) يجعل شارل بيلا وفاته عام ٢٤٤ هـ (٤٠٠ الجاحظ)

(٣) ٣ : ٣٦٠ الحيوان

(٤) كان أبوه عبد الوهاب الثقفى محدثا وتوفى بالبصرة عام ١٩٤ هـ (٣١٤:١)

العبر للذهبي) ، وأخوه عبد المجيد كان صديقا لابن مناذر (١٩٨ هـ) الشاعر (١٢ : ١٧ الأغاني)

وأبى الهذيل وسهل بن هارون وابن المقفع ، وسواهم ؛ ويتحدث كذلك عن شعراء عصر الجاحظ وأدبائه ؛ ومن شخصيات الكتاب عبد الله بن هارون العروضي<sup>(١)</sup> وهو شاعر مقل كان يقول أوزانا غريبة وأخذ العروض عن الخليل ، وكان بينه وبين النظام عداوة<sup>(٢)</sup> ومنهم أعلام النهضة الأدبية في عصر الجاحظ .

وإذا كان مصطفى عبد الرازق قد تحدث عن الكندى ، وذكر ما كتبه الجاحظ عن بخله ، وذهب إلى أن الجاحظ ألف بخله قبل وفاته بأشهر معدودات .

فإن بعض الباحثين<sup>(٣)</sup> ؛ يرى أن هذا الكتاب ألف في آخر عهد ابن الزيات وأوائل إصابة الجاحظ بالفالج ؛ في الوقت الذي كتب فيه رسالته « بين الجد والهزل » ؛ أى بين عامى ٢٢٩ و ٢٣٢ هـ ، وقبل وفاة الجاحظ بأمد طويل .

ويرى الحاجرى<sup>(٤)</sup> في تحقيقه للبخل أن الكندى الذى تحدث عنه الجاحظ فى الكتاب شخص منسوب إلى قبيلة كندة غير الكندى الفيلسوف ، ولكن الحجج الفلسفية التى ذكرها الجاحظ منسوبة للكندى تؤكد أنه يقصد الكندى الفيلسوف نفسه<sup>(٥)</sup> .

ولست الرسالة التى نسبها الجاحظ لسهل بن هارون بقلم سهل نفسه كما

---

(١) ٢٤٨ : ٣ الحيوان

(٢) راجع البخل - تحقيق الحاجرى - الطبعة الثانية ١٩٦٤ ، أو الطبعة الأولى التى صدرت عام ١٩٤٨

(٣) راجع دراسة هشديق شبيب عن البخل تحقيق الحاجرى فى مجلة قافلة الزيت عدد رجب ١٣٨٤ هـ

ظن ذلك بعض العلماء في القديم كياقوت وابن النديم . بل أن الجاحظ كتبها ونسبها إلى سهل بن هارون الذي كان ذا نزعة شعوبية ، والذي قاوم هو والكتاب الفرس الجاحظ حين تولى رياسة ديوان الرسائل في عصر المأمون . . على أنه لو نسبنا هذه الرسالة إلى سهل لضاع جزء كبير من البخلاء من نسبته للجاحظ ، ولما كان الجزء الباقي كافيا لبيان فضل الجاحظ في تأليف الكتاب ، على أن القصة الفنية عند الجاحظ في البخلاء يرجع أسلوبها إلى الجاحظ نفسه لأن خصائصها الأدبية شبيهة بخصائص الجاحظ القصصية في البيان والحيوان ، والجاحظ يجيد في القصة الواقعية إجادة بارعة حتى ليخرجها صورة حية نابضة بالحياة ، وإن نسبها إلى أناس معروفين ذكر أسماءهم تهكم بهم أو إلى أناس أخفى ذكر أسمائهم لغرض في نفسه .

وليس الجاحظ بأول من دون أخبار البخلاء ، وروى نوادرهم . ويذهب بعض الباحثين : إلى أن غرض الجاحظ من تأليفه لكتاب البخلاء هو الرد على الشعوبية الذين كانوا يرددون الشك فيما نسب إلى العرب من أريحية وكرم ويردون أمثلة كثيرة لبخل العرب ، فروى الجاحظ الكثير مما يؤثر من بخل الخراسانيين وغيرهم . كما كان الجاحظ يقصد غرضاً سياسياً هو التنذر بالأمويين فيما روى عنهم من بخل ونهم وشراسة في الطعام والأكل (١) .

ولكن طه الحاجري في تحقيقه للبخلاء يذكر أن عمل الجاحظ في البخلاء كان عملاً أدبياً خالصاً يكشف عن دخائل النفس البشرية ويصف دقائق الحياة الواقعية . وليس في الكتاب دلالة على أن الجاحظ كان بخيلاً ، بل قد يكون في تندر الجاحظ بالبخلاء دلالة على كرمه ، وإجادة الجاحظ

---

(١) راجع البخلاء بتحقيق الحاجري ، وراجع مقالاً لصديق شديوب في دراسته : في قافلة الزيت عدد رجب ١٣٨٤ هـ .

لرسم شخصيات البخلاء وإنطاقها بما هو أشبه بها مرده إلى موهبته الأدبية العالية ، وإلى مقدرته على التصوير وامتيطان النفس الإنسانية ، وقد تكون طبيعة الجاحظ الساخرة ونفسه المرحّة ونزعتّه إلى الضحك والانطلاق هي التي أملت عليه الكتابة عن البخلاء . وكما تنذر الجاحظ بالبخلاء من الفرس تنذر بأشباههم من العرب ؛ وهو يصور الحياة في البصرة وخاصة حياة تجارها الأثرياء الحريصين على المال .

وفي الكتاب تبدو روح الجاحظ الخلاقة الناقدة (١) ويروى عن أعلام الفكر في عصره من مثل النظام وثمامة وأبي الهذيل وغيرهم . . وقد ساق أبو عثمان طرائف الكتاب دون شرح إلا قليلا ، متكلا على معرفة القارىء (٢) ويضرب بغض المعتزلة للشيعة مثلا (٣) ويشير إلى نفور الناس من الطبيب العربي المسلم في عصر الجاحظ لاعتقادهم أن الطبيب لا يكون إلا غير عربي وإلا لمثل أهل جنديسابور (٤) .

وأملوب تأليف الكتاب جرى على مذهب الجاحظ في الاستطراد (٥) وسمو الحجاج ، والإيجاز في موضعه والإطناب في موضعه ، وقد تحدث عن البخل وأنشأ كلاما طويلا فيه ، مما يدل على سعة عقله وأنه بارع الدقة في ملاحظة أعمال الناس ودراسة نفسياتهم وميولهم ، والتقاط أدق حركات البخلاء ، وهو لا يغفل عن تحسين الاقتصاد والدعوة إليه ، وأبطال قصصه أصحاب جدل ومنطق ، يلجأون إلى البراهين المختلفة والحوار السوفسطائي وهم من أدباء البخلاء ممن لا تشمئز النفس منهم ، ولا تمل أحاديثهم .

---

(١) ٢ : ١٩١ و ١٩٢ البخلاء . (٢) ٢ : ٢٢٠ المرجع .

(٣) ١ : ١٦٣ المرجع (٤) ٢ : ٤ و ٥ المرجع .

(٥) يؤثر الجاحظ الاستطراد (راجع مثلاً ١ : ١٣٨ ، ٣ : ١٠٥ البيان)

وقد عرف الجاحظ كيف يبت فيه من ظرفه وذوقه وروحه ؛ وقصص  
البخلاء لم تخضع لمنهج واحد ، ولا لترتيب فنى يكون وحدة تأليفية ، وهى  
تمتاز بالواقعية وبدقة التصوير وقوة الملاحظة ، وبالاعتماد على التحليل  
النفسى وعلى تجسيم الصورة وإشاعة الحياة والحركة فيها .

## ٢ - البيان والتبيين

- ١ -

يصف الجاحظ كتابه « البيان » بأنه قد جمع استقصاء المعانى ، واستيفاء  
جميع الحقوق ، مع اللفظ الجزل والمخرج السهل ، فهو سوقى ملوكى ،  
وعامى خاصى (١) .

وقد ألفه بعد « الحيوان » ، وأهداه إلى ابن أبى دؤاد (٢) فكافأه عليه  
بخمسة آلاف دينار ، ويشير فيه إلى الحيوان (٣) ، فيقول مثلاً : كانت العادة  
فى كتب الحيوان أن أجعل فى كل مصحف من مصاحفها عشر ورقات من  
مقطعات الأعراب ونوادير الأشعار (٤) ، والجزء من الكتاب يسمى مصحفاً  
وكان لظهوره ضجة فى شتى الأوساط والبيئات ، وعند مختلف العلماء  
والأدباء ، وحمل بعد ظهوره إلى الأندلس فيما حمل إليها من نفائس المؤلفات ،  
وعده المسعودى من أشرف كتب الجاحظ ، وقال عنه إنه جمع فيه بين

---

(١) ٣ : ٣٧٥ البيان

(٢) معتزلى بليغ وصاحب نفوذ واسع فى دولة الخلافة ولى القضاء البأمون  
والمعتصم والوائق والمتوكل وتوفى عام ٢٤٠ هـ

(٣) راجع ١ : ١٣٨ ، ٣ : ١٧٣ و ٣٠٢ البيان

(٤) ٣ : ٣٠٢ البيان ط الخانجى

المنثور والمنظوم وغرر الأشعار ومستحسن الأخبار (١) ، ونوه به أبو هلال العسكري (٢) وعده من أشهر كتب البلاغة ثم استطرده إلى أنه لم يبن عن حدود البلاغة وأقسام البيان والفصاحة (٣) وقال ابن رشيق (٣٩٠ - ٥٤٦٣) إنه لا يبلغ جودة وفضلا (٤) ، وجعله ابن خلدون أحد أركان الأدب الأربعة (٥) .

والكتاب - بلاريب - كان مصدرا لثقافة الأدباء والشعراء العرب على طول العصور ، ومن مادته الواسعة نهل الكتاب والبلغاء والمؤلفون قديما وحديثا ، ومن أوائلهم : ابن قتيبة ، والمبرد وابن عبد ربه وأبي هلال في الصناعتين والحصري (٥٤٥٣) في زهر الآداب وابن رشيق في العمدة ، وعبد القاهر الجرجاني في الدلائل والأسرار ، وأسامة بن منقذ (٤٨٨ - ٥٨٤ هـ) في كتاب « لباب الآداب » ، وابن الأثير (٦٣٧ هـ) في المثل السائر وسواهم . . وهو أول سفر ظهر في الأدب جامعا لفنون كثيرة منه (٥) ، ولأنواع عدة من اللغة والأدب والخطابة والشعر ، ويأتي على ذكر الخطباء والبلغاء والمنشئين وآثارهم ، وهو من أجل الوثائق الأدبية في الجاهلية والإسلام (٦) ولا يبلغ جودة وفضلا (٧) ؛ فقد جمع بين دفتيه الكثير من بلاغات العرب ومن أصول النقد والبلاغة .

(١) ٤ : ١٩٦ مروج الذهب

(٢) ٧٥٦ الصناعتين

(٣) ١ : ١٧١ العمدة .

(٤) ٥٥٣ المقدمة لابن خلدون

(٥) ٨٠ العصر العباسي للاسكندر

(٦) ٣٥ الجاحظ لمردم

(٧) ١ : ٢٢٧ العمدة لابن رشيق

وفي الجزء الأول يشرح الجاحظ البيان ، ويبين عيوبه ويضع حدودا عامة للبلاغة ومذاهبها . وفي الجزء الثاني يتحدث عن الخطابة والشعر ، وفي الثالث يرد على الشعوية مطاعنها التي قدحت بها في العرب ، لاسيما نعوه عليهم من أخذ العصا والقوس عند الخطابة وفي مواقف الكلام .

والكتاب في مجمل الأمر ثمرة من ثمرات الرجولة المكتسبة والفكر الذكي ، وقد خدم الجاحظ به قضية البيان خدمة لا تقدر بقيمة .

وفضلا عن أنه أصل من أصول الأدب فإن قيمته في البيان العربي خطيرة ، لما أودع فيه من شتى البحوث والآراء في البلاغة وعناصرها ومذاهبها وألوانها ، سواء كانت هذه الآراء من جمع الجاحظ وروايته أم من ابتكاره وتجديده ، وقد أخذ علماء الأدب والبلاغة بعده منه كل العناصر التي كتبها في هذا السفر الكبير ، كابن قتيبة وابن المعتز وابن المدبر وقدامة ابن جعفر والآمدى صاحب الموازنة والقاضي الجرجاني صاحب الوساطة وأبي هلال العسكري صاحب الصناعتين ، وابن سنان صاحب كتاب سر الفصاحة ، وعبد القاهر صاحب أسرار البلاغة ودلائل الإعجاز ومواهم .

وللكتاب أثره كذلك في النقد الأدبي فهو سجل حافل بالآراء المختلفة في النقد ، تما لا يزال إلى اليوم موضع الاهتمام من جميع الباحثين ، والجاحظ الذي نقد مذهب أصحاب المصنعة من الشعراء وآثر عليها مذاهب المطبوعين كان يضع بذلك أساسا كبيرا لتطور الدراسات النقدية ، وعصرنا الحاضر يؤمن برأى الجاحظ ويسير في تياره الفكري والأدبي كما يسير على ضوئه في البيان العربي وأصول بلاغته ..

وأسلوب الاستطراد ظاهر في الكتاب ، واضح فيه ، ومن ثم نقده أحمد أمين بأن الفوضى غالبية عليه ، والجاحظ عنده (١) مسئول عن الفوضى

التي سادت كتب الأدب العربي ، فقد جرت على منواله ، وخذت  
حذوه ، فالمكامل للمبرد ، وعيون الأخبار لابن قتيبة والعقد لابن عبد ربه  
تأثرت بالجاحظ وروحه تأثرا عميقا .

وهذا خطأ من أساسه ، فالجاحظ إنما ألف المكتتاب ليكون موسوعة  
في الأدب والبيان ، لا ليكون كتابا منهجيا محدودا ، وليس الاستطراد  
فيه إغفالا للموضوع ، ولا نسيانا لأصل البحث ، ولصميم الفكر الأدبي  
في المكتتاب ..

ويرتاب بعض الباحثين المعاصرين في شخصية الجاحظ في المكتتاب ؛  
ورأى أنها تكاد تكون معدومة فيه (١) ، وهذا جور ما بعده من جور ،  
فشخصية الجاحظ سواء في جمعه أم في ابتكاره واضحة كل الوضوح  
في كتاب « البيان » .

والسمة الغالبة عليه هو أنه مظهر لامتزاج الثقافات في عصر الجاحظ ،  
هذا الامتزاج الذي نراه فيه ، ولثقافة العربية الحظ الأكبر ، ومع هذا  
فحظ الثقافات الأخرى في المكتتاب غير قليل من يونانية وفارسية (٢)  
وهندية وغيرها ..

---

(١) مقدمة نقد النشر

(٢) ١ : ١٥٠ ضحى الإسلام

### ٣ - كتاب الحيوان

من أشهر وأروع مؤلفات الجاحظ ، ومن آثار التجربة والسن ، وهو حافل بصروب الآراء وألوان الثقافات والمعارف ، وكان البصريون يفتخرون به وبكتاب البيان كما نفخوا بكتاب العين للخليل وبالكتاب لسبويه ، ووصفه الجاحظ فقال : « هذا كتاب تستوى فيه رغبة الأمم ، وتتشابه فيه العرب والعجم لأنه وإن كان عربيا أعرايا ، وإسلاميا جماعيا ، فقد أخذ من طرف الفلسفة ، وجمع معرفة السماع وعلم التجربة ، وأشرك بين علم الكتاب والسنة ، وبين وجدان الحاسة وإحساس الغريزة ، ويؤكد الجاحظ أن كتابه كتاب علم لا كتاب رأى أو أدب ، وأنه لقي في تأليفه صعابا جمّة ، وصادف منه حالات تمنع من بلوغ الإرادة فيه وأول ذلك العلة الشديدة <sup>(١)</sup> على أنه لم يذكر فيه شيئا من الغرائب إلا ومعه شاهد <sup>(٢)</sup> ، ولم يصل فيه الصدق بالكذب <sup>(٣)</sup> .

وقد ذهب بعض المستشرقين إلى أن الكتاب يوسم بأنه كتاب أدب وهو أقرب إلى ذلك من أن يعد كتابا في طبائع الحيوان ، ورد على هذا الرأي محمد كرد علي <sup>(٤)</sup> ردا مقنعا مفحما لأن ما حققه الجاحظ في صنوف الحيوان قبل غيره من العلماء كاف في عد الجاحظ السابق المبرز في موضوعه وفنه وبأن الشعر الكثير الذي نقله لا يزرى بما كتب ، وهو يمل على الناس روح عصره ، وما كان فيه من أدب فهو أدب واقعي ، وبجواره أمتع الفوائد

---

(١) ٢٠ : ٤ الحيوان

(٢) ٦ : ١٢ و ١٣ الحيوان

(٣) ٥ : ٧ الحيوان

(٤) ٢ : ٢٦ أمراء البيان

الأدبية والمسائل الدينية وأجمل النوادر والحكايات ؛ وأجمع من هذا كله كلامه على أجناس الحيوان . مما كتبه عن تجربة وعيان ، وفيه كلام على الناس والبلاد والأجواء والأمزجة والعادات مما لا يستطيع كتابته إلا واسع الثقافة أو بعض من قد مارس الأسفار وركب البحار وسكن الصحارى واستندى الهضاب ودخل في الغياض ومشى في بطون الأودية (١) .

ولما كان الغرض من تأليف الجاحظ لهذا الكتاب هو بيان ما في الحيوان من الحجج على حكمة الله وقدرته الباهرة ، فقد رجع إلى القرآن ، وفيه الكثير عن الحيوان وبعض سورته سميت بأسماء بعض الحيوانات . ومنها : البقرة - الأنعام - العنكبوت - النحل - النمل - الفيل ؛ كما رجع إلى الحديث وكلام الصحابة ، وينسب للإمام علي وصف جميل للطاوس وإلى الشعر ، ولبشر بن المعتمر المعتزلي ( ٢١٠ هـ ) قصيدتان طويلتان في هذا الجانب (٢) ، والجاحظ سابق في التأليف في الحيوان وكتابته أول كتاب عربي عن الحيوان . وقد ألف اليونانيون في الحيوان ، ومنهم ديمقريطس وأرسطو ، ومع أن أبا عثمان نقل عن أرسطو إلا أنه صحح له آراءه ونقدها وكان كتاب أرسطو تسع عشرة مقالة . وقد نقله ابن البطريق من اليونانية إلى العربية ، وكان مترجما إلى السريانية .

وكان بين المعتزلة نزاع كلامي في المقايسة بين السكب والديك ؛ وكان على رأس الفريق الأول النظام ، وعلى رأس الثاني معبد ، وقد رد عليهم الجاحظ ردا طويلا (٣) .

وقد استعان الجاحظ بالشعر العربي لأن العرب كما يقول أبو عثمان قد

(١) ٦ : ١٢ و ١٣ الحيوان

(٢) ٦ : ٩١ الحيوان

(٣) ١ : ٩٣ - ١٠٤ الحيوان

ثقفوا معرفة الحيوان وبرعوا في ذلك براعة فائقة ، وقل معنى سمع في باب معرفة الحيوان من الفلاسفة والمتكلمين إلا وهو ، أو قريب ، منه في أشعار العرب (١) .

ولآراء الجاحظ ودراساته الشخصية في عالم الحيوان قيمتها وخطرها ، وكان يستمدّها من كل مصدر ، ويأخذها من كل خير ، ويرجع فيها إلى كل عليم وإلى تجاربه الخاصة وكان الجاحظ يحب الحيوان من أعماق نفسه (٢) .  
والكتاب معرض لكل الثقافات من عربية ويونانية وفارسية وهندية ، ومن استقرار موضوعات الكتاب تتجلى لنا قيمته وأصالته ؛ وقد حوى من التاريخ وأحوال العرب وثقافتهم ودياناتهم وعاداتهم ؛ ما يؤلف مجموعة واسعة من الحقائق التي أعمل فيها الجاحظ عقله وأجهد فكره إجماداً شديداً .

وفي الجزء الأول والثاني تناول الكلب والديك ، وفي الثالث تناول الحمام والذباب والغربان وغيرها ، وفي الرابع الذرة والنحل والقرود والخنزير والحيات والظلم ، واستطرد إلى ذكر النيران وأكمل استطراده في الجزء الخامس الذي تناول فيه أيضاً الفأر والجردان والسنابير . والجزء السادس تضمن تفسيراً لقصيدة البهراني في الحيوان ، ولقصيدتي بشر بن المعتمر ، إلى ما تناوله فيه من حيوانات : كالهدد والنساح والأرانب ، وفي السابع تناول أسرار كثيرة من أسرار خلق الحيوان ؛ كما تناول الفيل والزرافة . . والنصوص التي يأتي بها الجاحظ يذكرها دون شرح إلا القليل ؛ وقد شعر بخطورة ذلك ، فاعتذر في الجزء السابع بقوله : « وأنا أعلم أني لو فسر لك معاني هذه الأشعار وغريبها لكان أتم للكتاب ولكني

---

(١) ٣ : ٨٣ الحيوان

(٢) ٣ : ٢٩٩ - ٣٠٤ الحيوان

أعرف ملالة الناس للكتاب إذا طال، (١).

وقد اختصر عبد اللطيف البغدادى (١٦٢٩هـ) كتاب «الحيوان»، وكذلك فعل ابن سناء الملك الشاعر المصرى (٦٨٠هـ) وسمى تلخيصه «روح الحيوان»، وألف الدميرى على نهجه كتابه «حياة الحيوان الكبرى». ونال كتاب الجاحظ اهتمام العلماء والباحثين على طول العصور.

#### ٤ - رسالة الترييع والتدوير

١ - هذه الرسالة طرفة من طرف الجاحظ، كتبها فى أحد الوراقين من غلاة الشيعة ومن خصوم المعتزلة عامة والجاحظ خاصة؛ وكان يعيش فى مسكة، واسمه أحمد بن عبد الوهاب؛ ويبدو أنه كان يطعن على الجاحظ، ويغالى فى ثلب آرائه وتنقص مذهبه ودينه، وقد ندد الجاحظ فيها به، ووصف ماهو عليه من دمامة الخلق وقبح التركيب، مع دعواه أنه جميل الصورة، معتدل الخلق حسن التركيب. وقد وجه الجاحظ فيها إليه مائة سؤال، وطلب إليه الجواب عنها، وكلها معاياة وإلغاز، وأكثر هذه المسائل من الأساطير والحرافات؛ ولكنها تملك على النفس مشاعرهما لسمو العبارة ودقة المعنى؛ ويصفه الجاحظ بأنه من الحشوية وبأنه مربع مدور؛ وبأن ادعاءه لأصناف العلم على قدر جملة بها؛ وبأنه يعد أسماء الكتب ولا يفهم معانيها، ويحسد العلماء من غير أن يتعلق منهم بسبب، وليس فى يده من جميع الآداب إلا انتحال لاسم الآداب.

ويقول: إنه لما طال اضطبارنا حتى بلغ المجهود منا، وكدنا نعتاد مذهبه ونألف سبيله، رأيت أن أكشف قناعه، وأبدي صفحته للحاضر والبادى وسكان كل ثغر ومصر بأن أسأله عن مائة سؤال أهزأ فيها، وأعرف الناس مقدار جملة، وليسأله عنها كل من كان فى مكة، ليكفروا عنا من غربه وليردوه بذلك إلى ماهو أولى به (٢).

وقد نعت الجاحظ أحمد بن عبد الوهاب فيها بالعرض والضخامة ، وفصل لذلك شكل الترييع والتدوير اللذين سميت بهما الرسالة ، ووصف ابن عبد الوهاب بأنه من بجيلة ومن أصحاب صالح بن علي وسليمان بن وهب وندماء جعفر الخياط ؛ وقال إنه من الرافضة المشبهة (١) .

٢ - والرسالة تدل على براعة الجاحظ في الجدل والحوار وفي الفكاهة والسخرية وهي أصل لما كتب في بابها من رسائل بعد عصر الجاحظ . . ودلائلها الواضحة على ثقافة الجاحظ لاحتاج إلى بيان ، وأسئلة أبي عثمان لابن عبد الوهاب تتضمن جميع معارف عصره في المنطق والفلسفة والكيمياء وفي الإنسان والحيوان والجماد والنبات وفي الجغرافيا والتاريخ والفلك وغيرها ، ويذكر فيها ابن الزيات (٢٢٣ هـ) بصيغة تدل على أنه يتحدث عنه بعد نكبته عام ٢٣٣ هـ ، فيقول : وقد كنت أعجب من محمد بن عبد الملك (٢) الخ ، ولكن جاء ذكر لها في الحيوان ، مما يدل على أنها ألقت قبل تأليف الحيوان ، يقول الجاحظ : فإن أعجبتك هذه المسائل فاقرأ رسالتي إلى أحمد بن عبد الوهاب الكاتب (٣) ؛ وأرجح أنها ألقت نحو عام ٢٣٠ هـ .

ومعارف الجاحظ الواسعة في الرسالة مصدرها كل مصدر لثقافة الجاحظ ومعارفه ، وقد ذكر فيها أهم القضايا العلمية والتاريخية والدينية والفلسفية والجدلية التي كانت تشغل أذهان الناس في عصره ؛ وفيها يعرض لمشكلة المعرفة ويرى أن الخطأ كثير غامر ، وممتول غالب ، وأن الصواب قليل خاص ، ومقموع مستخف ، وأن الحواس تخطيء وتضل .

إلى غير ذلك مما تضمنته من آراء ونظريات وإثارة لمشكلات المعرفة في عصره .

---

(١) ٢٢٣ المرجع .

(٢) ٢١٠ المرجع السابق .

(٣) ١ : ٣١١ الحيوان .

## صور من أدب الجاحظ وفكره

### ١ - أسلوب الترجمة (١) :

إن الترجمان لا يؤدي أبداً مقال الحكيم على خصائص معانيه ، وحقائق مذاهبه ، ودقائق اختصاراته ، وخفيات حدوده ، ولا يقدر أن يوفيهما حقوقهما ، ويؤدي الأمانة فيها ، ويقوم بما يلزم الوكيل ويجب على المجري ، وكيف يقدر على أدائها ، وتسليم معانيها والإخبار عنها ، على حقها وصدقها ، إلا أن يكون في العلم بمعانيها ، واستعمال تصاريف ألفاظها ، وتأويلات مخارجها ، مثل مؤلف الكتاب وواضعه ؟ ١٠٠ ؟

فتى كان ابن البطريق (٢) ، وابن ناعمة (٣) ، وأبو قرعة (٤) ، وابن فهرز (٥) ، وابن وهبيل ، وابن المقفع : مثل أرسطو ؟ ومتى كان خالد (٦) مثل أفلاطون ... ؟ ١٠٠ ؟

---

### (١) ١ : ٧٥ - ٧٩ الحيوان .

(٢) يحيى بن البطريق كان يترجم من اليونانية إلى العربية ، وكان في خاصة الحسن بن سهل .

(٣) هو عبد المسيح الحمصي الناعمي المعروف بابن الناعمة مترجم متوسط الجودة .

(٤) هو أبو علي ابن ابن قرعة ، كان منجاً للعلوى البصري صاحب الزنج . ثم وقع أسيراً في يد الموفق فاستبقاه وصار في جملة وعمل كتاباً في علة كسوف الشمس والقمر .

(٥) هو حبيب بن فهرز ، وكان مطراناً الموصل . عرب كتباً كثيرة للمأمون . وكانت بينه وبين جبرائيل ابن يحيى شيوخ صداقة ومودة ، وكان ينقل له الكتب . وقد ذكر الجاحظ ابن فهرز هذا في كتابه «البيان والتمييز» ص ٩٦ ج ١ .

(٦) هو خالد بن عبد الملك المروزي . كان من أكابر المنجمين في عهد المأمون وكان من خاصة منجمي الدولة . وله زيج حاز شهرة واسعة في العصر الأول .

ولابد للترجمان من أن يكون ييانه في نفس الترجمة ، في وزن عليه في نفس المعرفة . وينبغي أن يكون أعلم الناس باللغة المنقول (عنها) والمنقول إليها حتى يكون فيهما سواء وغاية .

ومتى وجدناه أيضا قد تكلم بلسانين علنا أنه قد أدخل الضيم عليهما ، لأن كل واحدة من اللغتين تجذب الأخرى وتأخذ منها وتعترض عليها . وكيف يكون تمكن اللسان منهما مجتمعين فيه ، كتمكنه إذا انفرد بالواحدة ؟ وإنما له قوة واحدة استفرغت تلك القوة عليهما ، وكذلك إن تكلم بأكثر من لغتين ، على حساب ذلك تكون الترجمة لجميع اللغات .

وكلما كان الباب من العلم أعمس وأضيق ، والعلماء به أقل ، كان أشد على المترجم وأجدر أن يخطئ فيه . ولن تجد ألبتة مترجماً يني بواحد من هؤلاء العلماء .

هذا قولنا في كتب الهندسة والتنجيم والحساب واللحون . فكيف لو كانت هذه الكتب كتب دين وإخبار عن الله عز وجل بما يجوز عليه بما لا يجوز عليه ، حتى يريد أن يتكلم على صحيح المعاني في الطبائع ، ويكون ذلك متضمنا بما يجوز على الله تعالى بما لا يجوز ، وبما يجوز على الناس بما لا يجوز . وحتى يعلم مستقر العام والخاص والمقالات التي تلقي الأخبار العامة المخرج في جعلها خاصة . وحتى يعرف من الخبر ما يخصه الخبر الذي هو أثر ما يخصه الخبر الذي هو قرآن ، وما يخصه العقل بما يخصه العادة ، أو الحال الرادة له على العموم ، وحتى يعرف الصدق والكذب ، وعلى كم معنى يشتمل ويجتمع ، وعند فقد أى معنى ينقلب ذلك الاسم . وكذلك معرفة المحال من الصحيح ، وأى شيء تأويل المحال . وهل يسمى المحال كذبا أم لا يجوز ذلك ؟ وأى القولين أخش : المحال أم الكذب ؟ وفي أى موضع يكون المحال أفضع والكذب أشنع ؟ وحتى يعرف المثل والبديع والوحي والكناية وفصل ما بين الخطأ والمأند والمقصود والمبسوط والاختصار . وحتى

يعرف أبنية الكلام ، وعادات القوم ، وأسباب تفاهمهم ، والذي ذكرنا قليل من كثير ، ومتى لم يعرف ذلك المترجم أخطأ في تأويل كلام الدين ، والخطأ في الدين أضر من الخطأ في الرياضة والصناعة والفلسفة والكيمياء ، وفي بعض المعيشة التي يعيش بها بنو آدم .

وإذا كان المترجم الذي قد ترجم لا يكمل لذلك أخطأ على قدر نقصانه من الكمال . وما علم المترجم بالدليل من شبه الدليل ؟ وما عليه بالأخبار النجومية ؟ وما عليه بالحدود الخفية ، وما عليه بإصلاح سقطات الكلام وإسقاط النساخين للكتيب ؟ وما عليه ببعض الخطورة لبعض المقدمات ؟

وقد علينا أن المقدمات لا بد أن تكون اضطرارية ، ولا بد أن تكون مرتبة وكالخط المندور . وابن البطريق وأبوقرة لا يفهمان هذا موصوفاً منزلاً ومرتباً مفصلاً ، من معلم رقيق ، ومن حاذق طباً فكيف بكتاب قد تداولته اللغات ، واختلاف الأقلام ، وأجناس خطوط الملل والأمم ؟ ! ولو كان الحاذق بلسان اليونانية يرمى إلى الحاذق بلسان العربية ، ثم كان العربي مقصراً عن مقدار بلاغة اليوناني ، لم يجد المعنى . والناقل التقصير ، ولم يجد اليوناني الذي لم يرض بمقدار بلاغته في لسان العربية بدا من الاغتفار والتجاوز . . . ولو بما أراد مؤلف الكتاب أن يصلح تصحيحاً أو كلمة ساقطة فيكون إنشاء عشر ورقات من حر اللفظ وشريف المعاني أيسر عليه من إتمام ذلك النقص حتى يرده إلى موضعه من اتصال الكلام فكيف يطبق ذلك المعارض المستأجر والحكيم نفسه قد أعجزه هذا الباب ؟

وكان للنقلة والتراجمة ، في ذلك الحين - كما يقول الصلاح الصفدي - طريقان :  
الأول - طريق يوحنا بن البطريق (١) وابن ناعمة الحمصي (٢) وفرقةهما -

---

(١) هو يوحنا أو يحيى بن البطريق : كان قياً بلغة الروم اللاتينية ، عاجزاً عن معرفة العربية ، وكان في خاصة الحسن بن سهل .  
(٢) هو عبد المسيح بن عبد الله الحمصي الناعمي المعروف بابن ناعمة . كان من رجال الترجمة والنقل ، متوسط الجودة .

وذلك أنهم كانوا ينظرون إلى كل لفظة مفردة من الكلمات اليونانية ، أو غيرها من اللغات الأخرى ، وما تدل عليه من معنى ، فيأتون بلفظة مفردة من الكلمات العربية ترادفها في الدلالة على ذلك المعنى ، فيضعونها في مكانها ، ثم ينتقلون إلى غيرها . وهكذا حتى ينتهى نقل الكتاب على هذه الصورة . ولا شك أن هذه الطريقة عقيمة جداً ، ومن الرذالة في أقصى حد . لأن الناقل قد يضطره عدم إحاطته باللغة العربية ، وعدم وقوفه على سائر مفرداتها التي تقابل الكلمات الأعجمية ، إلى ترك الكثير من هذه الكلمات كما هي على عجمتها . وهنا يصبح الكتاب لاهو بالعربي ، ولا هو بالعجمي . وقد وقع من جراء هذه الترجمة خلل كثير فيما ترجم من الكتب على هذه الطريقة ، وظلت فيها أكثر الكلمات اليونانية ، أو الفارسية ، أو الهندية ، أو السريانية أو اللاتينية ، على حالها . هذا فضلاً عن أن خواص التراكم والنسب الإسنادية في أى لغة كثيراً ما لا يتفق مع ما في أى لغة أخرى من هذه الخواص . بل ما يقع من الخلل عند استعمال المجازات ومرامى الاستعارات .

الثاني - طريق حنين بن إسحق (١) ، والعباس بن سعيد الجوهري (٢) مولى المأمون ، وغيرهما ممن نحائهما - وذلك أن يقرأ الناقل جملة الكلام فيحصل معناها في ذهنه ويعبر عنها من اللغة العربية بجملة

---

(١) هو أبو زيد حنين بن إسحق العبادي . كان طبيباً بارعاً عالماً بعلوم الأوائل . كما كان فصيحاً اسماً بليغاً يقول الشعر ، كان أستاذه الخليل بن أحمد . وقد نقل إلى العربية كثيراً من الكتب القديمة إذ كان يجيد اليونانية والسريانية والرومية ( اللاتينية ) وكان بعض الخلفاء يعطيه أجر النقل زنة الكتاب ذهباً . وخدم المتوكل في الطب . مات سنة ٢٦٠ هـ .

(٢) هو العباس بن سعيد الجوهري . كان فلكياً منجماً عالماً بالأرصاد وآلاتها . وهو الذي ندبه المأمون في جماعة من أصحابه لأجراء الرصد . وله في ذلك زيج مشهور . وكان من أكابر المهندسين والحساب .

تطابقها ، سواء ساوت الألفاظ الألفاظ أم خالفها . وهذه الطريقة أجود من غيرها بلا مرأه . ولهذا قالوا : إن كتب حنين بن إسحق لم يحتج إلى تهذيب إلا في العلوم الرياضية ، لأنه لم يكن قيميا بها ، بخلاف كتب الطب والمنطق والطبيعى والآلهى ، فإن ما عر به منها لم يحتج إلى إصلاح . أما أقليدس (١) فقد ذكروا أن ثابت بن قرة الحرانى هذبه ، وكذلك المجسطى والمتوسطات بينهما .

## ٢ - فصل للجاحظ في الحسد (٢) :

الحسد - أبك الله - داء ينهك الجسد ، ويفسد الأود . علاجه عسر وصاحبة ضجر ، وهو باب غاهض ، وأمر متعذر ، وما ظر منه فلا يداوى وما بطن منه فمداويه فى عناه ، ولذلك قال النبى صلى الله عليه وسلم : « دب اليكم داء الأمم من قبلكم : الحسد والبغضاء » . وقال بعض الناس لجلسائه : « أى الناس أقل غفلة ؟ » فقال بعضهم : « صاحب الليل والعاهة إلى أن يصبح » . فقال : « إنه لكذا ، وليس ذاك » فقالوا له : « فأخبرنا بأقل الناس غفلة » . فقال : الحاسد ؛ إنما هم أن ينزع الله منك النعمة التى أعطاكها ، فلا يغفل أبداً . ويروى عن الحسن أنه قال : « الحسد أسرع فى الدين من النار فى الخطب اليابس . وما أتى المحسود من حامده إلا من قبل فضل الله عنده ونعمته عليه » . قال عز وجل : « أم يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله ، فقد آتينا آل إبراهيم الكتاب والحكمة وآتيناهم ملكاً عظيماً » .

والحسد عقيد الكفر ، وحليف الباطل ، وضد الحق ، وحرب البيان ،

---

(١) هو أقليدس الصورى . كان أوحد أهل زمانه فى معرفة علم الهندسة والحساب وهو من أكابر الفلاسفة الرياضيين .  
(٢) من رسالة الجاحظ فى الحاسد والمحسود .

فقد ذم الله أهل الكتاب به فقال : « ود كثير من أهل الكتاب لو يردونكم من بعد إيمانكم كفارا ، حسدا من عند أنفسهم » .

فعنه تتولد العدواة ، وهو سبب كل قطيعة ، ومنتج كل وحشة ، ومفرق كل جماعة ، وقاطع كل رحم من الأقرباء ، ومحدث التفرق بين القرناء ، وملقح الشر بين الحلفاء ، يكن في الصدر كمن النار في الحجر !

ولو لم يدخل على الحاسد - بعد تراكم الهموم على قلبه ، واستدمان الحزن في جوفه ، وكثرة مضضه ، ووسواس ضميره ، وتنقص عمره ، وكدر نفسه ونكد عيشه - إلا استصغاره نعمة الله عنده ، وسمخه على سيده بما أفاد ، وغيرة ، وتمنيه عليه أن يرجع في هبته إياه ، وألا يرزق أحدا سواه ، لكان عند ذوى العقول مرحسوما ؛ وكان لديهم في القياس مظلوما ، وقد قال بعض الأعراب : « ما رأيت ظالما أشبه بمظلوم من الحاسد ، نفس دائم ، وقلب هائم ، وحزن لازم ، الحاسد مخذول وموزور ، والمحسود محبوب ومقصود ، والحاسد مغمووم ومهجور والمحسود غاش ومزور » .

والحسد - رحمك الله - أول خطيئة ظهرت في السموات ، وأول معصية حدثت في الأرض ، خص به أفضل الملائكة فعصى ربه ، وقاسمه في خلقه ، واستكبر عليه فقال : ( خلقتني من نار وخلقته من طين ) فلعنه وجعله إبليسا ، وأنزله من جواره ، بعد أن كان أنيسا ، وشوه خلقه تشويها ، وموه على قلبه تمويها ، نسي به عزم ربه فواقع الخطيئة ، فارتدع المحسود ، فتاب عليه وهدى ، ومضى اللعين الحاسد في حسده فشقى وغوى . وأما في الأرض فابنا آدم حسد أحدهما أخاه فعصى ربه ، وأكل آباءه . وبالحسد طوعت له نفسه قتل أخيه فقتله ، فأصبح من الخاسرين ، فقد جملة الحسد إلى غاية القسوة ، وبلغ به أقصى حدود العقوق إذا ألقي الحجر عليه شادخا فأصبح عليه نادما صارخا .

ومن شأن الحاسد - إذا كان المحسود غنيا - أن يوجه على المال فيقول :  
جمعه حراما ، ومنع أيتاما وألب عليه محاييج أقاربه ، فترحم له  
أخصاما ، وأعانهم في الباقي ، وحمل المحسود على قطيعتهم في الظاهر ، فقال :  
لقد كفروا معروفاً وأظهروا في الناس ذمك . ليس أمثالهم يوصلون .  
فإنهم يشركون ... وإن وجد له خصم أعانته عليه ظلما ، وإن كان من المعاشرة  
فاستشاره غشه : وتفضل عليه بمعروف كفره ، والدعاء إلى نصره ، وإن  
سئل عنه همزه . وإن كان عنده شهادة كتمها ، وإن كانت منه إليه زلة  
عظمها . وقال : إنه يحب أن يعاد ولا يعود ، ويرى عليه العقود .

وإن كان المحسود عالما قال : مبتعد برأيه متبع ، حاطب ليل ، ومبتغى  
نيل ، لا يدري ما حمل ، قد ترك العمل ، وأقبل على الحيل ... وإن كان المحسود  
ذا دين قال : يوصى ليغزوا إليه ويحج ليثنى عليه ، ويصوم لتقبل شهادته ،  
ويظهر النسك ليودع المال بينته ، ويقرأ في المسجد ليزوجه جاره ابنته ،  
ويحضر الجنائز لتعرف شهرته . وما لقيت حاسدا قط إلا تبين مكنونا  
بتغيير لونه ، ونحويص عينه ، وإخفاء سلامه ، والاقبال على غيرك ،  
والاعراض عنك ، والاستئثار لحديثك ، والخلاف لرأيك .

وكان عبد الله بن أبي قبل نفاقه نسيج وحده ، لجودة رأيه وبعد همته  
ونبل شيمته ، وانقياد الناس له بالسيادة ، وإذعانهم له بالرياسة وما استوجب  
ذلك إلا بعد ما استجمع له لبه وتبين لهم عقله وفقد بينهم جملة ورأوه  
بذلك أهلا لما أطاق له حملا .

فلما بعث الله نبيه صلى الله عليه وسلم ، وقدم المدينة ورأى عبد الله  
عز رسول الله ، شمع بأنفه فهدم إسلامه لحسده وظهر نفاقه . وما صار منافقا  
حتى صار حسودا ولا صار حسودا حتى صار حقودا ، فحمق بعد اللب ،  
وجهل بعد العقل وثوب النار بعد الجنة ، ولقد خطب النبي صلى الله عليه وسلم

في المدينة فشكاه إلى الأنصار فقالوا : يا رسول الله لا تله فإننا كنا قد ناله الخرز قبل قدومك لتوجه .

ورسالة الجاحظ « الحاسد والمحسود » التي ينصح فيها القارىء باتخاذ الحيطة والتوقى من سهام الحسد والحاسدين ، من أهم رسائله ، وأبلغ ما كتب من نثر فنى .

وأسلوبه هنا هو أسلوب الجاحظ الذى تظهر فيه شخصيته ظهورا تاما ، حتى الترى فيه رقة اللفاظ وسهاحة العبارة وجمال الأسلوب والزهد فى الصور البيانية وهو يتردد بين السجع والازدواج ، مع ميل إلى الاسهاب والترادف وتعاور العبارات على الفكرة الواحدة .

والرسالة تمثل النثر الفنى فى عصر الجاحظ أصدق تمثيل ، فى بلاغته وجماله وتمشيه مع الحضارة العقلية والفكرية والأدبية التى سادت الأدب والثقافة آنذاك

وفى هذا الفصل من رسالة « الحاسد والمحسود » ، يبين ضرر الحسد ، وينفر منه ، ويظهر خفائاه ، ويكشف نفسية صاحبه كشفا ، ويبدو من أسلوب الجاحظ هنا أنه أشبه بالعالم النفسى الذى يفصح عن طوايا النفوس ومشاعرها وأحاسيسها إفصاحا شديدا .

ولا شك أن الجاحظ قد سبق بهذا التحليل النفسى فى أسلوبه الكتاب والبلغاء والأدباء ، وأثرى بذلك الأدب ولغة العرب إثراء شديدا .

٣ - البيان :

قال بعض جهابذة الألفاظ ونقاد المعاني : المعاني القائمة في صدور العباد ، المتصورة في أذهانهم ، والمتجلجلة (١) في نفوسهم ، والمتصلة بنحواطهم ، والحادثة عن فكرهم ، مستورة خفية ، وبعيدة وحشية ، ومحجوبة مكنونة ، وموجودة في معنى معدومة . لا يعرف الإنسان ضمير صاحبه ، ولا حاجة أخيه وخليطه (٢) ، ولا معنى شريكه والمعاون له على أموره . وعلى ما لا يبلغه من حاجات نفسه إلا بغيره ، وإنما تحيا تلك المعاني في ذكرهم لها ، وإخبارهم عنها ، واستعمالهم إياها . وهذه الخصال هي التي تقربها من الفهم ، وتجليها (٣) للعقل ، وتجعل الخفي منها ظاهراً ، والغائب شاهداً ، والبعيد قريباً ؛ وهي التي تلخص الملتبس (٤) . وتحل المنعقد ، وتجعل المهمل مقيداً ، والمقيّد مطلقاً ، والمجهول معروفاً ، والوحشى مألوفاً ، والغفل (٥) موسوماً ، والموسوم معلوماً . وعلى قدر وضوح الدلالة وصواب الإشارة ، وحسن الاختصار ، ودقة المدخل ، يكون إظهار المعنى ، وكلما كانت الدلالة أوضح وأفصح ، وكانت الإشارة أبين وأنور ، كان أنفع وأنجع (٦) . والدلالة الظاهرة على المعنى الخفي هو البيان الذي سمعت الله تبارك وتعالى يمدحه ويدعو إليه ويحث عليه . وبذلك نطق القرآن ، وبذلك تفاخرت العرب ، وتفاضلت أصناف الأعيان . والبيان اسم جامع لكل شيء . كشف لك قناع المعنى ، وهتك الحجب دون الضمير ، حتى يفضى

---

(١) المتجلجلة : المضطربة .

(٢) الخليط : المخاط ، أى المشارك والصاحب .

(٣) تجليها : تظهرها . (٤) الملتبس : المختلط .

(٥) الغفل : ما لاعلامه فيه .

(٦) نجع الطعام أو الدواء أو للكلام : نفع .

السامع إلى حقيقته ، ويهجم على محصولة كائنا ما كان بذلك البيان . ومن أى جنس كان ذلك الدليل ؛ لأن مدار الأمر والغاية التى إليها يجرى القائل والسامع إنما هو الفهم والإفهام ، فبأى شئ بلغت الإفهام وأوضحت عن المعنى ، فذلك هو البيان فى ذلك الموضع ..

وأحسن الكلام ما كان قليله يغنيك عن كثيره ومعناه فى ظاهر لفظه ، وكان الله عز وجل قد ألبسه من الجلالة ، وغشاه من نور الحكمة على حسب نية صاحبه وتقوى قائله ، فإذا كان المعنى شريفا واللفظ بليغا ، وكان صحيح الطبع بعيداً من الاستكراه ، ومنزها عن الاختلال ، مصونا عن التكلف صنع فى القلب صنيع الغيث فى التربة الكريمة . ومتى فصلت الكلمة على هذه الشريطة ، ونفذت من قائلها على هذه الصفة ، أصبحها الله من التوفيق ، ومنحها من التأيد ، ما لا يمتنع من تعظيمها به صدور الجبابة ، ولا يذهل عن فهمها عقول الجهمية .

٤ — ومن كتاب الجاحظ إلى ابن الزيات :

لا والله ، ما عاج الناس داء قط أدوى من الغيظ ، ولا رأيت شيئا هو أنفذ من شماتة الأعداء ، ولا أعلم بابا أجمع لحصال المسكروه من الذل ؛ ولكن المظلوم مادام يجد من يرجوه ، والمشتكى مادام يجد من يرثى له ؛ فهو على سبب ، درك وإن تطاولت به الأيام ، فكم من كربة فادحة ، وضيق مصمتة ، قد فتحت أبقالها ، وفككت أغلالها ؛ ومهما قصرت فيه فلم أقصر فى المعرفة بفضلك ، وفى حسن النية بينى وبينك ؛ لا مشتت الهوى ، ولا مقسم الأمل ، على تقصير قد احتملته ، وتفريط قد اغتفرته (١) .

٥ — فى الكتاب المنسوب للجاحظ بعنوان الدلائل والاعتبار على الخلق

والتدبير ، وهو نفس الكتاب المنسوب إلى تليذ الامام الصادق بعنوان  
« توحيد المفضل » : « تأمل خلق الأوراق فانك ترى في الورقة شبه العروق  
مشبوة فيها اجمع . . . ويقاع الأرض كلها بلا حركة ولا كلام الا الارادة  
النافذة في كل شيء . . . وجاء أضافيه : « فكر في ضرب من التدبير في الشجر ،  
فانك تراه يموت في كل سنة مودة فتحبس الحرارة الطبيعية في غوره ، وتتولد  
مواد الثمار ثم تحبى وتنتشر . . . وترى الرياحين تلقاك في افنانها كأنها تحيك  
بأنفاسها . . . وما ذكره الجاحظ في كتاب الحيوان أن من طباع حر الشمس  
الايقاظ والبسط والنشر ، ذاكرا عن النبات الخيرى بأنه ينضم ورقه  
بالليل ويتفتح بالنهار .

ومن الأمور التي تدهش القارىء موضوع « الخلايا وتنفسها ، لحامل  
جائزة نوبل في الطب والفيزيولوجيا في تشرين الأول من العام الماضى فيودور  
لينن من معهد الخلايا الفيزيولوجية في مونيخ ، وهنا نجد موضوعاً طريفاً .  
ومع ذلك فاننا نقرأ للجاحظ بعض الأمور التي تذكرنا بكشوف هذا  
العلامة الفذ ، اولاً من جهة أن الحياة هي عبارة عن احتراق ، فقد جاء في  
كتاب الحيوان للجاحظ . « انى وجدت الانسان يحبى ويعيش حيث تحبى  
النار وتعيش وتموت وتتلف حيث يموت الانسان ويتلف ، وقد تدخل نار  
في بعض المطامير والحباب والمغارات والمعادن فتجدها متى ماتت هناك ،  
علمنا متى صار في ذلك الموضع الانسان مات ، ولذلك لا يدخلها أحد  
مادامت النار إذا صارت فيها ماتت ، ويعمد اصحاب المعادن والحفائر إذا  
هجموا على فتق في الأرض او مغارة في اعماقها إلى شجرة في طرفها أو في رأسها  
نار فان ثبتت النار وعاشت دخلوا ، .

إن أغرب شيء يذكره هو التنفس الذى لا ينحصر في الرئتين فحسب بل  
هو ممتد لجميع أطراف الجسم أو مانسميه اليوم بتنفس الخلايا ، وإن الاحتراق  
يجرى في الانسجة ، واننا اذنرى كشفاً عليها جديداً يقره آخر حامل

لجائزة نوبل في الفيزيولوجيا ، نجد الجاحظ يروى لنا في كتاب الحيوان مايلي : (١) « لولا أن تحت كل شعرة وزغبة مجرى نفس ، لكان المخنوق يموت مع أول حالات الخنق ، ولكن النفس كأن لها اتصال بالنسيم من تلك المجارى على قدر الاقدار فكان نقطها جوف الانسان . فالريح أو البخار لما طلب المنفذ فلم يجد دار وكثف وقوى فاستدله الجلد فسد له المجارى ، فعند ذلك ينقطع النفس ولولا اعتصامها بهذا السبب لكانت انقطعت إلى اصلها مع أول حالات الخنق . . وكان يأتى بذلك بمثال : « ان لم تكن النفس غمرت بما هيح عليها من الآفات ولم تنقطع الطفر إلى اصلها جاز أن يكون الضياء الساقط على أرض البيت عند سد الكوة لم ينقطع إلى أصله ولكن السبب هيح عليه من الظلام القائم في الهواء ، ماغمره وقطعه عن أصله ، ولا فرق بين هذين . »

ويروى انه كان يعظم شأن الهواء ويخبر عن احاطته ، ذاكرًا عن الآلة التي يصعد فيها الماء . اننا نرى هنا مبدئين من مبادئ العلوم الطبيعية الحاضرة ألا وهى مراقبة الطبيعة وعمل الفكر والروية ، وان كانت النتائج لا تنطبق على العصر الحاضر تمام الانطباق ، بيد أن عصر الجاحظ شعر بأمور لم يكشفها العلم الا بعد عصور عديدة (٢) .

٦ - ويقول الجاحظ :

« فحين حملوا حدهم (يعنى العرب) ووجهوا قواهم إلى قول الشعر وبلاغة المنطق وتشقيق اللغة وتصاريح الكلام وقياة البشر بعد قياة الاثر وحفظ النسب والاهتداء بالنجوم والاستدلال بالآثار وتعرف الانواء والبصر

---

(١) ٣٧ : ٥ الحيوان طبع القاهرة - ١٩٠٦

(٢) راجع مجلة المعرفة السورية عام ١٩٦٥ - من مقال للدكتور محمد يحيى

الهاشمي بعنوان « عليهم وتراثنا »

بالخيل والسلاح وآلة الحرب والحفظ لكل مسموع والاعتبار بكل محسوس  
واحكام شأن المناقب والمثالب بلغوا في ذلك الغاية (١) والجملة هنا تبتدىء  
بقوله : « فحين حملوا حـدم ووجهوا قواهم » ، وتنتهى إلى قوله : « بلغوا  
في ذلك الغاية » . ويتخلل البداية والنهاية كلام طويل متشعب .  
ويقول كذلك :

« فحين لم تشغلهم الصناعات ولا التجارات ولا الطب والفلاحة  
والهندسة ولا غرس ولا بـنيان ولا بثق انهار ولا جباية غلات ، ولم تكن  
همهم غير الغزو والغارة والصيد وركوب الخيل ومقارعة الأبطال  
وطلب الغنائم وتدويخ البلدان وكانت همهم إلى ذلك مصروفة وكانت لهذه  
المعاني والاسباب مسخرة ومقصورة عليها وموصولة بها » أحكموا ذلك  
الامر بأسره (٢) .

وهى جملة واحدة أطول من الأولى .

فهنالك عنصران أساسيان ترتكز عليهما الجملة وهما البداية والنهاية  
يتخللهما كلام طويل متشعب ، يتفرع كأغصان الشجرة ، يلتوى ويعرج .

٧ - وقد أشار الجاحظ في رسالته إلى الفتح بن خاقان في « مناقب  
الأتراك وعامة جند الخلافة » ، إلى أن البنوى خراسانى لأن نسب الابناء نسب  
آبائهم ، يريد أن البنوى وهو من جلب طفلا صغيرا من خراسان وربى تربية  
عسكرية ببغداد خراسانى من جهة الولادة . وذكر أن المولى عربى لأن  
« السنة قد نقلت الموالى إلى العرب » ، فهم عرب بالولاء ، ثم أضاف قوله :  
« وإذا كان الامر على ما وصفنا فالبنوى خراسانى وإذا كان الخراسانى  
مولى والمولى عربيا ، فقد صار الخراسانى والبنوى والمولى والعربى شيئا

---

( ١ ) « مناقب الأتراك » ، ص ٥٤

( ٢ ) « مناقب الأتراك » ، ص ٤٦ .

واحدا وأدنى ذلك أن يكون الذى معهم من خصال الوفاق غامرا لما معهم من خصال الخلاف بل فى معظم الأمر وفى كبر الشأن وعمود النسب متفقون فالأتراك خراسانية وموالى الخلفاء قصرة ، فقد صار فضل التركى إلى الجميع راجعا وصار شرفه إلى شرفهم زائدا . وإذا عرف سائر الأجناد ذلك ساحت النفوس وذهب التعقيد ومات الضغن وانقطع سبب الاستئفال ، فلم يبق إلا التحاسد والتنافس الذى لا يزال يكون بين المتقاربين فى القرابة وفى الصناعة وفى المجاورة . على أن التوازن والتسالم فى القرابات وفى بنى الأعمام والعشائر أفشى وأعم من التخاذل والتعاضد . . . ولا بد فى أضعاف ذلك من بعض التنافس والتخاذل ، إلا أن ذلك قليل من كثير . وليس يكون أن تصفو الدنيا وتنقى من الفساد والمسكره حتى يموت جميع الخلاف وتستوى لأهلها وتتمد لسكانها على ما يشتمون ويهوون لأن ذلك من صفة دار الجزاء وليس كذلك صفة دار العمل ، (١) .

وهذا الأسلوب طابعه الجدل والمنطق ، وذكر السبب وقرنه بالمسبب أو النتيجة .

وقد يستخدم الجاحظ الأسلوب السوفسطائى لتأييد رأيه كقوله فى رسالته ونظر السودان على البيضان : قال النبى صلى الله عليه وسلم : بعثت إلى الأحمر والأسود وقد علمت أنه لا يقال للونج والحبشة والنوبة بيض ولا حمر ، وليس لهم أسمر إلا السود ، وقد علمنا أن الله عز وجل بعث نبيه (إلى بنى آدم) كافة وإلى العرب والعجم جميعا ، فإذا قال بعثت إلى الأحمر والأسود ولسنا عنده حمر ولا بيضا وقد بعث إلينا فاتما عنا بنا بقوله الأسود ولا يخرج الناس من هذين الاسمين فإن كانت العرب من الأحمر فقد دخلت

(١) رسالة مناقب الأتراك وعامة جند الخلافة ، ط . فان فلوطن - أبريل

في عداد الروم والصقالبة وفارس وخراسان ، وإن كانت من السود فقد اشتق لها هذا الاسم من اسمنا . وإنما قيل لهم آدم وسمر وسود حين دخلوا معنا في جهلتنا كما تجعل العرب الاناث من الذكور ذكورا . وإذا كان النبي صلى الله عليه وسلم يعلم أن الزنج والحبشة والنوبة ليسوا بحمر ولا بيض وأنهم سود ، وقد بعثه الله تعالى إلى الأسود والأحمر فقد جعلنا والعرب سواء . ونسكون نحن السود دونهم . فإن كان اسم السود وقع علينا فنحن السودان الخالص والعرب أشباه الخالص فنحن المقدمون في الدعوة ، (١) .

ويسكثر استعمال هذا الأسلوب المنطقي الجدلي في كتب الجاحظ من مثل كتاب « الحيوان » ، وكتاب « الترييع والتدوير » ، و « رسالة مناقب الأتراك » وعامة جند الخلافة ، وكتاب « نثر السودان على البيضان » ، وكتاب « العثمانية » ، وغيرها . وقد يستخدم الجاحظ الأسلوب العلي الجدلي لتأييد مذهبه الديني أو العلمي .

٨ - ويقول الجاحظ في كتابه المشهور « رسالة مناقب الأتراك » :

« ثم زعمت أن الأتراك قد شاركوا هؤلاء القوم في هذا النسب وصاروا من العرب بهذا السبب مع الذي بانوا به من الخلال وحبوا به من شرف الخصال . على أن ولاء الأتراك للباب قريش ولماصاص عبد مناف وفي سرهاشم ، وهاشم موضع العذار من خد الفرس والعقد من لبة السكعاب ، وهو الجوهر المكنون والذهب الماص في وموضع الحمة من البيضة والعين في الرأس والروح من البدن ، وهم الأنف المقدم والسنام الأكوم والطينة البيضاء والدررة الزهراء والروضة الخضراء والذهب الأحمر ، فقد شاركوا العرب في أنسابهم والموالى في أسبابهم وفضلوا بهذا الفضل الخاص الذي

لأ يبلغه فضل وإن برع بل لا يكثره شرف وإن عظم، ولا يجد وإن قدم فوغت  
أن أنساب الجميع متقاربة غير متباعدة . وعلى حسب ذلك تكون الموازنة  
والمكانفة والطاعة والمناصفة والمحبة للخلفاء والأئمة <sup>(١)</sup> .

وهو هنا يلجأ إلى الأسلوب الوجداني الغنائى للتأثير على القارئ . بلاغة  
التركيب فى ثمره الفنى الجا حظى ، وهذا النحو من النثر الفنى يمتاز بطول النفس  
وقد أحدثه الجاحظ بالترديد والإكثار من التراكيب والمترادفات والاستطراد  
إلى حد الغلو ، وهذا ما يسميه المستشرقون تلاعب الجاحظ ، وربما تكون  
حيوية الجاحظ هى التى جعلته يميل ميلاً خاصاً إلى هذا النوع من الأسلوب .  
فهو يسجع ولم يكن يسجعه كالأحان الموسيقى وقد وضع قانوناً للسجع الجليل  
فى قوله فى كتاب « البيان والتبيين » ، ويمكنك الاقتناع به : « إذا لم يطل  
ذلك ، ولم تكن القوافى مطلوبة مجتلبة أو ملتزمة ، متكلفة » <sup>(٢)</sup> ، ومن هذا  
الأسلوب أيضاً قوله .

« إن كلامه صلى الله عليه وسلم : هو الكلام الذى قل عدد حروفه  
وكثر عدد معانيه ، وجل عن الصنعة ، ونزه عن التكلف .. استعمل المبسوط  
فى موضع البسط ، والمقصود فى موضع القصر ، وهجر الغريب الوحشى ،  
ورغب عن الهجين السوقي ، فلم ينطق إلا عن ميراث حكمة ، ولم يتكلم  
إلا بكلام قد حف بالعصمة ، وشد بالتأييد ، ويسر بالتوفيق . وهذا الكلام  
الذى ألقى الله المحبة عليه وغشاه بالقبول ، وجمع له بين المهابة والحلاوة ،  
وبين حسن الإفهام وقلة عدد الكلام ، وهو مع استغنائه عن إعادته وقلة  
حاجة السامع إلى معاودته ، لم تسقط له كلمة ولا زلت له قدم ، ولا بارت له  
حجة ، ولم يقم له خصم ، ولا أخمه خطيب ، بل يبذ الخطاب الطوال  
بالكلام القصير ، ولا يلتبس إسكات الخصم إلا بما يعرفه الخصم

(١) رسالة « مناقب الأتراك » ، ص ٧

(٢) « البيان والتبيين » ، ط القاهرة ١٩٤٧ ج ١ ص ٢٨٢

ولا يحتج إلا بالصدق ، ولا يطلب الفلج إلا بالحق ، ولا يستعين بالخلافة ، ولا يستعمل الموارد ، ولا يهزم ولا يلزم ولا يبطئ ، ولا يعجل . ولا يسهب ولا يبحر ، ثم لم يسمع الناس بكلام قط أعم نفعا ، ولا أصدق لفظا ، ولا أعدل وزنا ، ولا أجمل مذهبا ، ولا أكرم مطلبا ، ولا أحسن موقعا ، ولا أسهل مخرجا ، ولا أفصح عن معناه ولا أئين عن خواه - من كلامه صلى الله عليه وسلم ، (١) .

وبفضل التقطيعات الصوتية المنسجمة والتنظيم الموسيقي العذب يصل الجاحظ في ثره إلى إحداث « حال شعرية » تؤثر في القارىء والسامع تأثيرا كبيرا .

#### ٩ - ويقول الجاحظ في خصال الديك :

« في الديك الشجاعة ، وفي الديك الصبر عند اللقاء .. وفي الديك الجولان وهو ضرب من الروغان ، وجنس من تدير الحرب ، وفيه الثقافة ( الحذق ) والتسديد ، وذلك أنه يقدر إيقاع صيصيته ( أى طرف منقاره ) بعين الديك الآخر ويتقرب إلى المذبح فلا يخطئ .. وله مع الطعنة سرعة الوثبة والارتفاع في الهواء . وسلاحه طرير ( ماض ) وفي موضع عجيب ، وليس ذلك إلا له .. » (٢) ، ولاننس أن هذا الفخر يدخل في إطار تلك المساجلات الكلامية أو الجدلية بين فريقين من المعتزلة فريق ينتصر للكلب وفريق يشيد بذكر الديك . على أن الأسلوب الملاحمى أبرز ههنا .

(١) « البيان والتبيين » ط . عبد السلام هارون - القاهرة ١٩٤٨ - ٣٠

(٢) كتاب « الحيوان » ج ٢ ص ٢٣٣

ونجد الأسلوب الملحمي الغنائى هنا وفي مواطن كثيرة من رسالة مناقب الأتراك ، فها هو يقول على لسان الخراسانى :

« ونحن فتحنا البلاد وقتلنا العباد وأبدنا العدو بكل واد ، ( ص ٨ ) ..  
« ونحن قوم لنا أجسام وأجرام وشعور وهام ( طويلة عظيمة ) ومناكب  
عظام وجباه عراض وقصص غلاظ وسواعد طوال ، ( ص ١٠ ) .. « ونحن  
أصحاب اللحي وأرباب النهى وأهل الحلم والحجى .. ولنا الطبول الموهلة  
والبنود العظام ونحن أصحاب التجافيف والأجراس والبازفكند واللبود  
الطوال والأغمد المعقفة والشوارب المعقربة والقلانس الشاشية والخيول  
الشهرية والكافركوبات والطبرزينات فى الأكف ، والخناجر فى الأوساط  
وحسن الجلسة على ظهور الخيل ، ولنا الأصوات التى تسقط الحبالى ،  
( ص ١ ) .

١٠ - وفى « البيان والتبيين » وفى مقدمة كتاب « الحيوان » يقول  
لمن عاب كتبه :

« بهرك ما سمعت ، وملا صدرك الذى قرأت ، وأبعلك وأبطرك ،  
فلم تتجه للحجة وهى لك معرضة ، ولم تعرف المقاتل وهى لك بادية ، ولم  
تعرف باب المخرج إذ جهلت باب المدخل ، ولم تعرف المصادر إذ جهلت  
الموارد ، (١) .

نما نجد فيه أسلوب الجاحظ فى النقد الأدبى ، وفى الرد على خصومه ،  
ونما يعلمنا الجاحظ به كثيرا من أصول النقد .

١١ - ويقول الجاحظ فى رسالته « التزييع والتدوير » : بل ما يهملك

من أقاويلهم ، ويتعاضدكم من اختلافهم ، والراسخون في العلم والناطقون بالفهم يعلمون أن استفادة عرضك قد أدخلت الضيم على ارتفاع سمكك ، وأن ما ذهب منك عرضا قد استغرق ما ذهب منك طولا ، ولئن اختلفوا في طولك لقد اتفقوا في عرضك ، وإذا قد سلخوا لك بالرغم سطرأ ومنعوك بالظلم شطرا فقه حصلت ما سلخوا وأنت على دعواك بما لم يسلبوا ، (١) .

وهو أسلوب من أساليب الوصف « الكاريكاتورى » المضحك الساحر .

١٢ - وقد أجاد الجاحظ فن الأقدوسة فى كتاب « البخلاء » ، وفى كتاب « الحيوان » ، وقرأ قصة الخناقين وهم طائفة من غلاة الشيعة من الروافض كانوا يقتلون أعداءهم فى المذهب خنقا ، ثم أصبح القتل جبلة فيهم فطمع بعضهم فى حمال لا يملك سوى ثوب ودرهمات : « وانظر كيف أخذوا أهل درب بأسره وذلك أن بعضهم رغب فى ثوب كان على حمال ، وفيه درهمات معه فألقى الوهق فى عنقه فغشى عليه ولم يمت وتحرك بطنه فأتى المتوضأ وتحرك الحمال والساجور فى عنقه فرجعت نفس الحمال ، فلما لم يحس بأحد عنده قصد نحو باب الدار وخرج وزياره فى عنقه وتلقته جماعته فأخبرهم الخبر ، وتصايح الناس فأخذوا عن آخرهم » (٢) .

فأسلوب الأقدوسة جميل إيجائى ، ولما تتابعت حوادثها بسرعة كبيرة عمد الجاحظ إلى الأسلوب القصصى الحى ، ففى هذه الأقدوسة أزمة تنفرج قليلا ثم تعود إلى التأزم من جديد وتبلغ حد المأساة ، إذ يعلنا الجاحظ أن

(١) كتاب « الترييع والتدوير » ، ط بلات دمشق ١٩٥٣ ص ١٤

(٢) كتاب « الحيوان » ، ص ٢٠٤ ص ٢٦٤

الحمال وأصحابه أخذوا عن آخرهم أى قتلوا خنقا ، وتتابع حوادث  
الافصوصة بسرعة كبيرة فأكثر الجاحظ من الأفعال فتتابع بسرعة كذلك ،  
فأمعن النظر فى قوله : « فالتى الوهق فى عنقه فغشى عليه ولم يمت ، وتحرك  
بطبئه فأتى المتوضأ وتحرك الحمال والساجور فى عنقه فرجعت نفس  
الحمال .. الخ ، .

فإن أبا عثمان الكاتب القصصى يجعلنا نتلف من أول وهلة لمعرفة  
النهاية فتقطع أنفاسنا بانقطاع أنفاس الحمال وترجع برجوعها ،  
وهذا سر عبقريته (١) .

---

(١) راجع مجلة الفكر التونسية عدد مارس ١٩٦٥ من مقال للأستاذ أحمد  
خالد عن « أسلوب الجاحظ » ،

## ملاحظة أخيرة

اقتضى تأليف هذا الكتاب الرجوع إلى مئات المصادر المطبوعة والمخطوطة والمباشرة وغير المباشرة ، وقد ذكرنا أهم المراجع المباشرة التي لها صلة أصيلة بالجاحظ في هوامش الكتاب ، ومن بينها كل مؤلفات الجاحظ ورسائله ، وقد نشر الحاجرى وكر اوس مجموعة رسائل الجاحظ فى القاهرة عام ١٩٤٣ ، ويطبع رسائل الجاحظ الآن عبد السلام هارون فى القاهرة ، وقد صدر الجزء الأول منها .

وفى الفهرست لابن النديم أشياء قليلة عن الجاحظ .

وكذلك فى كتاب الأنساب (١) للسمعانى ، وطبقات الألبا لابن الأنبارى (٢) والمتنظم لابن الجوزى (مخطوط ، ومنه نسخة خطية فى مكتبة باريس ١٥٠٥) ، ومرآة الزمان لسبط بن الجوزى ، والتهديب للنوى ، ووفيات الأعيان لابن خلكان (٣) ، والوافى بالوفيات للصفدى ، وعيون التواريخ (٤) للكتبى ، وسرح العيون لابن نباته (٥) ، ومرآة الجنان (٦) لليافعى ، وميزان الاعتدال لابن حجر (٧) . وفى هذه المراجع آراء كثيرة عن الجاحظ .

وقد ترجم ابن عساكر للجاحظ فى كتابه « تاريخ دمشق » وهذه الترجمة

---

(١) ١١٨ ص

(٢) ٢٥٤ - ٢٥٨

(٣) ١٠٨ : ٢ - ١١٢

(٤) ١٥٣ ب - ١٥٧ ب

(٥) ١٣٣ وما يليها

(٦) ١٦٢ : ٢ - ١٦٥

(٧) ٣٥٥٠٤ - ٣٥٧

نشرها كنكو في مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق ( المجلد التاسع ١٩٢٩ ) .  
ومن المراجع المهمة : كتاب المعارف لابن قتيبة وكتاب عيون الأخبار له  
أيضاً ، وكتاب الكامل للبرد ، والعقد الفريد لابن عبد ربه ، وزهر  
الآداب للحصري ، والأغانى لأبى الفرج ، والمثل السائر لابن الأثير ،  
وفخوة الشعراء للأصمعي .

إن المؤلفات المباشرة التي كتبت عن الجاحظ كثيرة ، وقد أحصيناها  
كلها وذكرناها في هوامش هذا الكتاب ورجعنا إليها .

أما المؤلفات غير المباشرة ومن بينها جمهرة من كتب الأدب والتاريخ  
واللغة والفلسفة ومختلف الفنون ، فإنها كثيرة ، ويكاد يكون إحصاؤها في  
هذا المجال عملاً عسيراً ، أرتفاخراً وزهواً بالجهد المبذول في هذا الكتاب ..  
لذلك آثرت ترك ذكرها وحذفت فصل المراجع اكتفاء بما ذكرته في  
هامش الكتاب من مراجع مباشرة .

ومن بين المصادر التي اطلعت عليها : الأدب العربي لبلاشير ، والأدب  
العربي لسكيمان هوار ، وكتاب النظام للعقاد ، وكتاب إبراهيم بن سيار النظام  
لعبد الهادي أبو ريده ، والفلسفة الإسلامية لمصطفى عبد الوازق .

ومن كتبني التي رجعت إليها : ابن المعتز ، الحياة الأدبية في العصر  
العباسي ، من بلاغة العرب ، من تراثنا الأدبي ، وغيرها .

وأحمد الله إليه ، على ما أعانني عليه ، من جهد بذلته ، وعمل قدمته ،  
والله ولي التوفيق .

## الكلمة الأخيرة

هذا هو أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ المفكر العربي العظيم ،  
والأديب الكاتب الفيلسوف ، والإمام المعتزلي صاحب الآراء الطريفة  
في الدين والعقيدة .

وتلك صورة واسعة لعصره وبيئته ، ولحياته وشخصيته وثقافته ،  
ولآرائه في السياسة والاعتزال ، ولمنهجه في البحث العلمي ، ولمنزلته أديبا  
وكاتبا في طليعة أدباء العرب ، ومؤسسا للنقد والبلاغة العربية . . وعرض  
لمكانته في الفكر الإنساني والفكر العربي وتراثه ، ولآراء الأجيال فيه .

ولعل هذه الصورة الشاملة الواسعة الجديدة تكون قد أملت بأطراف  
الموضوع إلاما يقرب هذه الشخصية النادرة إلى أذهان الشباب العربي في كل  
مكان ، وإلى قلوبهم وأرواحهم في كل ناحية .

ومن الله أستمد التوفيق ، وأسأله السداد والصواب ، وما توفيقى  
إلا بالله ؟

## (فهرست)

| الموضوع                                     | الصفحة |
|---------------------------------------------|--------|
| ٩ تصدير                                     |        |
| ١١ أبو عثمان الجاحظ                         |        |
| ١٥ - ٤٠ الباب الأول: عصر الجاحظ             |        |
| ١٧ تمهيد                                    |        |
| ١٩ الفصل الأول الحياة السياسية              |        |
| ٢٤ ، الثاني ، الاجتماعية                    |        |
| ٣٠ ، الثالث ، العقلية                       |        |
| ٣٦ ، الرابع ، الأدبية                       |        |
| ٤١ - ٨٥ الباب الثاني: حياة الجاحظ           |        |
| ٤٣ الفصل الأول البصرة موطن الجاحظ           |        |
| ٥٣ ، الثاني ميلاد الجاحظ وطفولته            |        |
| ٥٨ ، الثالث حياة الجاحظ                     |        |
| ٥٨ ١ - مرحلة الدراسة                        |        |
| ٦٣ ٢ - مرحلة الأستاذية                      |        |
| ٦٤ ٣ - مرحلة الزعامة الفكرية                |        |
| ٨٠ ٤ - المرحلة الأخيرة                      |        |
| ٨٦ - ١٢٠ الباب الثالث: شخصية الجاحظ وثقافته |        |
| ٨٧ الفصل الأول شخصية الجاحظ                 |        |
| ٩٤ الفصل الثاني ثقافة الجاحظ                |        |
| ٩٤ موسوعية ثقافته                           |        |

| الموضوع                                         | الصفحة |
|-------------------------------------------------|--------|
| ثقافته العربية                                  | ٩٥     |
| الجاحظ والثقافة الفارسية                        | ١٠٨    |
| الجاحظ والثقافة اليونانية .                     | ١١٢    |
| ١٢١ — ١٣٢ الباب الرابع : الجاحظ السياسي         |        |
| ١٢٢ الفصل الأول مواهب الجاحظ السياسية           |        |
| ١٢٦ الفصل الثاني في سبيل الدولة والخلافة        |        |
| ١٣٣ — ١٦٤ الباب الخامس : الجاحظ المعتزلى        |        |
| ١٣٤ الفصل الأول المعتزلة والاعتزال              |        |
| ١٤٥ الفصل الثاني الجاحظ ومذهبه فى الاعتزال      |        |
| ١٥٤ مكانة الجاحظ بين المعتزلة                   |        |
| ١٦٥ — ١٨١ الباب السادس : الجاحظ العالم          |        |
| ١٦٦ الفصل الأول المعلم الأول للعقل العربى       |        |
| ١٧١ الفصل الثانى مذهب الجاحظ العلوى             |        |
| ١٨٢ — ٢٢٢ الباب السابع : الجاحظ الأديب          |        |
| ١٨٣ الفصل الأول شخصية الأديب                    |        |
| ١٩٥ الفصل الثانى أديب العصر                     |        |
| ٢٠٣ الفصل الثالث الذوق الأدبى عند الجاحظ        |        |
| ٢١٤ الفصل الرابع الكتّاب الواقعى                |        |
| ٢١٨ الفصل الخامس الجاحظ الشاعر                  |        |
| ٢٢٣ — ٢٣٩ الباب الثامن : شيخ البلاغين والنقاد   |        |
| ٢٢٤ الفصل الأول إمام البيان العربى              |        |
| ٣٣٥ الفصل الثانى إمام النقاد                    |        |
| ٢٤٠ — ٢٥٧ الباب التاسع : الجاحظ فى علم الخالدين |        |
| ٢٤١ الفصل الأول الخلود لفكر الجاحظ وأدبه        |        |

الصفحة الموضوع

- ٢٤٥ الفصل الثاني ذكرى خالدة  
٢٤٩ الفصل الثالث صور من أدب الجاحظ  
٢٥٨-٣٠٨ الباب العاشر: الجاحظ في سجل التاريخ  
٢٥٩ الفصل الأول وفاة الجاحظ  
٢٦٢ الفصل الثاني آراء في الجاحظ  
٢٧٥ الفصل الثالث آراء خصوم الجاحظ فيه  
٢٨٤ الفصل الرابع آثار الجاحظ  
٣٠٩ الفصل الخامس كتب خالدة للجاحظ  
٣٠٩ البخل

٣١٥ البيان والتبيين

٣١٩ الحيوان

- ٣٢٢ رسالة التربيع والتدوير  
٣٢٤ صور جديدة من أدب الجاحظ وفكره  
٣٤٤ ملاحظة أخيرة  
٣٤٦ الكلمة الأخيرة

## كتب للمؤلف

---

- ١ - تفسير القرآن الحكيم - ١٣ جزء
- ٢ - البناء الفني للقصيدة العربية
- ٣ - دراسات في النقد الأدبي
- ٤ - دراسات في الأدب المقارن
- ٥ - قصة الأدب في مصر - ٥ أجزاء
- ٦ - من تراثنا الأدبي ( بالاشتراك )
- ٧ - دين الإنسانية

## تحت الطبع

- ١ - قصة الأدب الممجى
- ٢ - قصة الأدب العربى فى ليبيا
- ٣ - العروض العربى
- ٤ - الرصافى تحقيق ديوانه ودراسة لحياته وشاعريته - بالاشتراك
- ٥ - مذاهب النقد العربى

